A. S. A. HARRISON

أ. س. أ. هاريسون

الزوجة الصامتة

THE SILENT WIFE

رواية

«لا يمكنني وضع هذا الكتاب من يدي».
إليزابيث جورج، مؤلفة تصديق الكذبة،
الكتاب الأفضل مبيعاً بحسب نيويورك تايمز.



يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
THE SILENT WIFE
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Penguin Books
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الزوجة الصامتة

THE SILENT WIFE

رواية

A. S. A. HARRISON

أ. س. أ. هاريسون

ترجمة

مروان سعدالدين

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

القسم الأول

هي وهو

1

هي

الوقت بداية أيلول، وجودي بريت تحضّر العشاء في المطبخ. بفضل التصميم المفتوح للشقة، كان بإمكانها أن ترى بوضوح عبر غرفة المعيشة المشهد الذي يجمع البحيرة والسماء، من خلال نوافذها المواجهة للشرق. كان ضوء المساء الأزرق المتّسق يغمرها، وكان بإمكانها أن ترى خطاً رفيعاً داكن اللون؛ إنه الأفق، وكان قريباً إلى درجة شعورها أنه في متناول يدها، وأنها تستطيع لمسه. يعجبها هذا القوس المصوّر بدقة، ويشعرها بأنه يطوّقها، فالإحساس بالاحتواء هو أكثر ما تحبه في هذا البيت المرتفع الذي يقع في الطابق السابع والعشرين.

بعمرها البالغ خمسة وأربعين عاماً، لا تزال جودي ترى نفسها امرأة شابة، إنها لا تفكر في المستقبل كثيراً، وإنما تعيش تماماً في اللحظة الراهنة، وتفكر في كل يوم في ذاته. وهي تفترض – من دون أن تفكر في هذا – أن الأمور ستجري بنحو غير محدد بطريقتها المقبولة تماماً؛ وإن لم تكن مثالية. بكلمات أخرى، إنها غافلة تماماً عن أن حياتها قد وصلت إلى ذروتها الآن، وأن مرونة شبابها – التي استنفدتها سنوات زواجها العشرون من تود غيلبرت – تقترب من

مرحلة تفككك أخيرة، وأن أفكارها عمّن تكون، وكيف ينبغي أن تتصرّف أقل استقراراً مما تفترض؛ مع الأخذ بالحسبان أن شهوراً قليلة فقط هي كل ما سيلزم لجعلها قاتلة.

إذا أخبرتها بهذا فلن تصدّقك، فالجريمة مجرد كلمة في مفرداتها؛ إنها مفهوم من دون أي معنى، وموضوع قصص في الأخبار، وتتعلّق بأشخاص لا تعرفهم، ولن تلتقيهم أبداً. إنها لا تصدق أن العنف الأسري والخلافات اليومية يمكن أن تتفاقم مهددة الروابط الأسرية إلى هذا الحدّ، وهذه الدرجة. إن عدم قدرتها على تصديق ذلك وفهمه له أسبابه؛ حتى إذا نُحِّيت جانباً قدرتها على ضبط النفس، وعدم سعيها وراء المثالية، وتقبلها للأمور السيئة بصفتها الوجه الآخر للأمور الجيدة الذي لا بد منه، فضلاً عن أن جودي لا تثير الشجارات، ولا يمكن إزعاجها بيسر وسهولة.

عادة، يجلس الكلب عند قدميها حين تعمل على لوح التقطيع؛ كلب الصيد ذاك الذي تلبسه سترة حريرية، وترمي له بين الحين والآخر شريحة من الجزر النيء، يلتقطها بأسنانه، ويطحنها بمرح بأضراسه. يُعد رمي الخضار إحدى العادات القديمة التي تسبق العشاء. وقد استمتعت والكلب بها منذ أن أحضرته إلى المنزل وهو جرو صغير مكتنز، وذلك لإبعاد ذهن تود عن توقه إلى الذرية الذي انبثق - بين عشية وضحاها كما يبدو - عندما بلغ الأربعين. أسمت الكلب فرويد تيمناً باسم عالم النفس فرويد؛ كاره النساء الذي أُرغمت على أخذه على محمل الجد في الجامعة. فرويد يطلق الغازات، فرويد يأكل النفايات، فرويد يطارد ذيله؛ الكلب لطيف دائماً ولا يمانع إطلاقاً أن يكون موضوعاً للتندر.

كانت تقطّع الخضار، وتفرم الأعشاب، وتشغل نفسها تماماً بالعمل. فهي تحب الطهي، وتحب رشاقة شعلة الغاز، والمؤقت الذي يحدّد انقضاء الدقائق، والنتيجة الفورية. أدركت أن الصمت مخيم خارج المطبخ، وأن كل شيء يندفع إلى نقطة في الوقت حين ستسمع مفتاحه يدور في القفل؛ إنه شيء تتوقعه بسعادة، وهي لا تزال تشعر أن تحضير العشاء لتود مناسبة مهمة، ولا تزال شاكرة لضربة الحظ التي أحضرته إلى حياتها.

حدث ذلك في صباح يوم ربيعي ماطر. كانت مشغولة بالدراسة صباحاً والتحضير لتخرّجها في علم النفس، وبخدمة الطاولات ليلاً. وكانت تنتقل إلى بيت جديد، وتقود شاحنة مغلقة مستأجرة محمّلة بأغراضها المنزلية شمالاً عبر شارع ستيت. وعندما استعدت لتغيير مسارها من اليمين إلى اليسار ربما نظرت من فوق كتفها وربما لا. وفجأة، وجدت الشاحنة ثقيلة، ولم تعد تسيطر عليها؛ ما جعلها تخطئ المنعطف عند آخر إشارة ضوئية. ونظراً إلى تلك الظروف، ربما يكون ذهنها قد شرد؛ وهذا ما أصبح موضوع نقاش مستفيض بينهما لاحقاً. لقد سمعت ضجيجاً عاماً صادراً من أبواق وصرير مكابح، وقبل أن تتمالك نفسها - قبل أن تدرك تماماً أن شاحنتها قد توقفت وأنها بخير - كان يصرخ عليها عبر نافذتها المغلقة.

"أيتها الغبية المجنونة، ماذا تظنين نفسك فاعلة؟! هل أنت معتوهة من نوعٍ ما؟ أين تعلمت القيادة؟ الأشخاص أمثالك ينبغي لهم أن يبقوا بعيدين عن الطريق. هل ستخرجين من مركبتك أم ستجلسين فحسب كما لو أنك مغفّلة؟"

لم يترك تقريعه المطوّل لها في ذلك اليوم تحت المطر انطباعاً حسناً لديها. لكن أي رجل تعرّض لحادث سير لا بد أنه سيشعر بالغضب؛ حتى وإن كان هو المتسبب بالحادث، وهو لم يخطئ في تلك الحال. لذا، عندما اتصل بعد بضعة أيام ليدعوها إلى العشاء، قبلت بلطف.

أخذها إلى الحي اليوناني، حيث تناولا شيش الضأن واحتسيا شراباً بارداً. كان المطعم مزدحماً، والطاولات قريبة من بعضها، والأضواء ساطعة. وجدا نفسيهما يصرخان أعلى من الصخب الذي يحيط بهما، ويضحكان من فشلهما في سماع بعضهما، وتحوّل أي حديث استطاعا تدبّره إلى عبارات مثل: "الطعام جيد... أعجبني المكان... كانت نافذتي متسخة... لو لم يحدث هذا لما التقيتك مطلقاً"

لم تخرج جودي في مواعيد حقيقية كثيرة. فقد اصطحبها الرجال الذين عرفتهم من الجامعة لتناول البيتزا وعدّوا نقودهم أمامها. وعندما كانت تلتقيهم في المطعم كانوا يبدون بحالة بائسة؛ من دون أن يحلقوا لحاهم، ومرتدين الثياب نفسها التي جاءوا بها إلى الصف. أما تود فقد ارتدى قميصاً نظيفاً، وأقلّها من بيتها، وذهبا بسيارته الرباعية الدفع إلى المطعم معاً. وآنذاك، كان يعتني بها؛ فيعيد ملْءَ كوبها، ويتأكد من مستوى راحتها. وفيما كان جالساً قبالتها، سُرّت بما رأته؛ الطريقة التي يشغل بها المكان، وتصرّفه الذي بدا كما لو أنه يتولّى زمام الأمور. أحبت عاداته البسيطة؛ كمسحه سكينه بالخبز، ووضعه بطاقة ائتمانه من دون النظر إلى الفاتورة.

عندما عادا إلى سيارته، قادها إلى موقع البناء الذي يعمل فيه في بوكتاون؛ وهو قصر من القرن التاسع عشر يرمّمه، ويحوّله من نزل

إلى مسكن لأسرة واحدة. أمسك مرفقها بلطف، في حين أرشدها عبر الممر المتداعي.

"احذري الآن، راقبي خطواتك"

كان المكان قبيحاً، ويرجع إلى عصر النهضة القوطية؛ بقطع آجره المتضررة، وطلائه المتقشّر، ونوافذه الضيقة، وسقوفه التي تمنحه اندفاعاً مخيفاً نحو الأعلى؛ أي انحرافاً مبتذلاً في شارع تطلُّ عليه أبنية مربعة الشكل جُدّدت بالكامل. ومكان الشرفة الأمامية كان هناك سلّم ينبغي صعوده، وفي ردهة المدخل ثريا ضخمة ملقاة على جانبها. رأت في الغرفة الأمامية فسحة تشبه القنطرة، ذات سقف عالٍ على نحو لا يُصدّق، بالإضافة إلى أكوام من الأنقاض والأسلاك المتدلية.

قال مشيراً: "كان يوجد جدار هنا. يمكنك رؤية آثار الأقدام"

فنظرت إلى الأرضية بألواحها الخشبية المفقودة.

"عندما تم تحويل المكان إلى نُزل، بُنِيت الكثير من الجدران الداخلية. أما بالطريقة التي يبدو عليها الآن، لقد عدنا إلى التصميم الأصلي، ويمكنك أن تري حقاً كيف سيكون شكله النهائي

وجدت صعوبة في تخيّل النتيجة النهائية، ولم يساعدها عدم وجود كهرباء، وأن الضوء الوحيد شعاعٌ باهتٌ منبعثٌ من مصابيح الشارع في الخارج. أشعل شمعة، وجعل بضع قطرات من الشمع الذائب تستقر على صحن فنجان، ثم ثبّتها عليه. بدا عازماً على أن يُريها المكان؛ فقد حمل الشمعة وتنقلا عبر الغرف الفارغة؛ في المطبخ المستقبلي، وقاعة الاستقبال المفقودة منذ وقت طويل... في الأعلى، كان النُّزل بحالته السابقة أكثر وضوحاً، وأبواب غرف النوم مثبّتة بمزاليج، والجدران مطلية بألوان بغيضة. بدت الرائحة العفنة قوية، والجو مخيفاً بسبب

طقطقة الخشب القديم تحت الأقدام، فيما الشمعة ترسل مويجات ضـــوء تُظهر كليهما مثل شبحين على الجُدران والسقف.

قال: "ما أقوم به ليس ترميماً، وإنما سيكون تجديداً وتحـــديثاً. ستكون هناك أرضيات من السنديان، وأبواب خشبية صلبة، ونوافذ مزدوجة الألواح الزجاجية... سيصبح هذا المكان شيئاً يريده الجميع؛ منزلاً قديماً ذا طابع خاص، لكنه متين وعصري بالتأكيد"

كان يعمل وحده من دون معين، وتعلّم الصنائع مع مضيه قدماً بمهنته، وهو يفعل ذلك بدلاً من الجامعة، وقد اقترض مالاً، ويعـــيش على الدَّين والتفاؤل. وفهمت مدى ضيق ذات يده حين رأت كيس نوم مطوياً في إحدى غرف النوم، وفي الحمام شفرة حلاقة وعلبة من رغوة الحلاقة.

سألها حين عادا إلى الأسفل: "ما رأيك؟"

قالت: "أود رؤيته حين ينتهي

ضحك قائلاً: "أنت تظنين أن هذا يفوق قدرتي"

أقرّت: "هذا طموح جداً"

قال: "سينال إعجابك"

وبحلول وقت سماعها دخوله عبر باب البيت، كانت كلّ مـــن البحيرة والسماء قد غُلّفتا بضوء الغسق. أطفأت ضوء السقف؛ ممـــا جعل المصابيح قرب الستارة تلقي وهجاً باهتاً، ثم نزعت مئزرهــا، وأرهفت السمع لبعض الوقت إلى حركاته في الردهة. داعب الكلب، وعلّق سترته، وأفرغ جيوبه في الوعاء البرونزي على الطاولة الجانبية، وساد الصمت لوقت قصير حين كان يتفقد البريد. وضعت السلمون المدخن على طبق، ثم وضعت البسكويت الهش بشكل مروحة حوله.

إنه رجل ضخم البنية، وبني الشعر، ويتمتع بحيوية كبيرة. عندما يدخل تود غيلبرت غرفة ما فهو يلفت أنظار الموجودين فيها. وهذا ما ستقوله إن سألها أحدهم عن أكثر ما تحبه فيه، وبمقدوره أيضاً أن يجعلها تضحك حين يريد ذلك. وهو بخلاف الكثير من الرجال الذين تعرفهم يجيد تنفيذ العديد من الأمور. لذا، حتى وهو يتلقى مكالمة عبر هاتفه الخلوي يستطيع إغلاق مشبك قلادتها، أو تعليمها طريقة استخدام أداة فتح القوارير في خطوتين.

مسح جبينها بشفتيه، وخطا حولها، ومدّ يده إلى الخزانة لإخراج كأسي الشراب. وقال: "يبدو جيداً. ما هذا؟" مشيراً إلى اللحم الذي تغطيه طبقة مقرمشة، ذاك الذي خرج من الفرن ويرتاح في المقلاة.

"شطيرة ويلنغتون، لقد سبق لي أن أعددتها، أتذكر؟ أنت تحبها"

كان تحضير الشراب من مهماته. وفيما هي تخفق صلصة الخضار، كانت تسمع صليل مكعبات الثلج، وتشم الرائحة النفّاذة التي انتشرت من الليمونة التي قطعها بالسكين. اصطدم بها، فانسكب القليل من الشراب عليها. لكنها تحب أن يكون قربها بجسده المريح، وأن تشم رائحته، وتنجذب إلى حرارة جسده. إنه رجل لمسته دافئة على الدوام، وهذه قضية ذات أهمية خاصة بالنسبة إلى شخص بارد دائماً تقريباً.

وبعد أن وضع كأس الشراب أمامها على الطاولة، حمل كأسه مع طبق السلمون الخاص به إلى غرفة المعيشة، حيث رفع قدميه وفتح الصحيفة التي تركتها له على الطاولة الصغيرة مطوية بعناية. ووضعت اللوبياء والجزر في مبخّرتين منفصلتين، وتناولت أول رشفة من شرابها،

وشعرت كما لو أن تأثيره ينتشر عبر أوصالها. ألقى من حيث يجلس على الأريكة ملحوظات عن أخبار اليوم: الأولمبياد الآتي، الارتفاع الحاد في معدلات الفائدة، وتوقّع الأمطار. وعندما ابتلع معظم وجبته من السلمون واحتسى آخر قطرة في كأسه، نهض وفتح زجاجة أخرى فيما كانت تقطع اللحم إلى شرائح سميكة. أخذا طبقيهما إلى الطاولة، حيث يمكن لكليهما أن يستمتعا بمنظر السماء الصافية.

سأل وهو يستعمل شوكته: "كيف كان يومك؟"

فقالت: "رأيت برغمان"

"برغمان، ماذا لديها لتقوله عن نفسها؟" كان يتناول اللحم بتركيز ثابت، ويتكلم من دون أن يرفع بصره عن طبقه.

"ذكّرتني أنه قد انقضت ثلاثة أعوام منذ أن شاركت في إعلان الحلوى. أظن أنها تفكّر في إلقاء بعض اللوم عليّ"

يعرف مرضاها بأسمائهم السرية التي تمنحهم إياها. وبما أنهم يأتون ويذهبون أثناء وجوده في العمل، فهو لم يقابل أياً منهم إطلاقاً، لكنها تُبقيه على اطلاع بأحوالهم، وأصبح إلى حدٍّ ما على معرفة بهم جميعاً؛ وإن لم يكن قد رآهم من قبل. ولم تكن ترى أي ضرر في هذا طالما أن أسماءهم الحقيقية تبقى سرية. وبرغمان اسم مستعار للممثلة العاطلة عن العمل التي كان آخر أعمالها – إعلان الحلوى الأسطوري – ذكرى بعيدة.

قال: "إذاً، هذا الآن خطؤك"

"قالت لي إن يأسها هو ما يبعد الناس عنها، وهي تريد أن تعرف سبب عدم مساعدتي لها في ذلك. يا للهول! بقينا نعمل على الأمر طوال أسابيع"

فقال تود: "لا أعرف كيف تتحمّلين هذا!"

"ستفهم إذا رأيتها. فهي نشيطة، ومكافحة حقيقية، ولا تستسلم أبداً، وفي النهاية سيتغير شيء ما من أجلها"

"ما كنت لأصبر على هذا"

"ستفعل إن كنت تهتم بهم. أنت تعرف أن مرضاي مثل الأطفال"

ظهر امتعاض عابر على وجهه، وفهمت أن ذكرها لكلمة *الأطفال* قد ذكّره بالأطفال الذين لم ينجبهم. عاودت الحديث عن برغمان وقالت: "أشعر بالقلق عليها. إنها إحدى تلك الحالات التي لن تثق فيها بنفسها إن لم يوظّفها أحد آخر. لكن، لا أحد سيوظّفها لأنها لا تثق بنفسها، والمهم أنني لا أعرف إن كنت أساعدها حقاً. أحياناً أظن أنه ينبغي لي أن أعزل نفسي بوصفي معالجتها النفسية"

فقال لها: "ولماذا لا تفعلين إن كنت لا تحققين النتيجة المرجوة؟"

"حسناً، نحن لا نحقق *النتيجة* المرجوة. كما قلت، على الأقل لقد عرفت أنها تفعل هذا لنفسها"

فقال: "أحب هذا اللحم، كيف وضعته داخل الفطيرة؟"

كانت قطعة اللحم تبدو وكأنها سفينة في قارورة، لكنها تعرف أنه لا يمزح. فبالنسبة إلى رجل يمكنه تشييد جدران وغرس أساسات، إنه ساذج على نحو مدهش حين يتعلق الأمر بالطهي.

أجابت: "إنها مغلّفة. فكّر في عازل حول أنبوب"

لكنه كان يحدّق إلى الفراغ، ولم يبدُ أنه انتبه إلى جوابها.

كان هذا الأمر يحصل دائماً؛ رغم أنها لاحظت أنه أصبح أكثر تكراراً مؤخراً. فهو يكون معها في لحظة، ويغيب في اللحظة الآتية؛

ويجرفه نهر من الأفكار والتخمينات والقلق، من يعرف؟! ربما هو يعدّ بصمت وبشكل عكسيّ بدءاً من الرقم المئة، أو يسرد ذهنياً أسماء الرؤساء. على الأقل، لا يمكنها أن تخطئ في معرفة مزاجه. فمنذ بعض الوقت، أصبح أكثر مرحاً على نحو مميز؛ مثل شخصيته القديمة، إلى حد أنها بدأت تفكّر في أن اكتئابه شيء من الماضي. وكانت قد خشيت في وقت من الأوقات أن يكون دائماً؛ فقد استمر وقتاً طويلاً، ولم يكن بمقدور أي كان – حتى فرويد – انتشاله منه. كان فرويد الجرو، بتصرّفاته الغريبة، مفيداً.

على الأقل، كان بمقدوره دائماً التظاهر أثناء مأدبة عشاء، والتحلي بالدماثة، وجعل الناس يشعرون بالارتياح. استجابت النساء لتودد لأنه صريح وكريم: *روزالي، أنت تشربين من ينبوع الشباب مجدداً. ديردري، تبدين جيدة كفاية للأكل.* كما كان يكيل المديح للرجال أيضاً، ويجعلهم يتحدثون عن أنفسهم من دون تنافس، ويثير ضحك الناس على محاكاته: المعالج الطبيعي الهندي الشرقي (*أنت تتعرض لضغط شديد... يجب أن تمضي قدماً ببطء*)، والميكانيكي الجامايكي (*هذه السيارة بحاجة إلى ثلاث عجلات جديدة... ارفع غطا المحرك يا رجّال*).

إنه بالتأكيد أفضل حالاً الآن، وأكثر حيوية، ومستعد للضحك حتى عندما يكونان بمفردهما، وأكثر هدوءاً واسترخاءً، وأقل قلقاً، وأكثر شبهاً بشخصيته القديمة؛ بالطريقة التي كان عليها في السنوات الأولى؛ رغم انقضاء الأيام التي اعتادا فيها الجلوس على السرير لقراءة الصحف ومشاهدة المباريات وتشاطر وعاء من رقائق الذرة، فيما علبة الحليب متوازنة على عمود السرير، والسكر يفيض من كيس

دومينو على الملاءات. كانا في ذلك الوقت يتمتعان بالحرية لأنهما بالكاد يعرفان بعضهما، ويمتلكان مستقبلاً مشرقاً، وكل الأبواب لا تزال مفتوحة بالنسبة إليهما، وجميع الوعود لا تزال قابلة للتطبيق.

قالت له: "أشركني في أفكارك"

فارتعش جفناه، وابتسم لها، ثم قال: "هذا لذيذ" ومدّ يده إلى القارورة نصف الفارغة، ثم ملأ كأسيهما مجدداً وسألها: "ما رأيك بهذا الشراب؟"

إنه يحب أن يتكلم عن الشراب، وأحياناً قد يكون ما يتناولانه محور حديث وجبة العشاء برمّته. لكن الآن، بدلاً من انتظار جوابها، لطم براحته على جانب رأسه وقال: "كنت أريد إبلاغك أن هناك رحلة لصيد الأسماك في عطلة نهاية هذا الأسبوع. بعض الشباب ذاهبون"

فقالت: "رحلة لصيد الأسماك!"

أنهى شريحتَي اللحم، ومسح العصارة بقطعة خبز ثم قال: "سيغادرون الجمعة بعد العمل، وسيعودون الأحد"

لم يكن تود يذهب في رحلات لصيد الأسماك، ولا أحد من الشباب الذين يعرفهم أيضاً؛ وفقاً لما تعرفه. ففهمت فوراً أنه استخدم عبارة "رحلة لصيد الأسماك" للتمويه.

سألته: "هل ستذهب؟"

"أفكر في الأمر

كانت لا تزال تتناول وجبتها، وتحاول الإسراع آنذاك. كانت الطريقة التي تأكل بها أحياناً – تقضم لُقيمات صغيرة، وتبقيها حبيسة في فمها لوقت طويل – تستنفد صبره؛ وهي تعرف هذا. ابتلعت

لقمة غير ممضوغة جيداً فعلقت في حلقها؛ مما أثار لديها رد فعل أشبه بالتقيؤ. وبشهامة، قفز من مكانه، وربّت على ظهرها حتى تجشأت وتنهدت. على الأقل، خرجت قطعة الطعام التي سبّبت لها المشكلة إلى يدها، فوضعتها على حافة طبقها من دون أن تنظر إليها.

قالت وهي تستخدم منديلها لتجفّف طرفي فمها: "أعلمني بقرارك. إذا ذهبت فقد أنظّف السجادات وأصنع بعض المربّى

لم تكن تخطط لفعل أيٍّ من هذين الأمرين، وإنما كان ذلك مجرد شيء تقوله. طالما اعتبرت عدم كذبه عليها ميزة لديه؛ مما يعني أنه لا يزخرف حكايات عن نفسه بنوع من التفاصيل التي تحوّلها إلى أكاذيب. والمشكلة هنا لا تتعلق بالتفافه على المعنى، وإنما بكونه لا يذهب بعيداً في عطلة نهاية الأسبوع مطلقاً؛ فالذهاب بعيداً في العطلة شيء لم يفعله من قبل قطّ.

فجأة قال: "مهلاً، أحضرت لك هدية"

وغادر الغرفة مسرعاً، ثم عاد حاملاً رزمة؛ مستطيلاً مستوياً بحجم كتاب، ورقي الغلاف تقريباً، ومغلّفاً بورقة بنية، ومربوطاً بشريط. وضعها على الطاولة بجانب طبقها وجلس مجدداً. كان يقدّم لها الهدايا غالباً، وتحب هذا فيه؛ لكنها لا تحبها كثيراً حين تكون بهدف استرضائها.

سألته: "ما المناسبة؟"

"لا مناسبة"

ارتسمت ابتسامة على وجهه، لكن الجو بدا مضطرباً. ينبغي أن تطير أغراض في أرجاء الغرفة، وأن تدور رؤوس على أعناقها. رفعت الرزمة فوجدتها خفيفة جداً، وانفك الشريط بسهولة، وأخرجت من

بين قطعتين من الكرتون المقوّى صورة صغيرة جميلة؛ لوحة منمنمة أصلية. يصوّر المشهد النافر باللونين الأزرق والأخضر امرأة ترتدي فستاناً طويلاً واقفة في حديقة مسوّرة، ومحاطة بطواويس وغزال، ومتزينة بمجوهرات ذهبية متقنة الصنع، ويبدو واضحاً أنها لا تعاني أي هموم مادية أو متاعب دنيوية. وكانت هناك أغصان مورقة متقوّسة فوق رأسها على نحو وقائي، فيما الأعشاب تحت قدميها تبدو كسجادة خضراء واسعة. أمعنا النظر إلى المشهد معاً، وعلّقا على يدي المرأة المخضّبة بالحناء، وسلّتها البيضاء الصغيرة، وقدّها الجميل الذي يُرى عبر القماش الرقيق لعباءتها. وأثناء تأملهما التفاصيل الدقيقة والألوان المختلفة، عادت حياتهما إلى طبيعتها بنحو غير واضح. كان محقاً في إهدائها إياها.

اقترب موعد النوم فيما كانت تنظّف الطاولة وتبدأ بغسل الأطباق. عرض عليها المساعدة بشكل روتيني، لكن كليهما كانا يعرفان أنه من الأفضل أن يترك التنظيف لها ويأخذ الكلب في نزهة. لم تكن متطلّبة كثيراً، ولم تكن معاييرها تخالف المنطق. لكنها عندما تغسل مقلاة فينبغي ألا تكون دهنية حين تنهي غسلها، وينبغي ألا تمسح الدهن بمنشفة الأطباق التي ستستخدمها بعد ذلك في مسح الكريستال؛ وهذا أمر بديهي. وهو ليس مهملاً أيضاً حين يتعلق الأمر بالتشييد والبناء. فإذا كان يثبّت رفاً فلن يضعه بزاوية تجعل الأشياء التي تُوضع عليه تنزلق إلى الأرضية وتتحطّم، وسيعير كل شيء اهتماماً ويفعل الصواب، ولن يدعوه أي شخص يشاهده كمالياً أو يتهمه بأنه نيّق. هذا لا يعني أنها تميل إلى التذمر؛ فهناك حقيقة معروفة، وهي أنه في مراحل معينة تصبح أقوى نقاط الناس

أسباب فشلهم. وينبثق نفاد صبر تود من الأعمال المنزلية من حقيقة أن طاقته الكبيرة تتجاوز نطاق المهمات التي ينبغي إنجازها، ويمكن رؤية هذا بالطريقة التي يملأ بها الغرفة؛ فهو ضخم وطويل القامة، وصوته عالٍ، وإيماءاته شاملة. ويُعتبر رجلاً ينتمي إلى الخارج أو إلى موقع بناء؛ حيث يبدو حجمه منطقياً. وفي المنزل، يكون في أفضل حالاته حين يكون نائماً بجانبها، وجسده مسترخٍ، وطاقته ساكنة في نوعٍ من غياب مريح.

تحركت عبر الغرف البهيجة التي كانت ستائرها مسدلة، ووسائدها وثيرة، وصورها معلّقة، والتقطت الزغب عن السجاد، وهيّأت عموماً الجو الذي تريد أن تصحو عليه في الصباح؛ فمن المهمّ أن يكون كل شيء في مكانه حين تبدأ يومها. وفي غرفة النوم، أزاحت الأغطية جانباً، ووضعت منامة له وثوباً لنفسها، وجعلت الثياب تبدو مثل أجساد خاوية. آنذاك، جعلها شيء ما بشأنها تقلق؛ الشريط الأبيض على المنامة الداكنة، والعقد الحريرية على ثوب النوم. غادرت الغرفة وخرجت إلى الشرفة، فوجدت النسيم عليلاً، والمشهد في الليل الخالي من القمر حالك السواد. كانت تحب الظلام الداكن، وتستمتع بالإحساس بالعزلة، وتحب حقيقة أنه بمقدورها التحكم بذلك؛ تلكّأت في الخارج إلى أن فقدت ذاك الشعور، فعادت إلى الداخل. إنها شاكرة حقاً لاستقرار حياتها والطمأنينة التي تمنحها إياها، وتثمّن غالياً حريتها اليومية، وغياب الطلبات والشكاوى، وقد حافظت بامتناعها عن الزواج وإنجاب الأولاد على سجل نقي؛ مما سمح لها بالتمتع بنوعٍ من الترف. لم تكن تشعر بأي أسى، وكانت رغباتها التربوية تجد منفذاً لها مع مرضاها، وهي متزوجة عملياً مثل

أي امرأة أخرى. يعرفها أصدقاؤها طبعاً بأنها جودي بريت، لكنها بالنسبة إلى معظم الناس السيدة غيلبرت. وهي تحب الاسم واللقب اللذين يمنحانها نسباً من نوعٍ ما، مما يزيل الحاجة إلى التصحيح للناس أو تقديم تفسيرات، ويجعلها تستغني عن المصطلحات المبتذلة مثل *شريك حياة* و*الآخر المهم*.

في الصباح، بعد أن غادر تود إلى العمل، نهضت وارتدت ثيابها، وأخذت الكلب للتنزه على طوال الواجهة المائية على الرصيف البحري. ومضت الشمس عبر سديم حليبي، وألقت شبكة فضية اللون فوق البحيرة. أما نسيم الشاطئ فكان عليلاً، ومحمّلاً بروائح بحرية قوية؛ بدءاً من زيت المحركات ومروراً بالأسماك ووصولاً إلى الخشب المتعفّن. في هذا الوقت من اليوم يكون الرصيف مثل عملاق نائم؛ نبضه بطيء وأنفاسه خافتة، ولا يتواجد إلا السكان المحليون الذين يتنزهون مع كلابهم أو يمارسون رياضة الجري، وهم يشاهدون المراكب المتأرجحة، والمياه المتلاطمة، والنوارس التي تغطس لتحظى بفطورها. وعندما استدارت نحو المدينة، ظهر الأفق مثل خيال يبرز على طول الساحل، مضاء بالشمس المشرقة على نحو مثير. جاءت إلى شيكاغو قبل أكثر من عشرين عاماً حين كانت طالبة، وشعرت فوراً أنها في موطنها، وتعيش هنا ليس بدنياً فقط وإنما مزاجياً أيضاً. وبعد الحرمان الذي عاشته في بلدها الصغيرة، أدهشتها الأبنية العالية، وازدحام الناس، والتنوع الغني، وحتى الطقس المتقلّب. إنه المكان حيث بلغت سن الرشد، وكوّنت هويتها، وتعلّمت أن تعيش حياتها بوصفها راشدة وذات مهنة.

بدأت بمزاولة مهنتها في الربيع الذي أعقب إنهاءها دراستها. وبحلول ذلك الوقت، كانت تعيش مع تود في غرفة واحدة صغيرة في

منطقة متنزه لينكولن. حصلت على مرضاها الأوائل بفضل علاقاتها الجامعية، وكانت تقابلهم في فسحة المعيشة حين يكون تود في العمل. كانت قد قررت باكراً - وهي لا تزال تدرس - أن تكون طريقتها انتقائية؛ إذ ستعتمد على كل ما يوجد في ذخيرتها ويجعل الوضع منطقياً. لذا، تدرّبت على الاستماع الفاعل، واعتمدت مقاربة جشتالت في تفسير الأحلام، واعترضت صراحة على أنماط سلوك ومواقف انهزامية. كما نصحت أشخاصاً بأن يعرفوا المزيد عن أنفسهم، وشجّعتهم، وحصلت على تغذية راجعة منهم. واكتشفت في عامها الأول كيف تتحلّى بالصبر، وتجعل المرضى يتجاوبون معها. وكانت وصفتها السرية للنجاح هي مودّتها الكبيرة تجاه مرضاها؛ فقد أحبتهم ومنحتهم فائدة الشك، مما جعلهم يشعرون بالراحة. فتكلموا بالخير عنها مع آخرين، وازدهر عملها بفضل ذلك.

سار عملها جيداً على نحو عام، ومضت قدماً بخطوات واسعة، وطوّرت مهاراتها، واكتسبت ثقة بنفسها. وفي أحد الأيام، وُجد أحد مرضاها - وهو شاب كان يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً، وشُخّصت إصابته باضطراب ثنائي القطب؛ فتى طيب القلب كان يبلي حسناً في المدرسة، ويبدو موفور الصحة، ويُدعى سيباستيان، شعره داكن، وعيناه داكنتان، وهو فضولي يحب طرح الأسئلة البلاغية (لماذا هناك شيء بدلاً من لا شيء؟ كيف نعرف شيئاً بالتأكيد؟) - وجد هذا المريض، الشاب سيباستيان، ميتاً على الرصيف أسفل شرفة الطابق العاشر لشقته؛ الشقة حيث عاش مع والديه. وعندما لم يأتِ إلى جلسته المعتادة اتصلت بمنزله وسمعت النبأ من أمه. وبحلول وقت اكتشافها ذلك، كانت قد مضت على وفاته خمسة أيام.

كانت أمه لطيفة كفاية لتقول لها: "لا تلومي نفسك" لكنه كان قد قفز في يوم جلستهما الأخيرة. ورغم أنها رأته في الصباح، إلا أنه أنهى حياته قبل انقضاء اثنتي عشرة ساعة على ذلك. ما الذي تكلما عنه؟ تكلما عن مشكلة صغيرة كان يعاني منها في عينيه وتجعله يرى الأشياء بنحو محيطي؛ أشياء سريعة الزوال وغير موجودة حقاً.

حصل ذلك حين سجّلت لتلقي دراسات إضافية في كلية أدلر، وحين بدأت تنتقي مرضاها وتختارهم.

عبرت متنزه غيتوي، وقضت فترة من النهار مع جارتها، ثم توقفت عند مقهى روم لتتناول القهوة بالحليب. وفيما كانت تأكل بيضة نصف مسلوقة وخبزاً محمّصاً مدهوناً بالزبدة، راحت تقرأ الصحيفة. وبعد الفطور، أزالت الأطباق عن المائدة، ثم أخرجت الملف عن مريضها الأول، واسمه المستعار القاضي؛ وهو محامٍ غير سويّ لديه زوجة وأولاد. يتمتع القاضي ببعض الصفات المشتركة مع مرضاها الآخرين؛ فقد وصل إلى حائط مسدود في حياته، ويصدّق أو يأمل أن تساعده المعالجة النفسية، وقد قطع وعداً على نفسه أن يجرّب ذلك، ولا يثير مواضيع أكثر مما يمكن معالجتها. كانت قد عزمت على تحقيق هذه النقطة الأخيرة عبر عملية غربلة؛ إذ كانت تحيل أشخاصاً يعانون من سلوك مدمر للذات إلى مكان آخر، وهي لا تقبل المدمنين – سواء أكانوا مدمنين على الممنوعات أو الشراب أو ألعاب الميسر – وترفض معالجة أي شخص يعاني اضطراباً غذائياً، أو شُخّصت حالته بأنها اضطراب ثنائي القطب أو انفصام في الشخصية، أو يعاني من اكتئاب عضال، أو قد فكّر في الانتحار أو حاول ذلك؛ فأولئك أشخاص ينبغي أن يخضعوا لعلاج طبي أو إعادة تأهيل.

يسمح جدولها بمريضين فقط في اليوم، قبل الغداء. يكون المرضى الذين ينتهي بهم المطاف لديها - بعد الغربلة - في مأزق، أو تائهين، أو قلقين؛ أي من فئة الأشخاص الذين يجدون صعوبة في معرفة ما يريدونه، وفي اتخاذ قرارات بناءً على ما يُتوقّع منهم أو ما يظنون أنه يُتوقّع منهم. قد يكون هؤلاء المرضى قاسين على أنفسهم وفي الوقت عينه يتصرّفون بطرائق غير مسؤولة أو غير ملائمة، وإجمالاً لا يستطيعون تحديد أولوياتهم، ويفشلون في وضع حدودٍ شخصية، ويتجاهلون ما فيه مصلحتهم، ويرون أنفسهم ضحايا.

تضم غرفة النوم الإضافية التي تستخدمها كغرفة استشارات طاولةً، وخزانة ملفات، وكرسيين بذراعين يواجهان بعضهما فوق بساط عتيق طوله ثماني أقدام وعرضه ستّ. وتوجد بين الكرسيين طاولة منخفضة وضعت عليها لوح الكتابة، وقلمها، وعلبة مناديل ورقية، وقارورة ماء، وكأسين. كان القاضي يرتدي بذلته الداكنة المعتادة، مع حذاء أسود، وجوربين زاهيين ينكشفان بوضوح حين يجلس ويضع ساقاً فوق الأخرى. إنه في الثامنة والثلاثين من عمره، وعيناه وشفتاه مثيرة في وجهه الطويل. جلست مكانها قبالته، وسألته عن حاله منذ رأته آخر مرة قبل أسبوع، فتكلم عن زيارته إلى أحد المقاهي، وعما حدث في الزقاق خلف المقهى، وخاض في التفاصيل. ربما كان يأمل أن يصدمها، لكن علاقة بين راشدين وبقبولهما لن تفعل هذا بالتأكيد. وبأي حال، هذه ليست أول مرة يختبر فيها صبرها بشيء مماثل. كان يتحدّث بسرعة، ويغير نبرته في منتصف الموضوع، ويعيش الحدث مجدداً، ويبذل قصارى جهده لجذبها إليه.

"كان سروالي منخفضاً إلى كاحليَّ. تخيّلي إن فكّر أحدهم... يا إلهي، في إخراج القمامة. ركّزتُ على هذا الأمر - أي القمامة - لإبطاء الأمور. كان ينبغي لي أن أفعل شيئاً... لم أذهب إلى ذلك المشرب منذ وقت طويل"

نظر إليها بمكر أثناء سرده القصة، وعيناه تلمعان، وشفتاه رطبتان. كان سيحب كثيراً أن تضحك وتقول له إنه فتى مشاغب وشرير؛ لكن عملها لا يتضمن ملأ ثغرات في الحديث، أو تنفيذ عمليات إنقاذ اجتماعية. انتظر بصمت قليلاً، وعندما لم تتكلم تململ ونظر إلى يديه، وقال أخيراً: "إذاً، أنا آسف، آسف حقاً. أنا آسف جداً، لم يكن ينبغي لي أن أفعل هذا" كانت تلك كلمات لا يستطيع قولها لزوجته، لذا يقولها لمعالجته النفسية.

أسلوبه الإنكار، متبوعاً بالصفح، ثم متبوعاً بجولة متجددة من الإنكار. ومرحلة الإنكار محدّدة بعبارات مثل "أحب أسرتي ولا أريد إيذاءها" الندم الذي يشعر به كبير، ولكنه لا يستطيع التخلّي عن مغامراته أو التفريط بستارة أمان حياته الأسرية؛ فهي معاً تلعب دوراً في تلبية احتياجاته، ومهمة لإحساسه بالهوية. يتظاهر لنفسه أن علاقاته مرحلة عابرة، ولا يرى أن العفّة والذنب طريقتان لشحن مدخراته من أجل الحصول على إثارة كاملة. ومثل الكثير من الأشخاص الذين يخونون، إنه يحب الدراما الذاتية، وهو غير سوي أكثر مما يعرف.

قالت له: "كن أنت الحكم" لكنه كان لا يزال بعيداً عن الاعتراف بذلك بصراحة.

الأربعاء هو يوم الخائنين. ومريضتها التالية - الآنسة بيغي - امرأة شابة خجولة، ذات وجنتين ممتلئتين ويدين مغطاتين بالنمش.

وهي تقول إن وجود عشيق يحفز رغباتها، ويبقي زواجها حياً. ووفقاً للآنسة بيغي، لا يشك زوجها في شيء، ولا يحق له التذمر إن راودته الشكوك. لم يكن واضحاً سبب لجوء الآنسة بيغي إلى العلاج النفسي، أو ما تتوقع الحصول عليه منه. وهي تختلف عن القاضي بافتقارها إلى ضمير يؤرقها، وبالطريقة العملية التي تتصرّف بها بعد ظهر يومَي الاثنين والخميس، بين تسوق البقالة وجلب الأولاد من المدرسة.

تبدو الآنسة بيغي أقل تناقضاً من القاضي. لكن من وجهة نظر جودي، تعتبر تحدياً أكبر. يسري قلقها تحت السطح في قنوات خفية، ونادراً ما يفور أو يُحدث اضطراباً، ووضع اليد عليه وإحضاره إلى حقل وعيها لن يكون سهلاً، في حين أن القاضي كتاب مفتوح؛ فهو رجل حسّاس وضع نفسه في ورطة. وفي النهاية، بمساعدة جودي أو من دونها، ستبلغ مشكلة القاضي ذروتها وتشق طريقها وتغادر حياته.

ورغم اعتقاد الآنسة بيغي أن زوجها لا يعرف شيئاً، إلا أن جودي تظن أنه على الأرجح يشك في الأمر؛ فهناك علامات دائماً، كما تعرف جيداً. مثلاً، يكون الخائن شارد الذهن أو مشغول البال دائماً، ولا يحب أن يُسأل، وتعلق روائح لا يمكن تفسيرها في شعره وثيابه، وقد تكون الروائح خاصة بأي شيء: عطور، عفونة، أعشاب، غسول فم. فمن الذي يستخدم غسول فم في نهاية اليوم قبل أن يخلد إلى النوم؟! قد يزيل الغسل روائح الجسد المميزة، لكن الصابون الذي يستخدمه الخائن في حمام الفندق ستكون رائحته مختلفة عن ذاك الذي يستخدمه في المنزل. الأهم من هذا هو وجود العلامات المعتادة: خصلة شعر حمراء أو شقراء، بقع أحمر شفاه،

ثياب مجعّدة، اتصالات هاتفية خفية، غياب غير مبرّر، علامات غامضة على الجسد... فضلاً عن المكتسبات الغريبة - كسلسلة مفاتيح جميلة، أو قارورة من العطر - تظهر من العدم؛ خاصة في يوم *العشاق*.

على الأقل، يبذل تود قصارى جهده ليكون كتوماً، ويلتزم بقاعدة عدم الاقتراب من صديقاتها؛ رغم عدّة محاولات سابقة. فقد كان هناك ثنائي يكنان لهما الودّ؛ إنهما الشخصان اللذان التقياهما في عطلة في الكاريبي، وأوثقا عروة الصداقة معهما أثناء تناول الشراب ودروس الغطس. وهما يديران عملاً خاصاً بهما في بيع الأكواخ مسبقة الصنع، وتود يزدري ذلك تماماً. ورغم هذا، التقياهما في فصول شتاء متعاقبة في منتجعات محدّدة، وشكّت جودي بحدوث شيء ما بين تود وشيلا، لكنها أبعدت الأمر عن ذهنها إلى أن اختفيا بعد ظهر أحد الأيام من جانب حوض السباحة، وظهرا مجدداً بعد مرور بعض الوقت وهما يبدوان مثل قطّين قد قفزا إلى وعاء كبير من القشطة. بدا من الممكن أن تغض الطرف عن هذا الأمر وحده، لولا أنه ترافق مع بعض التعديلات الطفيفة في ثياب سباحة تود، وكتلة صغيرة من شيء لزج كانت تلمع على شعر صدره.

رغم هذا، لم يكن أي من ذلك ذا شأن. وببساطة، لم يكن مهماً أن يفعل ذلك بين الحين والآخر؛ لأنه يعرف أنه خائن وهي تعرف ذلك أيضاً، كما أنه يعرف أنها تعرف، لكن المهم هو المظاهر؛ فالمظاهر مهمة جداً وينبغي الحفاظ عليها، والوهم بأن كل شيء بخير ولا شيء غيره مهم. وما دامت الحقائق لا تُعلن بصراحة، وما دام يتكلم إليها بمودة ومن دون مواربة، وما دامت الأمور تحدث بسلاسة

ويسود هدوء ظاهري، فهما يستطيعان المضي قدماً بحياتهما. ومن المعروف أن الحياة الرغيدة التي تعتمد على سلسلة من التسويات تستند إلى قبول أولئك الموجودين حولك باحتياجاتهم الفردية، وخصوصياتهم التي لا تكون متوافقة دائماً مع ما يحبه المرء، أو تكون مقيّدة لتلائم معايير اجتماعية محافظة. يعيش الناس حيواتهم، ويعبّرون عن أنفسهم، ويسعون إلى تحقيق إنجازات بطرائقهم الخاصة وأوقاتهم الخاصة. وهم سيقترفون الأخطاء، ويختبرون آراء ضعيفة وتوقيتاً سيئاً، ويسلكون منعطفات خاطئة، ويطوّرون عادات مؤذية، وينحرفون عن مسالكهم. وإذا كانت جودي قد تعلَّمَت شيئاً في دراستها فهو هذا؛ بفضل ألبرت إلياس، أب تحوّل نموذج السلوك المعرفي في العلاج النفسي. فالناس ليسوا هنا لسد احتياجاتنا أو تلبية توقعاتنا، ولن يعاملونا جيداً دائماً. وسيثير الفشل في قبول هذه الحقيقة مشاعر الغضب والاستياء، وصفاء الذهن يأتي من قبول الناس كما هم والتوكيد على ما هو إيجابي.

ينجح الخائنون؛ الكثيرون منهم ناجحون. وحتى إذا لم ينجحوا فلن يتغيروا؛ لأن الناس عادة لا يتغيرون؛ ليس من دون حافز قوي وجهد مستدام. إذ تتطوّر سمات الشخصية الرئيسة باكراً في الحياة، وتصبح بمرور الوقت منيعة ومتأصّلة، ولا يتعلّم معظم الناس الكثير من التجربة، ونادراً ما يفكرون في تعديل سلوكهم، ويرون أن المشاكل تنبثق من أولئك الموجودين حولهم، ويتابعون فعل ما يفعلونه رغم كل شيء، سواء أكان للأفضل أو الأسوأ. يبقى الخائن خائناً؛ بالطريقة عينها التي يبقى فيها المتفائل متفائلاً. والمتفائل هو الشخص الذي يقول بعد أن تصدمه سيارة فتُبتر كلتا ساقيه، ويرهن المنزل

ليدفع فواتير المستشفى: "لقد كنت محظوظاً، فقد كدت ألقى حتفي بالنسبة إلى المتفائل، يبدو هذا النوع من التعبير منطقياً. في حين يبدو منطقياً بالنسبة إلى الخائن أن يعيش حياة مزدوجة، وأن يتكلم من كلا طرفي فمه في الوقت ذاته.

وبتوكيدها على أن الناس لا يتغيرون، فما تعنيه هو أنهم لا يتغيرون إلى الأفضل؛ في حين أن التغيير إلى الأسوأ بديهي. والحياة لديها طريقتها الخاصة في فرض ضريبتها على الشخص الذي تظن أنك عليه. فقد اعتادت جودي أن تكون شخصاً لطيفاً؛ لطيفة تماماً، لكن لم يعد بمقدورها التمسّك بذلك الزعم بعد الآن. انقضى الوقت الذي رمت فيه هاتفه الخلوي في البحيرة بعد قراءتها الرسالة التي خاطبته فيها المرسلة "ذئبي"؛ الوقت الذي وضعت فيه سراويله في الغسيل مع الكثير من الأصباغ؛ الأوقات الكثيرة التي لاحظت فيها أنه يضع أشياء في غير أماكنها. ليست فخورة بتلك الأعمال الشريرة، وتودُّ أن تظن أنها أسمى من هذا النوع من السلوك وتقبله على حاله، وأنها ليست إحدى أولئك النساء اللواتي يشعرن بأنهن يدنّ بشيء لرجالهن بعد أن يعرفن بما يجري. لكنها تعتبر أخطاءها هامشية مقارنة بالتجاوزات التي يُقدم عليها بحرية.

رافقت الآنسة بيغي إلى الخارج، ثم تابعت طريقها إلى القاعة الرياضية في الطابق السفلي من البناية، حيث رفعت الأثقال وهرولت على البساط السيّار. وبعد أن تناولت غداء من بقايا الخضار الباردة مع المايونيز، اغتسلت وارتدت ثياباً للنزهة. وقبل أن تغادر، كتبت تعليمات إلى كلارا التي تأتي للتنظيف بعد ظهر كل أربعاء. الروتين اليومي هو البلسم الرائع الذي يجعل مزاجها جيداً وحياتها متماسكة،

ويبعد الرعب الوجودي الذي يمكن أن يباغتها في أي وقت تشعر فيه بتردّد أو خسارة، ويذكّرها بأهمية الفراغ الذي تتمتع به. إنها تستمتع بالانهماك في العمل مع مرضاها، وإدارة منزلها، وإبقائها نفسها رشيقة وأنيقة. كما أنها تحب الأشياء مرتّبة، ويمكن توقّع أفعالها، وتشعر بالأمان حين تنظّم وقتها جيداً مسبقاً. ومن دواعي سرورها أن تقلّب صفحات دفتر يومياتها وترى ما ينبغي أن تتطلّع إليه: زيارة المنتجعات، مواعيد تصفيف الشعر، الفحوص الطبية، وجلسات اللياقة البدنية. وهي تحضر تقريباً كل المناسبات التي تنظّمها نقابتها المهنية، وتنضم إلى كل الصفوف التي تثير اهتمامها. وفي المساء، حين لا تكون تطهو لتود، فهي تتناول العشاء مع صديقاتها. هناك أيضاً العطلتان الطويلتان – إحداهما في الصيف، والأخرى في الشتاء – اللتان تستمتع وتود بهما معاً دائماً.

تجوّلت في الأرجاء بسيارتها الأودي كوبيه، وأخفضت زجاج النوافذ، وتشرّبت فوضى المدينة وصخبها، وسُرّت بالضجيج والجلبة المنتشرَين في كل مكان؛ ضجيج الباعة، وموسيقيي الشوارع، وأسواق الهواء الطلق، وحتى الحشود، والصافرات، وازدحام المرور، وفتاة مراهقة تحمل مجموعة *بوالين* عبر الشارع، ورجل يرتدي ثوباً أبيض ويجلس بوضعية يوغا على درجات مطعم. توقفت عند محل الأُطر مع اللوحة المنمنمة، وأمسكت كتاب أسفار، واشترت ميزان مطبخ لاستبدال المكسور. وفي طريقها إلى المنزل، جلست في ستاربكس المحلي لتناول الكابوتشينو، ومنحت نفسها وقتاً كافياً لإخراج الكلب في نزهة وشي شريحة لحم للعشاء قبل أن تحضر صفها في تنسيق الزهور.

2

هو

يحب أن يبدأ باكراً. وبمرور السنين، أصبح روتينه الصباحي يرتبط بالأمور الأساسية فقط. فهو يستحم بماء بارد ليقتل أي رغبة لديه بقضاء وقت طويل أثناء الاستحمام. وتتكون عدّة حلاقته من علبة من رغوة الحلاقة وشفرة آمنة. وهو يرتدي ثيابه في عتمة غرفة النوم، في حين تغط جودي والكلب في النوم. وأحياناً، تفتح جودي إحدى عينيها وتقول: "عادت قمصانك من المصبغة"، أو "هذه السراويل تبلى"، فيرد عليها قائلاً: "عودي إلى النوم" ثم يبتلع حبة من الفيتامين مع كأس من عصير البرتقال، وينظّف أسنانه من جانب إلى آخر؛ بطريقة خاطئة وإنما سريعة، وبعد ثلاثين دقيقة من مغادرته السرير يكون في المصعد، في طريقه إلى ساحة ركن السيارات.

وقبل السابعة تماماً يكون جالساً إلى طاولته في الطابق الرابع من مبنى مؤلّف من أربعة طوابق جنوبي ميتشيغان، تحت روزفلت. كان ذلك المبنى – وهو بناء من الآجر وأحجار الجير، ذو سطح مستوٍ، ونوافذ عازلة بأطر فولاذية كانت حديثة حين ثبّتها – أول مشروع تجديد واسع النطاق تولى إدارته. وقد شرع فيه بعد عقد من العمل في المنازل، وقبل أن يجعل الهوس بالشقق في المنطقة الجنوبية قِيَم

العقارات خارج متناول اليد. كان المبنى في بداية امتلاكه له مساحة ميتة، وقد موّل تحويله إلى أجنحة مكاتب بثلاثة قروض عقارية وسلفة ائتمانية، وعمل طوال الوقت جنباً إلى جنب مع العمّال الذين وظّفهم. كان بمقدوره فعل كل شيء بنفسه، لكن إذا نفدت أمواله فستضع المصارف أيديها على الرهن. وفي مجاله، تجعل أشياء مثل تسديد القروض العقارية، والضرائب، والتأمين القولَ *إن الوقت من* ذهب حقيقة حرفية. الجناح الذي أبقاه لنفسه متواضع. وهو مكوّن من مكتبين، وصالة استقبال صغيرة، ومرحاض. ومكتبه هو الأكبر بين المكتبين، ويطل على الشارع. الديكور عصري ومقتصد، وذو سطوح مكشوفة وستائر تحجب الشمس، ولا تتبعثر فيه عاديات وتحف كما سيكون عليه الأمر لو ترك جودي تتصرّف بطريقتها.

أجرى أول اتصال له في ذلك اليوم مع المطعم الذي يرسل له الفطور، وطلب - جرياً على العادة - شطيرتي لحم وكوبي قهوة كبيرين. وأثناء انتظاره، أخرج علبة تبغ قديمة من درج طاولته، ونزع الغطاء عنها، وألقى المحتويات على سطح المكتب؛ وكانت عبارة عن أوراق ملفوفة على شكل بوق، وعلبة من عيدان الثقاب، وكيس صغير يحتوي حفنة من براعم وأوراق مجفّفة. فعندما كان مصاباً بالاكتئاب، وجد أن تدخين عشبة صغيرة في الصباح قد ينتشله من بؤسه ويساعده في الخروج إلى العمل، وقد أصبح معتاداً مذاك الحين على طقوس اللف والإشعال؛ وهو يحب الطريقة البهيجة التي يبدأ بها يومه. أخذ لفافته، ووقف قرب النافذة، وزفر الدخان إلى الهواء الطلق. لم يعد سراً من أي نوع أنه يحب حرق لفافة أو اثنتين كل يوم، ولكنه لا يظن فحسب أن ت. ج. غ. القابضة ينبغي أن تفوح منها رائحة غريبة.

اعتاد أن يشاهد من نافذته منظراً واضحاً للسماء. لكن ما يراه الآن بقعة صغيرة غير منتظمة من اللون الأزرق تطفو وسط الشق عبر الشارع، وهذا أفضل من لا شيء، فهو لن يوقف الازدهار. بأي حال، اهتمامه منصبّ على الناس الذين ينتظرون عند موقف الحافلات، وقلّة منهم واقفون في الظل؛ رغم أن الصباح صافٍ ولطيف، والنفايات مبعثرة في الحاويات. كان يجب تحديد هوية بعض الوجوه المألوفة: محب البوب الذي يضع سماعتين ويحمل حقيبة الظهر، الرجل النحيل العجوز الذي يعتمر قبعة كرة القاعدة ويدخن من دون توقف، المرأة الحامل التي ترتدي الساري وسترة الجينز. كان الجميع يركّزون تقريباً على حركة السير القادمة، ويكافحون لرؤية الحافلة المقتربة. وكالمعتاد، نزل واحد أو اثنان عن الرصيف، ووقفا في الشارع ليحظيا بمشهد أفضل. وعندما وصلت الحافلة أخيراً، تلاشى التوتر على نحو ظاهر للعيان؛ كأنهم كانوا جميعاً في الحالة الذهنية والبدنية نفسها. مدّوا أيديهم إلى تذاكرهم، واجتمعوا محتشدين في صف قلق. لقد رأى الحافلة طبعاً حين كانت بعيدة مسافة عدّة أبنية، وكان يشعر أحياناً أنه مميز بوقوفه هنا قرب نافذته في الطابق الرابع.

جلب الرجل من المطعم طعام الفطور إلى مكتبه، وأخذ المال الذي تُرك له تحت ثقّالة الورق، فأومأ له تود، وتابع التكلم مع كليف يورك عبر الهاتف. كان يدوّن ملحوظات وهو يعلم أنه لن يحتاج إليها. فهو لا يعاني أي مشكلة في أن يحفظ ذهنياً الأسماء، والتواريخ، والأشكال، والأوقات، والأماكن، وحتى أرقام الهواتف. كان المشروع قيد النقاش منزلاً سكنياً من ست غرف في منطقة متنزه جيفرسون، في منتصف مرحلة إنجازه، وقد تمّ التغلّب على

العقبات الأوّلية - التصميمات، الرُّخص، التمويل - وهُدمت كل الغرف. تكلّم مع كليف، مقاوله العام، عن ضغط الماء، وحدّدا وقتاً ليلتقيا فيه لاحقاً خلال اليوم للتباحث في الأمور، وسماع ما سيقوله *السبّاك*.

ممسكاً فطوره، وجد أن الخبز المحمّص ندي قليلاً، لكن اللحم المقدّد مقرمش. وعندما انتهى من تناول كلتا الشطيرتين واحتساء كوب من القهوة عاد إلى الهاتف، وتكلم هذه المرة مع وكيله العقاري الذي عثر له على مشترٍ محتمل. هذا نبأ جيد، فالمنزل السكني مشروع مؤقت، وإذا اضطر سيُبقي عليه ويؤجر الوحدات. لكن الخطة تقضي بأن يبيعه ويستخدم رأس المال في مشروعه التالي؛ أي بناء مكاتب على نطاق أوسع، شيء سيفوق كل ما قد فعله حتى الآن.

وصلت ستيفاني عند التاسعة وعشرين دقيقة، واستغرقت وقتاً في الاستقرار؛ إذ مرّت نصف ساعة قبل أن تظهر في مكتبه مع دفتر ملحوظاتها وملفاتها، وتقرّب كرسياً إلى طاولته. ستيفاني أنثى؛ إنها شابة في الخامسة والثلاثين من العمر، شعرها كثيف وتربطه في ضفيرة. وهو يهتم دائماً بالمكان الذي ستجلس فيه، والطريقة التي ستجلس بها؛ سواء أجلست قبالته مباشرة حيث يستطيع رؤيتها فقط من الخصر والأعلى، أو إلى يمينه حيث تميل لتضع ساقاً فوق الأخرى وتريح ساعدها على سطح الطاولة لتسجّل الملحوظات. يسمح سطح المكتب البيضوي القائم فوق قاعدة مستطيلة بفسحة كبيرة للقدمين. لذا، عندما تختار أن تعرض ساقيها - لأي سبب - يعتبر ذلك يوم سعده. وإذا كانت ترتدي الجينز فهو يرى فخذيها، أما إذا كانت

ترتدي تنورة فهو ينظر إلى ركبتيها وربلتي ساقيها. وهي لا تغريه، ولكن يبدو أنها لا تلاحظ أو تهتم إذا شاهد ساقيها. وها هي اليوم تضع واحدة فوق الأخرى مجدداً، وترتدي جينزاً. ولكنها جلست على كرسي عند الطرف البعيد من طاولته، لذا ينبغي له أن يكتفي بما يكشفه قميصها. لم يكن طولها يتعدّى خمس أقدام، لذا يُعتبر حجم صدرها مثيراً جداً للإعجاب.

أحضرت مجموعة ملفات، وقائمة بالأشياء لتعرضها عليه: أسعار مراوح سقفية، عناوين الإنترنت لمهندسي ديكور، فواتير يجب التدقيق فيها. كان يريد أن يعرف أي شيء لا يُعتبر روتينياً تماماً؛ فهو لم يصل إلى مكانته اليوم بإغفال التفاصيل أو ترك عمله ينسلُّ من بين يديه. وهو رجل واحد فقط، وهوامش ربحه ليست كبيرة؛ مما يعني أن كل شيء مهم. نظر إلى ساعته؛ كي تعرف فقط أنه لم يغفل وصولها المتأخر.

سألها حين تطرقا إلى الفواتير: "ألم يصل أي شيء من كليف؟"

"ليس بعد"

"أريني إياها حين تصل. فقد وضع في المرة الماضية تكلفة مادية على شيء اشتريناه بأنفسنا، ماذا كان؟"

"آجر حمام"

"صحيح. آجر حمام والجص. أرسل لي فاتورة من أجل الجص اللعين"

كانت قد أنجزت البحث الذي طلبه منها عن المراحيض، فسلّمته الملفات وهي تقول: "النماذج الاقتصادية بالماء أرخص ثمناً من تلك ثنائية الدفق، لكنها ليست موثوقة"

"ما خطبها؟"

"لا يتدفق الماء منها دائماً"

"ينبغي أن يتدفق الماء منها"

"لا ينزل المفتاح إلى الأسفل دائماً"

"لقد ركّب كليف مثلها من قبل

فقالت: "لا يمكن أن تجازف بهذا؛ ليس مع وحـدات إيجـار. ينبغي أن تلقي نظرة على خيارات الدفق الثنائي"

فعبس وسألها: "كم ثمنها؟"

"الأمر ليس بالغ السوء، يمكن الحصول على شيء موثوق مقابل خمسمئة"

"هذا يعني دفع ثلاثة آلاف للمراحيض اللعينة. يمكن أن نذهب إلى هوم ديبو ونحصل على مراحيض بخمسين دولاراً للقطعة"

"هذا ممكن، ولكنك لن تفعل

سأل: "ماذا أيضاً؟"

"ينبغي أن تفكر بشأن الثلاجات والمواقد، فشحنها قد يستغرق بعض الوقت"

"اجلبـي لي بعض الأسعار. إذا جاء كل شيء من المورّد نفسه فينبغي أن نحصل على تخفيض

"كيف أعرف الأحجام المطلوبة؟"

"انظري إلى التصميمات"

"لا أملك التصميمات، فقد أخذتها معك إلى المنزل"

"احصلي على نسخة من كارول في فانـدربورغ. الوحـدات ليست متماثلة"

وفيما كانت تجمع أوراقها شرد ذهنه قليلاً. كان يصغي بأذن واحدة إلى الأصوات القادمة من مكتبها، فيما يعمل عقله على كل شيء في آنٍ معاً؛ مطوقاً عالمه برمته بحركة واحدة، وكأنه في ملعب كرة قاعدة وهو يحاول تسجيل نقطة، فينتقل مسرعاً بين القواعد، وعيناه طوال الوقت على الكرة. وصل الأمر إلى حد أنه يستمتع بالخوف المتواصل، والخطر الذي يُقدم عليه مع كل قرار صغير، وإجهاد إرهاقه الدائم، وضغط المراهنة بكل شيء على المشروع الحالي. أصبح القلق الذي يشعر به ثابتاً بطريقة ما، وجعله يعرف أنه حي وعلى المسار الصحيح؛ إنه قلق يتداخل مع التوقّع، والاهتمام بما سيأتي؛ وهذا ما يجعله يمضي قدماً في يومه.

ففي أثناء اكتئابه فقد ذلك الزخم. وفي الواقع، كان فقدانه ذلك الزخم هو الشيء نفسه الذي يُعتبر خطأً فيه. كان الوقت بالنسبة إليه من دون فارق أو تكيّف، فهو دائماً نفسه؛ دقيقة بعد أخرى، ويوماً إثر آخر. لم يعرف شيئاً من الإحباط أو العبثية التي افترض أشخاص أنه يشعر بها. فالإحباط ببساطة لم يكن موجوداً، وإنما كان هناك غياب، وفسحة فارغة.

توثق من الوقت وأجرى مكالمة. جعله الصوت النعسان الذي قال مرحباً يرتعش بسعادة، وأثار رغباته.

"ألا تزالين في السرير؟"

"آ - ها"

"أليس لديك صف؟"

"ليس باكراً"

"مدللة"

"آمل هذا"

"ماذا ترتدين؟"

"ما رأيك؟ لماذا تريد أن تعرف؟"

"لماذا تظنين أنني أريد أن أعرف؟"

"هل هذا جدّي؟"

"ليس للتدوين

"سأحتاج إلى هذا كتابة"

تابعا على هذه الحال لبعض الوقت، وتخيّلها مستلقية على ملاءات مجعدة في غرفة النوم الضيقة في نورث كلارمونت حيث تعيش في شقة مع زميلات سكن. ذهب إلى هناك مرة، في الأيام الغابرة، حين كانت لا تزال هناك أماكن في جسدها لم يمسّها بعد. بعدئذ، اجتمعت زميلات السكن حولهما في المطبخ، وطرحن الكثير من الأسئلة؛ معظمها عن عمره وزوجته. بعد ذلك، بدآ يلتقيان في كراون بلازا في ماديسون، حيث يبقى الموظفون بعيدين ومهذبين دائماً.

عندما يتكلم معها تغمره مشاعر لا يزال يعدّها غريبة على نحو مبهم؛ مما يجعله يتساءل إن كان شخصاً آخر، ليس تود غيلبرت وإنما هو رجل دخل جسد تود غيلبرت أثناء شهور غيابه. في الفترة القصيرة التي عرفها فيها، أعادت إليه حياته، وهذا ما يدين لها به؛ هبة الحياة. بالإضافة إلى المشاعر التي تجعل الرجل إنساناً؛ ليس الحب فقط، وإنما الجشع والرغبة والتوق... حتى إن نفاد صبره هبة؛ نفاد صبره ليكون معها، الأمر الذي يؤرقه طوال اليوم. وغيرته هبة أيضاً. وهو يعرف أنه من حقها أن تكون مع حبيب أكثر شباباً، ويخشى أن

تكون المسألة مسألة وقت فقط قبل أن تكتشف هذا. ورغم أن هذا مؤلم، إلا أنه على الأقل في أرض الأحياء.

الغيرة أمر جديد بالنسبة إليه؛ فقد اعتاد أن يشعر بالثقة لدى تعامله مع النساء. ووفقاً لجودي، تأتي الثقة من تربية طفل وحيد مع أم شغوف. وفي حالته، ممرضة تلتزم بالعمل بدوام جزئي رغم ضيق ذات اليد كي تبقى معظم الوقت في المنزل وتعتني به؛ وكانت تلك طريقتها في التعويض عن عيوب أبيه الذي كان عاملاً عادياً يحتسي الشراب دائماً. عندما كان تود لا يزال في المدرسة الثانوية، أدّى دور المعيل لأمه بجنيه المال وتحمّله المسؤولية. وقد لقي ثناء كبيراً على ذلك، ليس من أمه فقط، وإنما من صديقاتها ومدرّسيه والفتيات اللواتي عرفهن. تحبه النساء ويُعجبن به؛ لأنه يعرف كيف يعتني بهن. وهو يعتني بناتاشا، لكن هناك مشكلة معها؛ فهي تجعله يعي تقدّم جسده بالعمر وتضاءل حيويته. لا يتعلق الأمر بأي شيء تقوله أو تفعله، وإنما فقط بكونها شابة وجذّابة وحيوية.

كان لا يزال يتكلم عبر الهاتف حين عادت ستيفاني مع حزمة صكوك ليوقّعها. مشى بخطوات هادئة، وتوقف عند النافذة، فوضعت الصكوك على طاولته وانتظرت. تدرك ستيفاني جيداً – كما يعرف – ما يجري بينه وبين ناتاشا التي جاءت إلى المكتب مرة وبدا أنها *ستأكله حيًا*؛ وفقاً لتعبير ستيفاني. أي نوع من المساعدات تتكلم مع مديرها على هذا النحو؟! ومؤخراً، بدأت ستيفاني تدخل مكتبه أثناء أحاديثهما الهاتفية، ولا تترك له خياراً غير إنهائها بسرعة؛ كما يحدث الآن. كانت تحمل قلماً في يدها وتدفعه إليه؛ كأنهما يتبارزان.

وقبل أن يغادر المكتب، اتصل بجودي ليقول لها إنه لن يعود إلى المنزل لتناول العشاء؛ لأنه سيقوم بزيارة مجاملة. كانت تعرف أنه سيرى دين الليلة، لكنه يحب أن يُشعرها أنه يفكر فيها. إنه رجل محظوظ ولا تفوته رؤية الحقيقة، وهي لا تزال جذّابة بجسدها الرشيق وشعرها الداكن. ورغم كونها من محبي البقاء في المنزل، إلا أنها تفهم أنه لا يستطيع قضاء أمسياته جالساً في الشقة. ينبغي أن يكون بعض أصدقائه في منازلهم لتناول العشاء كل ليلة، وبعضهم لا يتمكّن حتى من الخروج لاحتساء الشراب بعد العمل. ولكنْ لحسن الحظ، عدد رفاقه كبير - ويتضمن العدد كل من عمل معهم تقريباً - والكثيرون منهم عزّاب أو مطلّقون، لذا يستطيع غالباً العثور على من يشاركه تناول الشراب. ولا يعني هذا أنه يمانع قضاء أمسية بمفرده حين يصل الأمر إلى هذا الحد.

العلاقة بينه وبين دين كوفاكس قديمة، وترجع إلى أيام المدرسة الثانوية. ودين من أقدم أصدقائه، والوحيد الذي عرف أباه. وعندما يتكلم تود عن والده ويقول إنه وغد عجوز ولئيم، فدين يعرف بالتأكيد ما يتحدث عنه. دين فردٌ من الأسرة، وبمثابة أخ له عملياً، لكنه أب ناتاشا أيضاً، وقد تكون هذه مشكلة، أو لا تكون. تصعب معرفة رد فعل دين حين يكتشف ما يجري. سيشعر بالصدمة بالتأكيد، لكن حالما يحظى بفرصة الاعتياد على ذلك، فمن يعرف؟ ربما سيضحكان بشأن هذا؛ يستطيع أن يدعو دين "بابا" أو "بوب"، في حين يطلب منه دين أن يغرب عن وجهه. سيكون كل شيء بخير بنسبة عشرة إلى واحد. وعلى الأقل، لن يضطر هو إلى إخبار دين بذلك، فتلك مهمة ناتاشا. فهي ستخبره عندما تظن أن الوقت ملائم، وهذا ما قرّراه معاً.

كان اليوم دافئاً. وفي الشارع في الأسفل، ارتفعت الحرارة وفاحت رائحة السخام من الرصيف مثل عطر. إنه يحب هذه المدينة من صميم قلبه، ويحب امتدادها الواسع، وكثرة مبانيها الضخمة، وسلطتها، ومعتقد تجارها، وانتشار لافتات "للبيع" فيها، وفرصها غير المحدودة. متجاوزاً المباني الثلاثة جنوباً في طريقه إلى المرأب الخاص حيث ركن سيارته، شعر أن حظه كبير ورائع؛ لأن المقام قد استقر به هنا الآن؛ في هذا المكان، وفي هذا الوقت.

بدلاً من التوجه مباشرة إلى متنزه جيفرسون، استدار غرباً نحو روزفلت، وتوقف عند هوم ديبو. إذا جمع الوقت الذي أمضاه في هذا المتجر فسيجد أنه يمتد شهوراً من حياته. إنه يهتم بالديكور الداخلي، ولديه آراء بشأن أمور مثل الأرضية والإضاءة، ويعتبر أن المجموع الكلي للتفاصيل مهم جداً في نجاح مشروع ما أو فشله. يُسرّ كليف لدى تسوّقه الطلاء والآجر والبُسط والثوابت، وإضافة عشرة بالمئة له، ولكنه لا يكون موجوداً حين يبتعد مشترون محتملون لأنهم لا يحبون اللون أو اللمسة الأخيرة؛ فهو يحصل على نقوده مهما يحدث.

غادر المتجر من دون شراء أي شيء، وسلك الطريق السريعة. كان زجاج النوافذ في سيارته منخفضاً، *وأغنية نيفر مايند* تصدح من آلة التسجيل. المكان الوحيد الذي يحاول الغناء فيه هو سيارته، حيث الريح تصمّ أذنيه، وضجيج المحرك يعني أنه لا يستطيع حتى سماع نفسه. إنه يعرف كلمات كل الأغاني، ويغنيها بصوتٍ عالٍ حين يزيد السرعة. يعود تاريخ "الألبوم" إلى عشرين عاماً مضت؛ حين كان شاباً مغروراً ومفتوناً بقدرته وطموحه. التقى جودي أول مرة في السنة التي حلّت بها نيرفانا مكان مايكل جاكسون في صدارة

اللائحة، والآن كل أغنية يستمع إليها تبدو مثل آلة الزمن التي تعيده إلى الازدهار المدوّي لحبّه.

كان نظره قد وقع عليها أول مرة في شارع ستيت؛ حيث سدّت مركبتاهما المصطدمتان كلا المسربين المتجهين شرقاً، وتوقف السير خلفهما تماماً، والأبواق تصدح، والأشخاص يحتشدون حولهما، والمطر يهطل غزيراً، وشعرها المبلل ملتصق بوجهها، وقميصها التائي المنقوع بالماء يجعلها تبدو شبه عارية من الخصر وحتى الأعلى. لكن رغم أن صدرها كان واضحاً بسبب ابتلال قميصها بالمطر المنهمر إلاّ أن سلوكها أدهشه، وكذلك مدى هدوئها ورباطة جأشها، ورصانتها ووقارها. لم يكن قد التقى امرأة بنصف مستوى جودي من قبل.

وجد كليف في موقع البناء يدخّن عند الواجهة الخارجية؛ بسرواله المغبر وحزام أدواته المتهدّل. كليف رجل قوي، يتكلم ببطء ويترك انطباعاً بأنه يغرس جذوراً في المكان. وهو في مثل سنّ تود، لكن لديه شارباً أشعث شائباً يجعله يبدو أكبر بعشرة أعوام. عندما وصل السبّاك بشاحنته، دخل الثلاثة المكان، وراحوا يتجوّلون عبر الوحدات. كان حديثهم يتركّز على الأنابيب ومصارف المياه وأشياء مماثلة؛ أشياء ضرورية حين تكون تود جيريمي غيلبرت من ت. ج. غ. القابضة وتستثمر كل ما تملكه. كان المكان متداعياً تقريباً حين اشتراه، واضطر إلى إخراج المستأجرين؛ وهذا ما لم يحبه، لكنه بدأ الآن يبدو مثل شيء ما. أخرج العمّال الذين التقوهم في جولتهم أسلاكاً قديمة، ووضعوا عوارض جديدة؛ رغم أن هذا ليس تماماً محور النشاط الذي يحبه تود. ورغم أنه عمل مع كليف باستمرار طوال عقدين من الزمن، إلاّ أنه لا يزال ينبغي له الاهتمام بكل شيء؛

فنفقاته العامة – ما يدفعه كل يوم ليحافظ على عقاره ويُبعد عنه المصرف والبلدية – كافية لإطعام قرية في أفريقيا لمدة عام.

في طريق عودته إلى المدينة اتصل بناتاشا على أمل أن تلتقيه لتناول الغداء، لكنها كانت تأكل شطيرة آنذاك.

"هل تأكلين شطيرة في هذه الأثناء؟"

"أنا أفض الغلاف، وأكاد أقضم لقمة"

"اتركيها وسنذهب إلى فرانسيسكا"

"لا أستطيع، ينبغي أن أدخل الصف"

"هل يمكن أن نلتقي بعد العمل؟"

"سأعمل كجليسة أطفال من الرابعة وحتى السابعة"

"سآتي إليك"

"ليست فكرة سديدة"

"تعرفين أنني مشغول لاحقاً"

"لنتناول الغداء غداً"

"هذا يعني أنني لن أراك اليوم"

"هل تظن أنك ستعيش؟"

"ما نوع الشطيرة التي تأكلينها؟"

"السجق بخبز الجاودار، من ماني، مع خردل إضافي"

"هل تجلسين في مكان ما؟"

"أخبرتك، أنا في طريقي إلى الصف"

"هل أنت في طريقك إلى الصف الآن؟"

"أنا أمشي شمالاً في مورغان، وقد اجتزت المكتبة للتو، وسأتأخر إذا لم تتركني أنهي الاتصال"

"أخبريني ماذا ترتدين

تظاهرت بالانزعاج، لكنه يعرف تماماً أنها تحب هذا. فهي تحب الاهتمام الشديد الذي يبدو واضحاً بصوته المنخفض والمثير. تخيّل حقيبة ظهرها المملوءة، والشريطتين المشدودتين على كتفيها، وأسنانها الرائعة وهي تخترق الخبز الطري الذي يضم طبقة من اللحم. إنها تدرس في سنتها النهائية، وستتخرج في الربيع وتحصل على إجازة جامعية في تاريخ الفن، و لم تفكر في مهنة بعد، فما تود فعله هو الزواج وتكوين أسرة، وقد أخبرته في ما يتعلق بهذا الأمر أنه سيكون أباً رائعاً. شجّعه كلامها؛ فهو يعني أنها لن تتخلّى عنه من أجل رجل أكثر شباباً. لكنه لم يفكر في المستقبل كثيراً؛ باستثناء اعترافه لنفسه أن ما يربطه بناتاشا مختلف، وليس ما قد يدعوه المرء علاقة عابرة. فمثل هذه العلاقة بالنسبة إليه رياضة؛ نموذج استجمام لا يتطفّل على طريقة حياته أو يسبّب له خسارة علاقاته. بأي حال، علاقته معها فوضى، وهوس، وإدمان. وهي تملأه ذعراً، ويقسم أحياناً إنه سيستقيم، لكنه يشعر على الأغلب أنه مثل رجل غارق في الحب مع الطوف.

كانت فكرة إمضائهما عطلة نهاية الأسبوع معاً وليدة أفكارها. وهي التي وجدت النُّزل الريفي على ضفة نهر فوكس بفداديته السبعة عشر المشجّرة، وحوض السباحة المدفأ، والطاهي الفرنسي. وقد حجزت الغرفة وتحدثت عن الأمر معه. يمكنهما العودة إلى السرير بعد الفطور، والاغتسال معاً قبل العشاء. كما يمكنهما أن يسيرا في الغابة، ويقيما علاقة في الهواء الطلق تحت أشعة الشمس. وبخلاف وجبتهما الخفيفة المعتادة التي يأكلانها خلسة، يمكنهما أن يُرضيا شهيتهما في وقت الفراغ؛ وهلم جراً.

سألته حينها: "هل تريد أن تبقى في المنزل مع جودي؟"

تمنّى ألا تُقحم جودي في الأمر، فحياته مع جودي تنتمي إلى مملكة لا علاقة لها بها؛ إلى كونٍ موازٍ حيث تجري الأمور بسلاسة وستبقى كذلك، وحيث ترجع إلى الماضي وستمتد بنحو مريح إلى المستقبل. اقترف مرة خطأ إبلاغ ناتاشا أن جودي في الفراش بمثابة طبق ثريد بارد، ولم يكن هدفه التقليل من شأن جودي، وإنما طمأنة ناتاشا. فهو رجل كريم، ويقبل بسهولة عالماً من العيوب؛ خاصة حين يتعلق الأمر بالنساء، ولديه موهبة في قبول الأشياء كما هي والعمل عليها؛ أشياء عن جودي، وأشياء عن ناتاشا.

أحد الأشياء التي أثنى عليها في جودي هو حقيقة أنها حاصلة على مجموعة درجات علمية. ليس مجرد إجازة جامعية مثل ناتاشا، وإنما شهادة الدكتوراه وعدّة شهادات ماجستير. وهو لا يمانع كونها ذكية، ولكنّ ما يزعجه هو الدعابات التي تنهال عليه من الرجال الذين يحبون تذكيره أن جودي أفضل تعليماً منه. لم يصدّق قطّ أن هناك أي قيمة متأصّلة في حيازة مجموعة من الدرجات العلمية. فالحصول على التعليم يعني اكتساب قوة التهديد بأنك إذا لم تذهب إلى المدرسة فسينتهي بك المطاف وأنت تعمل في مكدونالدز. المال وليس التعليم هو الضالّة المنشودة في أمريكا.

توقف لتناول الغداء في مقهى بريطاني الطراز، وقاوم رغبته في طلب الشراب. وعندما عاد إلى المكتب، سلّمته ستيفاني عروض الأسعار التي طلبها، وقائمة بالاتصالات التي ينبغي له أن يجريها. تمدّد على الأريكة لإجراء المكالمات، وغفا قليلاً بعد ذلك. وعندما استيقظ كانت الساعة قد قاربت الرابعة والنصف فاتجه إلى صالة الألعاب الرياضية.

التمارين أمر جديد بالنسبة إليه. وقد بدأ بممارستها كطريقة لمكافحة اكتئابه؛ وذلك حين أخبره الطبيب أن ممارسة التمارين الرياضية ستنشّطه وتُولّد لديه الأندورفين؛ وهو مسكّن ألم ينتجه الجسم. لم يشعر بالأندورفين في البداية، وكان يجد صعوبة في اجتياز المقهى في طريقه إلى صالة الألعاب الرياضية، لكن ذلك تغير حين التقى ناتاشا. وها هو الآن يعمل مع مدرّب، ويستخدم الأثقال بدلاً من الآلات، وقد بدأ بوضع شرائط الرسغين، وصار يرتدي قمصاناً من دون ردنين.

ضغط على نفسه في التمارين لأكثر من ساعة، فشعر أنه ممتلئ حيوية. وبعد أن اغتسل وجفف جسده، لفّ منشفة حول خصره واتصل بناتاشا؛ رغم أن الغرفة مكتظّة وتجعل أي حديث خاص ضرباً من المحال. في واقع الأمر، حتى أفكاره ينبغي أن تُكبح؛ لأنه لا يريد أن تزداد إثارته في غرفة مملوءة بالرجال.

تركها تقول مرحباً ثلاث مرات قبل أن يتحدّث.

سألته: "ما خطبك؟ هل أنت منحرف؟"

فأجابها: "هذا بالضبط ما أنا عليه"

"أنت تعرف أنني أرى اسمك ورقمك على شاشة هاتفي

قرّر أن يستخدم هاتفاً عمومياً في المرة القادمة.

عندما دخل ردهة فندق دريك بعد تسليمه البورش إلى أحد العاملين في خدمة ركن السيارات، وجد دين كوفاكس هناك جالساً إلى المقصف. كان النادي الكلاسيكي بجلده الخمري، وخشبه اللامع، وأناقة العالم القديم والمريح الذي يقدّمه ملجأً مغرياً بعيداً عن البيت. وهو مزدحم الآن بعد فترة العمل، فيما ضجيج الأصوات

يرتفع وينخفض بموجات إيقاعية. شقّ طريقه عبر الصالة، ونقر بإبهامه على ظهر دين، وجلس على المقعد الشاغر إلى يساره الذي يبدو مثل كرسي بذراعين.

قال دين وهو يتجرّع ما بقي في كأسه: "مرحباً يا صاحبي، لقد بدأت من دونك"

فردّ عليه تود: "أيها الوغد العجوز، لقد تقدّمت عليّ"

فقال دين: "أنا دائماً أتقدّم عليك يا صاحبي ولوّح للنادل طالباً كأسين من الشراب.

كان دين قد احتسى الكثير من الشراب. وهو يشبه بوجهه الممتلئ واللحم المتدلي تحت ذقنه طفلاً ريّاناً. كان يرتدي بذلة صيفية زرقاء، مع قميص لا يحتاج إلى كيّ يظهر منه بطنه؛ رغم أنه لا يكشف شيئاً باستثناء رداء داخلي أبيض نظيف، فيما تتدلّى ربطة عنقه من جيب سترته. كان في السنوات الاثنتي عشرة الماضية يكسب قوته من عمله كمدير مبيعات في شركة بلاستيك؛ وهي وظيفة يحبها كفاية.

وضع النادل كأسين أمامهما، فتناول تود جرعة أولى طويلة، ومسح آثار الشراب عن شفتيه بظهر يده. كان مرهقاً من تمارينه، ويريد فقط أن يجلس مسترخياً ويتأمل ما يحيط به. تود بائع بالفطرة، وكل ما ينبغي له فعله لجعل صديقه يتكلم هو أن يسأله عن العائدات. فقال: "هناك انكماش منذ آخر مرة رأيتك فيها" فيُرغم دين على إبداء رأيه في أسهم السوق ووجود المنافسين، مما يمكّن توم من الاسترخاء والإصغاء بأذن واحدة، فهو سيسمع عن المنتجات والتطوّرات - يتمتع كل شيء حتى البلاستيك بجاذبية

خاصة – لكن دين متحمّس للأهداف، وعروض الأسعار، والأرباح، والتوقّعات.

يرى تود دين مرتين، وربما ثلاث مرات في السنة. ودين هو من يتصل به دائماً لترتيب اللقاء، لكن تود يتولى المبادرة إن لم يفعل دين هذا. فرغم أنهما يعيشان في عالمين مختلفين، إلاّ أن الماضي يكوّن عروة وثيقة تجمعهما. فقد نشآ في أشبورن على الطرف الجنوبي الغربي، وذهبا إلى ثانوية بوغان، ولعبا الهوكي؛ حتى إن كلاًّ منهما قام بعلاقته الحميمة الأولى في الوقت نفسه... امنح دين كأساً من الشراب أو اثنتين وسيذكر هذا الأمر في حديثه بالتأكيد. ويُعتبر هذا الأمر ذا معنى بالنسبة إلى دين؛ أي تشاركه وتود تلك التجربة. وذلك ذو معنى بالنسبة إلى تود أيضاً، لكنه لا يريد أن يعرف كل من في المشرب بما جرى. لذا، قبل أن يتخطّى الأمر الحد، سأل تود عن قائمة الطعام وجعل دين يركّز على طلب العشاء.

بعد تناولهما شطائر لحم البقر، انتقلا من احتساء الشراب إلى تناول الممنوعات؛ حيث بدأ دين بإحياء ذكرى زوجته التي توفيت قبل عشرة أعوام.

قال دين: "لا تخبرني أنها لم تكن أفضل امرأة قد يرغب رجل بها؛ كانت امرأة تظهر مرة واحدة في الحياة" وشدّ قامته للتوكيد على ما يقصده. وكرّر وهو يدق بمفاصله على الطاولة: "مرة واحدة؛ هذا إن كنت محظوظاً"

وافقه تود: "كانت امرأة طيبة"

فقال دين: "كانت تلك المرأة طيبة جداً. لقد تُيّمت حباً بتلك المرأة، وأنت تعرف هذا"

وانتظر تأكيد تود على كلامه، وهذا ما فعله بسعادة. في ذهن تود، لا يوجد تناقض بين عواطف دين الحالية وحقيقة أنه أقام عدّة علاقات غرامية حين كانت زوجته لا تزال حية.

"كانت تعرف كم تحبها، والجميع يعرفون"

فقال دين: "هذا صحيح. كنت متيّماً بتلك المرأة، ولا أزال كذلك. أنت تعرف أن هذا حقيقي؛ فلو لم يكن كذلك لكنت قد تزوجت مجدداً؛ وهذا ما لم أفعله"

في الأعوام الأخيرة، حظي دين بعدّة حبيبات، ولم تكن أيٌّ منهن جيدة مثل زوجته المثالية المتوفاة، ولم تحظَ أيٌّ منهن بالأمل في أن تكون بديلتها. كان ذلك ملائماً لدين الذي يحب لعبة الملاحقة والفوز، والشعور بالقوة التي تنتابه نتيجة ظفره بامرأة حين يحظى باهتمامها.

عندما تناول دين ممنوعاته انتقل من العواطف الجيّاشة إلى المشاكسة. لقد خفّ الحشد، وانخفضت الجلبة وتحوّلت إلى همهمة، وصار دين مهتماً بالتعارف. وبعد أن تململ واستدار في مقعده، لاحظ وجود شابة في مثل سنّ ابنته تقريباً، بشعر أسود قصير وشفتين قرمزيتين، فأطلق مناجاة بصوت عال؛ موجّهاً كلامه ظاهرياً فقط إلى تود، عمّا يودّ أن يفعله لها وما يودّ أن تفعله له. غير أن الفتاة الجالسة بعيداً قليلاً كانت مشغولة بالحديث، فلم تدرك أن دين يقصدها. لكن أشخاصاً آخرين - معظمهم ضمن مدى السمع - استداروا لينظروا إليه.

في هذه الأثناء، كان تود قد انزلق إلى عالمه الخاص، وقد تضخم إحساسه بذاته الجوهرية اللطيفة وتوسّع؛ بتميّزه، وسخائه. ولأنه

شهم فهو لا يطلق أحكاماً أو يستثني أحداً، سواء أكان الأمر يتعلق بدين أو الخصوم الذين ينشغل دين في إثارة غضبهم. يُحتوى كل شخص موجود في فقاعة إحسان تود، وهذه حال تود حين يشرب. فعندما يحتسي الشراب تكون لديه حياة صامتة.

بعد فقدانه الاهتمام بالفتاة حمراء الشفتين، تحوّل اهتمام دين الآن إلى المرأة الجالسة إلى يمينه. كانت بدينة وأقرب إلى عمره. وفي ظلمة عقله الخاضع لتأثير الشراب، ازدادت بالنسبة إليه فرص اهتمامها به. وفشلت حقيقة أنها مشغولة بالحديث إلى مرافقها الجالس في الجانب الآخر في الظهور لدين الذي وضع فمه بالقرب من صدرها. وحين لاحظت ما يفعله دين دفعت مقعدها بعيداً عنه، ورمقته بنظرة اشمئزاز، وطلبت منه أن يغرب عن وجهها. غير أن دين استمرّ في إزعاجها، فما كان منها إلا أن تبادلت مكانها مع رفيقها؛ وهو رجل ماكر يضع نظارة أنيقة. لم يقل هذا الرجل – الذي فصل الآن بين دين والمرأة التي يسعى إليها – شيئاً لدين الذي اعترض على ذلك ووكز أضلاع الرجل قائلاً: "مهلاً يا صاحبي، كنت فقط أمارس حقوقي بوصفي رجلاً"

فأجابه الرجل: "حقاً، حسناً، اذهب ومارسها في مكان آخر

استدار دين نحو تود وقال له: "كنت فقط أمارس حقوقي بوصفي رجلاً. هذا عالم حر، أليس كذلك؟"

لقد شهد تود مشاجرات دين منذ المدرسة الثانوية. وإذا كان دين بمزاج عراك حقاً، فسيمسك تود يده ويُخرجه من هناك. لكن حالة دين كانت تبدو مسالمة بالنسبة إلى تود. لذا، كان تعليقه الوحيد: "حاول أن تبتعد عن المشاكل

فرد دين على ذلك بصوت عالٍ: "إنها تافهة بأي حال، ويمكنني أن أحظى بأفضل منها"

فضحك تود وقال: "هذا هو المزاج المنشود يـا صاحبـي

وضحك دين أيضاً بصوت خافت، سعيداً بنفسه.

كان تود يعرف أن دين يتصرف على هذا النحو فقـط حـين يشرب. فبعض الناس يتحمّلون تأثير الشراب، ولكن دين ليس واحداً منهم. فهو حسّاس جداً؛ إنه من نوع الرجال الذين يبكون بسـهولة مثل الأطفال. عندما أنهى دين دراسته الثانوية التحق بمشاة البحريـة، لكنه لم يكن قاسياً بما فيه الكفاية للاستمرار فيها، وغـادر قبـل أن يحظى بوظيفة، وسلك دربه في مهنة المبيعات. إجمالاً، يمكن القول إن دين هادئ. ورغم أنه قد يفقد أعصابه، إلا أن إثارة غضبه تتطلّـب الكثير. لذا، يتعلق الأمر حقاً بطريقة تلقيه النبأ، وتود يجد صعوبة في توقع هذا، ولا يستطيع إلا أن يأمل في أن تنقله ناتاشا إليه بلطف.

مع اقتراب منتصف الليل وعودة تود إلى سيارته، اتصل بأحـد أرقامه السرية. وبعد حديث قصير، سلك طريقه إلى فورسيزنز؛ على بعد عدّة أبنية فقط. كان على موعد مع واحدة من عـدّة فتيـات يبقيهن في متناول اليد. وجميعهن من طبقة راقية بما فيه الكفاية ليفـي بالغرض فندق ذو خمس نجوم. وكلهن كن يأتين فوراً؛ خاصة حـين يطلبهن رجل بمثل كرمه. في ليالٍ مثل هذه؛ عندما لا يـرى ناتاشـا ويشعر بإثارة كبيرة، ويكون أكثر نشاطاً من أن يذهب إلى المنـزل، فهو يحب الاستمتاع بترف السلع والخدمات التي تقدّمها المدينة.

3

هي

بحلول صباح الجمعة، كانت جودي لا تزال من دون خطط لعطلة نهاية الأسبوع. وهذا ليس من عادتها، فهي تفكر في ما ستفعله مسبقاً. وفي أثناء الأسبوع، أفسحت ثقتها المعتادة مجالاً للشك والتردّد والأمل الساذج في أن يغير تود رأيه ويلغي رحلته. لكن كل ذلك انتهى الآن، فقد حزم حقيبته في الليلة الماضية، وأخذها معه إلى العمل هذا الصباح؛ مخططاً لمغادرة المدينة من المكتب مباشرة.

حملت هاتفها ووقفت قرب النافذة تتأمل المشهد؛ فالنهار مشرق بوهج ساطع ترسله شمس برّاقة وامضة فوق مياه بيضاء. اخترقت إبر الضوء عينيها وجلد وجهها وعنقها الحسّاس، وشعرت بأنها عارية ومكشوفة؛ كما لو أنها خفّاش يترنّح تحت ضوء النهار. لكنها كانت لا تزال واقفة هناك، تبحث في قائمة صديقاتها.

اتصلت بكورين أولاً، ثم جين، ثم ألين، وتركت لكل منهن الرسالة عينها: "ماذا ستفعلين في عطلة نهاية هذا الأسبوع؟ أعلميني إذا لم تكوني مرتبطة على العشاء. الليلة تفي بالغرض، أو غداً. وسيكون الغداء جيداً أيضاً. أحب أن أراك، اتصلي بي ثم استدارت مبتعدة عن النافذة، ومشت في أرجاء الغرفة وهي تتفحص

نضد المائدة بحثاً عن الغبار، وتمرّر إصبعها فوق السطح الخشبي اللامع، ثم اتصلت بشيرلي وتركت الرسالة نفسها مجدداً. كانت شيرلي مريضة، والتقتها جودي أثناء تطبيق عملي، وأحبتها لأنها ذكية ومسلّية، وشاعرة فازت ببعض الجوائز عن عملها.

للتخطيط الدقيق ميزاته. إذ تمضي الحياة على أفضل ما يرام بطريقة مهيبة؛ مع مناسبات مجدولة وارتباطات محدّدة مسبقاً لأسابيع، إن لم تكن لشهور. أما تدبير موعد في اللحظة الأخيرة فشيء نادراً ما تُضطر إلى فعله، وتجده مُرهِقاً، ويبدو لها مثل توسّل. لماذا لا تختار بقعة في الشارع وتقوم بالتوسل هناك؟ يمكنها أن تصنع بطاقات وتوزّعها: *امرأة وحيدة تريد موعد عشاء، امرأة يائسة لـذا ليست نّيقة*. لا ينتابها أمل كبير في ألا تكون كورين أو جين أو ألين أو شيرلي مرتبطة وتراها؛ فكورين وألين لديهما أطفال، وجين تسافر كثيراً، وشيرلي... حسناً، لا تستمع شيرلي إلى رسائلها دائماً. لكن هناك حداً لعدد المكالمات التي يمكنها أن تُجريها.

لم تقرّر حتى وقت متأخر من اليوم – حين لم يتصل بها أحد – أن تمضي قدماً وتجرّب مع أليسون؛ رغم انعدام أي فرصة تقريباً لترد على هاتفها أو حتى لترد على رسالتها قبل انقضاء أسبوع. في الواقع، جودي واثقة جداً بأن الاتصال بأليسون قضية خاسرة. لذا عندما سمعت صوتها عبر الهاتف ظنت لثانية أنها طلبت رقماً خطأً.

قالت أليسون: "لقد تمكنت من الإمساك بي؛ إذ ينبغي أن أكون في العمل الآن، لكنني اليوم في أحد تلك الأيام. لن تصدّقي سلسلة الكوارث التي مررت بها، لذا سأعفيك من التفاصيل. عندما اتصلت بـ ج. ب. لأقول إنني سأتأخر ظننت أن كارثة قد حلّت؛

وهذا أمر سخيف لأننا لا ننشغل إلا بعد الخامسة. الرجال مثل الأطفال، وأظن أن إبرازهم شأنهم يجعلهم يشعرون بأهميّتهم. لذا، من الجيد أن المرأة تتمتع بالسلطة الحقيقية، أليس كذلك؟ بأي حال، أعمل في مناوبتين في عطلة نهاية هذا الأسبوع، لكنني غير مرتبطة يوم الاثنين، فما رأيك بتناول العشاء؟"

لا يحل تناول العشاء يوم الاثنين مع أليسون مشكلة جودي الحالية، لكنها كانت سعيدة وهي تسجّل الموعد على دفتر يومياتها. أليسون إحدى صديقاتها، وهي غريبة الأطوار ودخيلة مثل شيرلي، وليست شخصاً تعرفه من الجامعة أو من دائرتها المهنية. التقت أليسون في صف طهي، حيث تعلمت تنظيف الحبّار والقريدس. وأليسون لا تطبخ، ولكنها مرّت بمرحلة ظنّت فيها أنه ينبغي لها أن تبذل جهداً في ذلك. لا تعرف جودي تماماً ما يتطلّبه عمل أليسون، لكن ينبغي أن تفترض - رغم أن أليسون نادلة وليست إحدى أولئك الفتيات - أن الأمر يتضمن تعاملات خاصة مع الزبائن. ربما تحصل أليسون على إكراميات جيدة أثناء خدمتها الطاولات. لكن، لا بد أنها تفعل ما هو أكثر من ذلك. ويمكن معرفة هذا من ذوقها بالمطاعم التي تقصدها، والتي تجدها حتى جودي غالية.

في اليوم التالي، يوم الأحد، لم يكن لديها مرضى. لذا، بعد ليلة أرق طويلة غطّت في النوم عند الفجر، وبقيت في السرير حتى الضحى. وها هي الآن تتكاسل في تناول الفطور وقراءة الصحيفة، ولا يبدو منطقياً لها أن تشعر بمثل هذا الفراغ. يكون غياب تود أثناء النهار عادياً؛ حتى السبت، حين يقضي الصباح عادة في موقع البناء الذي يعمل فيه، ثم يذهب إلى الحلاق ويأخذ سيارته إلى المغسل. أما

يوم الأحد فالقضية مختلفة؛ ففي هذا اليوم يتشاركان وجبة الطعام بروّية، ويأخذان الكلب في نزهة طويلة بجانب الماء. إنه شيء تتطلّع إليه طوال الأسبوع، لكن هذا لن يحدث غداً.

متمنية أن تتصل بها إحدى صديقاتها، شغّلت التلفاز وراحت تقلّب القنوات حتى تصل إلى واحدة تعيد عرض *سينفيلد*. ورغم أنه سبق لها أن شاهدت الحلقة من قبل إلا أنها نسيتها كلها تقريباً. ولاحقاً، سينطبق الأمر نفسه على الأفلام أيضاً. لقد انقضى عام أو اثنان، ويبدو الأمر كما لو أنها فقدت ذاكرتها تقريباً، وجعلها هذا تفكر في أنها إذا جعلت حياتها أكثر حيوية – فحياتها هي نفسها تماماً، والأحداث فيها تجري بالتتابع ذاته – فسيدهشها معظم ما يحدث. ومع اقتراب انتهاء الحلقة ومتابعتها المشهد الأخير – وكأنها تراه لأول مرة – شعرت بالخسارة والأسى.

لجأت إلى الاغتسال؛ وهذا أحد الطقوس التي تتضمن غمرها نفسها بماء حار حتى عنقها. فسحب البخار، والحرارة التي تحيط بها مثل شرنقة، والإحساس بالغمر عديم الوزن والثقيل في آن واحد (الجسد معلّق، والماء يضغط عليه) منشّطات قوية يمكن أن تداوي مختلف أنواع الأمراض. لكن، رغم أنها نقعت جسدها إلى أن يصبح الجلد على مفاصل أصابعها مجعداً وأبيض، خرجت من الماء وهي تشعر بأنها نكدة ووحيدة ومتعبة. نامت على الأريكة، واستيقظت بعد ساعة مرتعشة بسبب رداء الاستحمام الرطب الذي كانت لا تزال ترتديه.

شاردة الذهن، تحرّك حلم ضائع في ذهنها. ارتدت ثيابها، ووضعت الرسن حول عنق الكلب، واصطحبته في نزهة إلى البحيرة،

وانضمت إلى ازدحام الأحد على شاطئ الواجهة المائية. كان الماء تحت شمس الظهيرة يتلألأ بألوان قوس القزح. أما الناس في الخارج فقد جذبهم الدفء، والجري، وركوب الدراجات الهوائية، أو التنزه فقط. كان معظمهم يتجولون مع صديق أو في مجموعات أسرية، وأذرعهم وأرجلهم سمراء، وأصواتهم تصدح في الهواء الطلق. سار فرويد إلى جانبها متمهلاً، وهو يهزُّ ذيله للأطفال الذين كانوا يطلبون الإذن لملاطفته. أخذته عبر العشب إلى شريط من الشاطئ الرملي، وراحت ترمي عوداً وتراقبه وهو يسبح خلفه. على الأقل، الكلب يستمتع. فهو مخلوق متكيّف؛ إذ ينسى بسهولة ويرضى بيسر. فهو يعرف أن تود لم يكن في المنزل في الليلة الماضية. لكنه عندما يسبح في البحيرة وخطمه إلى أعلى وأذناه مرفوعتان، يكون تود أبعد مخلوق عن ذهنه.

عندما عادت إلى المنزل مجدداً، ابتلعت حبة أدفيل، وتوثّقت من رسائلها فوجدت أن ألين قد اتصلت بها لتقترح عليها تناول الغداء معها في أحد أيام الأسبوع التالي. بدّلت ثيابها، وارتدت سروالاً فضفاضاً، ثم سحبت الستائر في غرفة النوم، وتمدّدت على السرير غير المرتّب، وأمسكت روايتها؛ قصة ثلاثة أجيال من نساء تتضمن محنهن أزواجاً قساة، وأبناء عاقّين، وحرماناً اجتماعياً وثقافياً في جماعة ريفية صغيرة. صرفت قصة حياتهن المروعة انتباهها لبعض الوقت. لكن حين أنهت قراءة الرواية وأغلقت الكتاب، كانت العودة إلى الواقع مؤلمة بالنسبة إليها. كانت السماء تبدو من نافذتها رمادية ومستوية، وكانت الغرفة غارقة بالعتمة، والحرارة قد انخفضت. من الواضح أن أياً من صديقاتها لن تتصل بها الآن؛ فخطط العشاء بالنسبة

إليهن ثابتة، وأمسياهن تجري كما ينبغي. خلعت ثيابها المجعدة، وارتدت جينزاً وقميصاً من نسيج ناعم؛ مذعنة لقضاء الليلة في منزلها.

وجدت في الثلاجة نصف فطيرة تفاح، فبدأت تأكلها من طبقها؛ بدءاً من التفاح الذي راحت تغرفه بالملعقة، ووصولاً إلى القشرة التي التقطتها بأصابعها. تود لن يتصل بها أيضاً، ولن يأتي ليقول لها إنه يشتاق إليها، أو ليطمئن على حالها؛ وهي تعرف هذا بطريقة ما. ومع المعرفة أتى شعور بشيء لا يمكن إيقافه؛ مثل عصافير تطير قبل اندلاع العاصفة. قبل عشرين عاماً، ثار حبهما بلهيب شغف، وانطلق مثل صاروخ إلى مداره. لكن تباطؤ زخمه أخيراً حقيقة جائرة ليس بمقدورها مواجهتها. يبدو لها غالباً أن الأعوام التي مضت منذ ذلك الوقت وحتى الآن قد انطوت على نفسها، وانهارت معاً مثل ثنيات أكورديون؛ مما قرّب الذكريات البعيدة.

ذهبا في موعدهما الثاني لمشاهدة *لعبة البكاء*، ووقفا بعد ذلك خارج دار العرض وهما يتحدثان عن الفيلم، ويحرّكان أقدامهما، ويمزحان ويضحكان. كان الموعد الثاني حقل طاقة بقوانين وشروط خاصة به. وبحلول الموعد الثالث، أصبحت أشياء معينة مفهومة، في حين أن الموعد الأول كان تجربة خاماً غير مقنعة، والموعد الثاني – بين الاثنين – حقل ألغام تضمن الكثير من تلمّس الطريق وتحسّسها؛ أي كان اختباراً بآمال عالية وتشكك مفرط. كان الموعد الثاني إقراراً صريحاً ومتبادلاً بالاهتمام من دون تجاوز حقيقة أن الأمر قد يُنسف في وجهك في أي لحظة، وأن كل ما يتعلق بكما مؤقت ومحض تخمين، وهو بحرٌ من الغموض ينبغي أن تسبح فيه أو تغرق.

لم يكن الجو دافئاً تلك الليلة، والربيع لم يحلّ باكراً. ورغم هذا، كان ذلك الوقت من العام هو الوقت الذي يتفاءل فيه الناس بشأن الطقس، ويفشلون في توقع ما ينبغي أن يرتدوه. لم تكن جودي وتود استثناءً؛ هي بسترة صوفية، وهو بقميص فضفاض. لكن، رغم هذا بدآ يمشيان، وفكرة عابرة عن شيء ما يأكلانه تراودهما، وإنما من دون وجود وجهة معينة يقصدانها. وسرعان ما أُصيبا بكسل حركي كبير؛ لم يسعهما التخلص منه. مشيا جنوباً في ميتشيغان، وتجولا في المتنزه، ثم خرجا منه، واستدارا عائدين، ولم يمسكا يدَي بعضهما أو يشبكا ذراعيهما، وإنما ركّزا بجد على المهمة المباشرة؛ مهمة الموعد الثاني، مع سلسلة متواصلة من البوح الشخصي والاعتراف الصريح.

قال حين عبرا جسر جادة ميتشيغان: "كنت بديناً في طفولتي"

قالت وهي لا تستطيع تخيّل ذلك: "لكن، ليس بديناً حقاً"

"كان لقبي في المدرسة توبو

"ياه! كم دام ذلك؟ ليس لفترة طويلة بالتأكيد"

"أوه، حتى بلغت الثانية عشرة أو الثالثة عشرة؛ حين بدأت أسرق سيارات"

"هل سرقت سيارات!؟"

"ربما لم يكن ينبغي لي أن أذكر هذا"

"لكنك لم *تسرقها* حقاً"

"ماذا تعنين؟"

"لقد أعدتها بعد الانتهاء منها"

"بالكاد"

"لكنك بالتأكيد لم تفكّكها وتبيع القطع أو تفعل شيئاً مماثلاً"

"لا، لا، لا شيء مماثل. كنت أشغّل المسجل وأقودها في الأرجاء فقط؛ أُقلُّ صديقاً أو إحدى الفتيات. تظاهرت لبعض الوقت أنني وغد ثري أمتلكها كلها"

"هل أُلقي القبض عليك يوماً؟"

"لم أُعتقل يوماً؛ أنا محظوظ كما أظن

لم تكن قد رأته بتلك الطريقة إطلاقاً، وهناك شيء بشأنه؛ شيء - حسناً، كانت كلمة وقور هي التي خطرت ببالها - يتحدّى هذه الصورة غير المتوقعة عن شبابه. خضعت نظرتها إليه للتعديل.

قالت: "عندما كنت أكبر، مرَّ والداي بأوقات لم يتكلما فيها مع بعضهما بعضاً. وفي إحدى المرات، دام ذلك عاماً تقريباً"

"كيف يكون هذا ممكناً؟"

"كانا يتكلمان، ولكن ليس مع بعضهما بعضاً. وإذا لم يكن أحد موجوداً، أو يتعلق الأمر بنا نحن الأبناء، فعندها يحدث الأمر عاجلاً أو آجلاً، مثل: جودي، *هل يمكنك أن تخبري أباك أن شعره يحتاج إلى قص*، وسيكون موجوداً في الغرفة طبعاً"

"إذاً، هل كنت تخبرينه؟"

"بغباء في معظم الأوقات. نعم، كنت أكرّر الرسائل. أظن أنني كنت يافعة لأدرك أنه بمقدوري البقاء خارج الأمر

"لا بد أنهما كرها بعضهما حقاً"

"أحياناً بدا الأمر كذلك، لكن في أوقات أخرى كان كل شيء رائعاً"

قال: "على الأقل، كان والداي ثابتين على موقفيهما. فهو يتنمّر وهي تخنع، وهذه هي الحال دائماً"

"لم أكن لأفكر في هذا" شعرت بالصدمة، وبحثت في حقيبتها عن بلسم الشفاه في حين تغيرت صورتها عنه مجدداً، ثم سألته: "هل كان يتنمّر عليك أيضاً؟"

"ليس حقاً، فقد تجاهلني في معظم الوقت"

"ماذا كان والدك يعمل؟"

"عمل في المتنزهات، لكن موسمياً. وفي الشتاء، كان يبقى في المنزل على الأغلب، ملازماً القبو، وواضعاً كرسيه هناك في مخبئه. كان من الممكن سماع تمتماته، ومعرفة أنه بحلول وقت الغداء سيكون ثملاً جداً، وينبغي لنا أن نتسلل خلسة متضرعين لكي يكون نائماً ويبقى في مكانه"

قالت وهي لا تزال تعدّل تصوّرها: "يبدو هذا قاسياً"

"جرى ذلك منذ وقت طويل، وهو متوفى الآن، كلاهما" وتوقف ليعقد رباط حذائه، منحنياً بتيبّس في البرد.

قالت: "أظن أن التظاهر كان أقسى ما حصل في أسرتي. أعني، كانت الأمور رائعة في أوقات كثيرة. لكن، حتى عندما لم تكن كذلك، كان والدي يخرج إلى العمل، فيما تحضّر هي العشاء، ونجلس جميعاً لتناول وجبة أسرية، وسيتكلمان معنا نحن الأبناء عما قد فعلناه في المدرسة. وكل ليلة سيذهبان إلى السرير معاً. لم يكن أي شيء يُقال، وكنا نتظاهر فقط أن الأمر لا يحدث"

"ماذا كانت مشكلتهما بالتحديد؟"

"أوه، كما تعرف، المعتاد. لم يكن جيداً في الزواج بامرأة واحدة"

"الزواج بامرأة واحدة لا ينفع الرجال، أو الرجال لا ينفعون في الزواج بواحدة. أياً يكن التعبير، كلا الأمرين صحيحان"

"هل تظن هذا؟"
"أعرف هذا"
"هل عانى والداك من المشكلة نفسها؟"
"كان أبـــي يحب شيئاً واحداً هو الشراب"
"إذاً، لماذا تقول ذلك عن الزواج بامرأة واحدة"
"كل الرجال يخونون؛ عاجلاً أم آجلاً، بطريقـــة أو بـــأخرى. خيانة والدي كانت مع الشراب"
تذكّرت هذا الحديث لاحقاً، وظنت أنه كان ينبغي له أن يلفت انتباهها، ويجعلها تتوقف وتفكر. لكن أجراس الإنذار التي كان ينبغي أن تُقرع في رأسها بقيت صامتة على نحو غريب.
عندما اتجها شمالاً إلى لاسيل، وتجاوزا مجلس التجارة، والمصـــارف والمتاجر ومقر البلدية، انتابها إحساس غامر بأنها تمشي عبر نفق؛ وهـــذا المنظور الأحادي كوّنته أبراج المكاتب التي ارتفعت مثـــل منحـــدرات شاهقة على جانبيهما، ورقعة السماء في النهاية مع قوة جذبها المغناطيسية إلى الأمام. تكلم عن موت أبيه، وكيف كرّست أمه نفســـها لرعايتـــه؛ فبعد أن كان قوياً في عرين قبوه أصبح ضعيفاً على الأريكة، ولأنه كان يحتضر بأي حال تركته يحتسي الشراب كما يشاء.
قال تود: "كان أصفر شاحباً، وتفوح منـــه رائحـــة الشـــراب والبول، ويداه ترتعشان ولا يستطيع التحكّم بمثانته. وفي اليوم الـــذي حملوه فيه إلى خارج المنزل، اضطررت إلى وضع الأريكة في القمامة"
قالت: "لابد أن أمك كانت تقية"
"كان ينبغي لها أن تتركه قبل أعوام"
"ولماذا لم تفعل؟"

"ربما بسبب نوع من الإخلاص الضال، من يعرف؟ لا يمكن التطفّل على زواج شخص آخر

"أفهم هذا. مهما بدت الأمور بالنسبة إلى أشخاص آخرين، فقد تكون عروة الزواج قوية"

قال: "أفترض أن والدك كان طبيباً أو أستاذاً أو شخصاً مهماً"

"ليس تماماً. إنه متقاعد الآن، لكنه كان صيدلانياً. كنا نملك صيدلية عند زاوية المتنزه، واعتدت العمل هناك بعد المدرسة، وهذا ما فعلته الأسرة كلها. حسناً، أنا وأشقائي، ولكن ليس أمي

" لِمَ لا؟"

"أظن أنه كانت لديها أعمال كافية تنجزها في المنزل. لا أعرف، ربما يتعلق الأمر بخيبات أملها في الحياة. تدرّبت أمي على كونها مغنية، لكنها لم تخرج عن نطاق جوقة دار العبادة مطلقاً. كان حلمها أن تغني في فرقة موسيقية في برودواي، وعرفت كل الأناشيد واعتادت أن تغنيها في المنزل. أمي ساذجة قليلاً، ويمكنني القول إنها حالمة قليلاً"

"ألا يُفترض بالبنات أن يسرن على خطى أمهاتهن؟"

"هذا ما يُقال. لكنني أظن أنني أكثر شبهاً بأبي

"إذاً، أيٌّ من والديك سائق سيئ؟"

طوّرت لاحقاً نظرية عن سبب بقائهما في البرد لمدة طويلة، لكنها لم تعد تتذكّرها الآن؛ باستثناء أن فيها شيئاً عن التحمّل وتوثيق عروة المعرفة بينهما. وهي تعرف فعلاً أنه بحلول وقت عثورهما على مكان يأكلان فيه ويدفئان أيديهما ممسكين بفنجانَي القهوة أثناء انتظارهما الطعام، انتابها شعور بالاسترخاء؛ إحساسٌ بأن العوائق قد أُزيلت. وفي منتصف تلك الليلة، كانا قد عادا إلى قصر بوكتاون وأشعلا شموعاً ومدّا كيس النوم.

4

هو

أوصل ناتاشا إلى باب منزلها وتابع القيادة نحو المنزل. كانت الحرارة مرتفعة، ومن دون أي نسيم؛ إنها عودة مؤقتة إلى الصيف. كانت البورش مملوءة بالنفايات - مناديل مجعدة، وأغلفة ورقية متناثرة، وأكواب كرتونية فارغة؛ الدليل على رحلة العودة - وقد جعلته قلّة النوم مرهقاً، لكن رائحتها كانت عالقة بثيابه وجلده؛ رائحة عطرها وغسولها وجل شعرها. لا تزال أجزاء منه متورمة، ويخشى مسبقاً الساعات التي ستنقضي قبل أن يراها مجدداً؛ فقضاء وقت متواصل معها غيّر كيمياء دماغه، والعصبونات تعمل على نحو مؤلم في غيابها.

بحرص، راح يفكّر في المحنة الآتية؛ تمضية الأمسية في المنزل مع جودي. أولاً، سيكون هناك العشاء والحديث الملائم والشراب المعتدل، تتبعه طقوس وقت النوم؛ بإطفاء المصابيح، والتدثر بالأغطية بعد ارتداء ملابس كاملة من ثياب النوم المغسولة حديثاً. متى أصبحت حياته المنزلية مزعجة؟ إنه لا يتذكّر نقطة التحول؛ اللحظة التي فقد فيها الإحساس بطعم الراحة التي تقدمها له جودي ببراعة.

لكنه عندما وصل إلى المنزل تغير مزاجه؛ فقد تلقى ترحيباً بمرح صاخب وعاطفة جيّاشة؛ ما جعله ينفجر ضاحكاً. كيف استطاع أن

ينسى الكلب؟ كانت الغرف باردة، ويفوح منها شذا ورود عطرة موزعة بوفرة في زهريات مبعثرة. وجد في المطبخ قارورة شراب مفتوحة وباردة الملمس، وبجانبها طبق مليء ببسكويت هش يعلوه محار مدخّن، وكان تأثير هذه المغريات مفاجئاً.

لم تظهر جودي للعيان فوراً، لكن باب الشرفة كان مفتوحاً قليلاً. فخلع ثيابه، ودخل الحمام، وفتح الصنابير؛ مما جعل الماء يضرب جلده، وانتابه إحساس رائع بالخدر. غسل الروائح الكثيرة العالقة بجسده بعد انتهاء نهاية الأسبوع. وبعد أن جفف جسده وارتدى سروالاً وقميصاً نظيفين، أكل من المحار وسكب لنفسه كأساً من الشراب.

على الشرفة، كانت جودي مستلقية على الكرسي الطويل شبه عارية، وسروال ملابس السباحة الذي كان قرمزي اللون يلتصق بوركيها الناتئتين مثل جلدٍ ثانٍ، ويبرز جمال ساقيها. ساقاها المتباعدتان والممدودتان جذبتا نظره؛ فتأملهما وصولاً إلى الخط الفاصل لقفصها الصدري، وصدرها الصغير. كان يعرف أنها لا تأخذ حماماً شمسياً إلا نادراً؛ لأنها لا تحب أن تكون بشرتها سمراء. وقد تورّد جلدها وسيحكّها لاحقاً، لكنها غير معرضة لأي خطر الآن؛ لأن الشمس قد تحرّكت وتركت الشرفة في الظل.

قالت وهي ترفع نظارتها الشمسية لتحدّق إليه: "ظننت أنني سمعتك تدخل

هناك شيء ما فيها يجذبه إليها دائماً. فهي نادراً ما تفتقد إلى رباطة جأشها، وتعتبر امرأة ترتقي إلى القمة في أي موقف. ورغم كل تلك الأعوام الماضية، ما زال يشعر بأنه لا يعرفها جيداً، وأنه لا يستطيع حقاً فهم ما يجري تحت السطح. وبوصفها قوة في حياته،

تتمتع جودي بكياسة وذوق رفيع، وتستغل ذلك ببراعة، في حين أن ناتاشا تستهدف عقله البدائي مباشرة. وإذا كانت جودي في الأعلى، فناتاشا في الأسفل. وإذا اعتبر جودي رافعة لطيفة، فستكون ناتاشا سقوطاً من الطابق العاشر.

لم يفعل صاحب النُّزل الريفي حين وصل برفقة ناتاشا ليستلما غرفتهما شيئاً لإخفاء امتعاضه، وطلب منهما تكرار اسميهما، ونظر بتجهم إلى السجل، ثم قال وهو يهز رأسه؛ وكأنه يحثّهما على تغيير رأيهما: "حجزتما جناح *شهر العسل*" فأكّدت ناتاشا على ذلك قائلة: "الجناح ذو السرير الملكي والجاكوزي" واستناداً إلى النظرات الفظّة التي لاحقتهما خلال عطلة نهاية الأسبوع، سيظن المرء أن تود يقوم بعلاقة مع ابنته. وعندما خرج وناتاشا من جناحهما ظهر الأحد وسارا إلى غرفة الطعام لتناول الغداء، شعر بأنه مثل رجل عار. إذ بدت الطريقة التي ينظر الناس بها إليهما كما لو أن ناتاشا فتاة في الثانية عشرة.

في اليوم الأول، لدى عودتهما إلى النُّزل وهما يشعران بالحر والعطش بعد نزهتهما في الغابة، دخلا الردهة - وهي قاعة بهيجة ذات ستائر من الخيزران وأثاث خشبي بسيط - فتلقّى النادل ذو الكرش الكبيرة طلبهما، وغمز تود حين وضع الشراب أمام ناتاشا؛ غمزة تعني بلغة الرجال المغرورين: "اجعلها تحتسي الكثير من الشراب، فحينها حتى رجل عجوز مثلك يمكن أن يحالفه الحظ"، أو "جعلتُ هذا قوياً جداً لأنك ستحتاج إلى كل المساعدة التي يمكنك الحصول عليها"، أو "ربما يمكنني أن أجرّب حظي معها حين تنتهي منها، ما رأيك؟"

كان يشعر أن اللوم يقع تقريباً على ناتاشا؛ وذلك بسبب الطريقة التي تكشف فيها كل شيء - صدرها المرتفع، وقرط سُرّتها الوامض، وشعرها المسترسل - والطريقة التي تحب أن تجلس بها؛ بجعل منحنى أسفل ظهرها غائراً مما يكشف عن جذعها؛ وكأنها ناديا كومانشي تقفز عن عارضة التوازن.

التفت حول مقعدها واقتربت منه، ثم شبكت أصابعها في حزامه، ولامسته بأنفها مثل عجل حديث الولادة، وقالت: "إذا كنا سنتزوج في حزيران - وأنت وعدتني بهذا - إذاً ينبغي لنا أن نبدأ بالتخطيط للزفاف. ويجب أن نبحث عن مكان نعيش فيه" ثم شدّت حزامه، وأضافت حين قرّبت شفتيها من أذنه أن قضاءهما الليلة معاً - كل الليلة في السرير الملكي في جناح شهر العسل - قد غيّر أموراً كثيرة، وأن لا عودة الآن. قالت له إنهما قد تجاوزا عتبة، وإن الروتين القديم في التسلّل وإخفاء حبهما لم يعد يُجدي نفعاً.

هل وعدها بأن يتزوجها في حزيران؟ إنه لا يتذكر هذا. محاولاً التخفيف من حماستها، قال لها إنه ينبغي له التكلم مع محاميه قبل أن يضعا أي خطط.

نهضت جودي عن كرسيها الطويل وتجاوزته إلى الشقة، فشم رائحة زيت التسمير المنبعثة من جسدها، وراقبها أثناء ابتعادها نحو الحمّام. جسدها صغير ونحيل، بخلاف صارخ مع جسد ناتاشا ذي التضاريس البارزة. عادت بعد قليل مرتدية ثوباً حريرياً قصيراً مربوطاً إلى خصرها. وعندما جلست، انفتح الثوب كاشفاً عن فخذيها وانتفاخ نهديها.

سألته: "كيف كانت عطلتك؟"

فقال مراوغاً: "تواجدي في المنزل أمر رائع. مـــاذا فعلـــت في غيابـــي؟"

"ليس الكثير، هل اصطدت أي سمكة؟"

وعندما ذكرت كلمة سمكة تغضنت عيناها فرحاً. وإذا كانـــت تعرف الحقيقة أو تخمّنها، فلن تعذبه بها على الأقل.

فقال لها: "أتمنى أن أقول لك إنني قد ملأت الثلاجة بها، ولكنني سأصطحبك إلى العشاء إن أردت"

ذهبا إلى سبياغيا، وتناولا وجبة من ثلاثة أطباق شهية، واحتسيا معها شراباً قوياً. كان يرتدي سترة رسمية، فيما ارتدت هي فســـتان حفلات مكشوف الكتفين، وتزينت بعقد مزدوج مـــن اللآلـــئ. في تلك الليلة، أقاما علاقة لأول مرة منذ شهر.

بدأ اليوم التالي بسلسلة أحداث مؤسفة. في البداية، ذهب إلى العمل في ساعة مبكرة كالمعتاد، فاكتشف أن أحد مفاتيحه – الذي يفتح بوابة المبنى – مفقود من حلقته. وقف على الرصيف حاملاً هاتفه الخلـــوي، وأطلق سيلاً من الشتائم حين فشل في الاتصال بالبوّاب. لم يكن يعرف كيف يمكن لهذا أن يحدث. فالمفاتيح لا تنفصل من الحلقة مـــن تلقـــاء نفسها. ورغم هذا، مشى مسافة الأبنية الثلاثة عائداً إلى البورش ليبحث عن المفتاح على المقاعد والأرضية، ثم اتصل بجودي وأيقظها ليطلب منها البحث في أرجاء المنزل. بعد هذا، انتظر أمام المبنى ظناً منه أن أحداً ما لا بد له أن يأتي عاجلاً أم آجلاً ويساعده على الدخول. لكن الوقت كان لا يزال باكراً. وبعد وقت قصير، استسلم وذهب لتناول الفطور.

يبدأ البوّاب بالعمل عند الساعة الثامنة كما يُفترض. لذا، عـــاد تود إلى المبنى عند الثامنة إلا خمس دقائق مع كوب من القهوة. لكن

اثنتي عشرة دقيقة أخرى انقضت قبل أن يظهر الرجل. وأدى الانتظار لمدة اثنتي عشرة دقيقة إلى نفاد ما بقي من صبره، فما كان منه إلاّ أن ألقى كل المسؤولية بهدر الساعة والنصف على رأس البوّاب. عندها، استقال البوّاب - وهو رجل هادئ وموثوق شغل الوظيفة لبضعة أعوام - حالاً، وغادر من دون أن يقدّم أي مفاتيح. وانقضت دقائق أخرى - تسع عشرة دقيقة تحديداً - قبل أن يصل أحد المستأجرين ويساعد تود على الدخول. وبحلول وقت دخوله عنوة غرفة البوّاب ليحصل على نسخة إضافية من المفاتيح، تلقى رسالة من ستيفاني تقول له فيها إن أحد أبنائها مريض، وإنها لن تأتي إلى العمل. وهكذا، أمضى ما تبقى من فترة الصباح وهو يتعامل مع أشياء تفعلها ستيفاني عادة. وعندما اتصلت به ناتاشا لتسأله إن كان قد تكلم مع المحامي، أخبرها أن العالم لا يدور وفقاً لأهوائها.

وكان انزعاج ناتاشا من إساءته إليها، وميلها إلى الصراخ والغضب والانكفاء جديد عليه، ووجده مُرهقاً. فجودي لا تتصرف بهذه الطريقة. ما مشكلة ناتاشا؟ ودّ لو كان بإمكانه أن يتكلم معها عن الموضوع، لكنه أمسك لسانه بتعقّل. ورغم أنه كان يمرُّ بيوم عصيب أخبرها عن رغبته بلقائها على الغداء.

وعندما ظهر عند فرانشيسكا في الحي الإيطالي - موقع لقائهما المعتاد لأنه قريب من الجامعة - وجد ناتاشا جالسة قرب العمود، وهي تقرأ قائمة الطعام. استقر على الكرسي قبالتها، لكنها لم ترفع بصرها، وتظاهرت بعدم رؤيته وبأنها مشغولة بقائمة الطعام؛ وكأنها لا تعرفها مسبقاً عن ظهر قلب. لماذا لا تتصرف وفقاً لعمرها فتتكلم معه وتشتمه مرة أو اثنتين، ثم تخرج من قوقعتها؟ من ناحية أخرى،

كانت موافقتها على لقائه هنا تنازلاً كبيراً بالتأكيد من قبلــها؛ ولا سيما بعد الطريقة التي تحدث بها معها. لذا، أخذ قائمة الطعام مــن يديها بلطف، ووضعها جانباً.

وقال: "دعينا لا نتشاجر. أنا آسف"

واستناداً إلى النظرة التي رمقته بها – عابسة، وقلقة – فهم أنهــا تنوي الانفصال عنه؛ لكن ما حصل كان مجرد مشاجرة بســيطة! لا بد أن هناك شيئاً آخر يجري. طبعاً، الشيء الآخر الذي خاف منــه دائماً. حدث هذا أخيراً. وكيف يمكن ألا يحدث نظراً إلى الأعــداد الكبيرة من الشبان الذين تلتقيهم كل يوم في الجامعة؟! فهو لم يصدّق مطلقاً أنها ستبقى معه إلى الأبد؛ رغم ما تقوله دائماً. الحديث عــن الزواج مجرد قضية ثانوية؛ فهو شيء ترغب في تجربته. وهــي تحــب هذا؛ تحب أن تخمّن وتفترض فقط لترى ما سيحدث. ولِمَ لا؟ فلديها حياتها كلها أمامها، وينبغي لها أن تكتشف ما ستفعله ومع مــن، في حين أنه قد قطع أكثر من نصف المشوار، وبلغ السادسة والأربعــين؛ أي إنه فوق القمة. وبعد بضعة أعوام أخرى، سيضــطر إلى تنــاول الفيتامين. لا يمكنه أن ينافس شخصاً في نصف عمره، وينبغي لــه أن يواجه الحقائق ويدعها تمضي في سبيلها.

قال لها: "لا يمكنني أن أتركك تذهبين، فأنا أحبك"

اتسعت عيناها، وضحكت قليلاً، وقالت: "لا تكن سخيفاً"

"ألن تنفصلي عني!؟"

"لا، رغم أنك تستحق هذا"

أتى النادل، فطلبت ناتاشا شطيرة كرات اللحم، لذا طلب تود مثلها أيضاً؛ رغم أنه فاقد الشهية. ثم خرق قاعدة وقت الغداء وطلب

كأساً من الشراب. لن تنفصل عنه، وينبغي له أن يشعر بالارتيــاح. لكن، هناك شيء ما ليس على ما يرام.

سألها: "ما الأمر؟"

متجاهلة السؤال بدأت بالحديث عن الدراسة؛ عن صفها عنــد الساعة التاسعة، وما كان الأستاذ يرتديه، وما قاله عن المتحرّرين في الرسم... على الأقل، قرّرت أن تتكلم إليه. لكن عندما وصل الطعام انشغلت به، وأطبق الصمت مجدداً. أخبرها عن صباحه، وعن سلسلة الحوادث المؤسفة التي مرّ بها؛ بدءاً من المفتــاح الضــائع، وحــاول تسليتها وجعلها تضحك، لكن هناك شيئاً ما كان يشــغل ذهنــها، فشرب ما بقي في كأسه ثم طلب أخرى. لم تتطرّق إلى الموضوع إلا بعد أن تناولت وجبتها كلها؛ كل لقمة منها. وحين وُضِع كــوب شاي أمامها أخبرته بالأمر، فشعر بأنه قد تلقى ركلة على رأسه.

صرخ: "كيف يمكن أن يحدث هذا؟! ظننت أنــك تتنــاولين حبوباً لمنع الحمل"

فأسكتته، وأصبح لونها شاحباً، وبدت مرتبكة وهــي تقــول: "ظننت أنك تريد أطفالاً"

فصرخ مجدداً: "طبعاً أريد أطفالاً"

طبعاً يريد أطفالاً؛ رغم أن كلمة *أطفال* قد لا تكون ملائمة لما يريده. ناتاشا تريد *أطفالاً* ، ما يعني أنها تريد مُعدمين صغاراً بائســين يحتاجون إلى رعايتها المتواصلة، ومنحها إحساساً بالقرابة والانتمــاء. وليس هذا ما يرغب فيه. فهو يريد ذرّية، أو وريثاً واحــداً فقــط. ويفضّل أن يكون صبياً؛ شخصاً يشاطره حمضه النــووي، ونســخة مختلفة عنه ليحل محله حين يرحل. لم يفكّر في هذا الأمر بجدية مطلقاً

في فترة شبابه. وكان سيبقى على تلك الحال لو لم يستيقظ في صباح أحد الأيام وهو يشعر برغبة في الحصول على ذرية تسري في عروقه مثل فيروس. وعندما التقى ناتاشا، تحوّل ذلك إلى تـــوق شـــديد لم يفارقه قطّ. جعله ذلك يشعر أن حياته - كما هـــي عليـــه - أرض بور؛ ما جعل سعيه خلفها ضرورة ملحّة لا تلين، واحتمال محبتها له يعني أن الوقت لم يفت بعد.

كرّر: "طبعاً أريد أطفالاً، ولكن ليس هكذا"

"ليس هكذا؟!"

"لا أحب أن تفاجئيني بالنبأ أثناء الغداء"

"إذاً، متى ينبغي لي أن أنقل لك النبأ؟"

"لم نناقش هذا الأمر قطّ"

"بلى فعلنا. وأنت تريد أطفالاً"

"هذا خارج الموضوع"

صرخ مجدداً، ورأى من تعابير وجهها أنـــه ســـيفقدها. فقـــد وقفت، وأمسكت حقيبة ظهرها بعد أن رفعتها عن مسند الكرسي، وغادرت المطعم. فأخرج محفظة نقوده، ووضع بعض الأوراق النقدية تحت طبق، ثم أسرع خلفها خائفاً من أن تبتعد وتختفي. لكنه وجدها واقفة مكانها وهي تتلكأ.

قالت له: "ينبغي لي أن أذهب إلى الصف"

فوضع ذراعاً حول كتفيها، وأبقاها هناك وهما يمشيان في شارع لوميس نحو هاريسون.

قالت: "يمكن أن أُجهض

"هل ستفعلين هذا؟"

"إذا كان هذا ما تريده"

هذا شعاع ضوء. ومع الأمل الذي يحمله خفّ فزعه قليلاً، فتوقف عن المشي، وأدارها إليه ليواجهها، ثم سألها: "كم مضى عليك؟ أعني، هل هذا ممكن؟"

رمقته بنظرة كراهية شديدة، فتراجع إلى الخلف قائلاً: "أنت من تسبّب بهذا"

وفيما كان الشجار بينهما مستمراً. لم يخطر بباله أنها ربما فعلت ذلك عمداً. إنه ليس متشككاً أو انتقامياً بطبعه. لذا من دون أن ينتبه، توقف عن لومها، وبدأ عملية إصلاح الأمر؛ كما سيفعل في حال حصول تسرّب من أنبوب ما أو دين سيئ. وصار يقول لها أشياء مثل: "لا تقلقي... سنصوّب الأمر... سيكون الأمر على ما يرام" لكن هذا النوع من الكلام لم يفِ بالغرض.

فقد قالت: "أنت ما زلت تتكلم كما لو أن ما حصل مشكلة!"

"لا بأس. حسناً، أنا لست في الحادية والعشرين. ولدي ماضٍ؛ مما يعقّد الأمور. ولست حالياً رجلاً غير مرتبط"

"ومن المسؤول عن هذه المشكلة؟ كان يُفترض بك أن تخبرها عنا منذ وقت طويل

تساءل عن مدى صحة هذا؛ فهو لا يتذكر أي نقاش دار بينه وبين ناتاشا ووافق فيه على التحدث إلى جودي. وهو يعرف فقط أن ناتاشا تضغط عليه ليتكلم معها.

قال: "لم أظن أنه كان يُفترض بي إخبارها سابقاً. لكنني سأضطر إلى القيام بهذا الآن"

اتضحت له الحقيقة تدريجياً؛ فإن لم تفكّر ناتاشا في الإجهاض، فلا بدّ أن يعرف الناس؛ ربما ليس فوراً ولكن في نهاية المطاف بالتأكيد. ينبغي أن تعرف جودي، ودين أيضاً.

قال: "لا أظن أنك يجب أن تخبري أباك بالأمر؛ ليس الآن على أي حال"

بدأت ناتاشا تمشي مجدداً، وكانت بعيدة عنه عدّة خطوات حين قالت ملقية الكلمات من فوق كتفها: "لقد أخبرت أبي مسبقاً"

وسّع خطواته ولحق بها: "أخبرت دين؟! متى أخبرته؟"

"بعد أن تكلمت *معك عبر الهاتف*"

"لا أصدّق أنك فعلت هذا!"

فهزّت كتفيها، وفهم أنها فعلت ذلك لإزعاجه؛ لأنه كان قاسياً معها عبر الهاتف حين سألته إن كان قد اتصل بالمحامي.

"ماذا أخبرته تحديداً؟ لم تخبريه عني - عنا، أليس كذلك؟"

"ما رأيك؟ هل من الممكن أن أخبره بالأمر من دون أن أذكر اسم الشخص؟"

"لم يكن ينبغي لك إخباره إطلاقاً"

فهزّت كتفيها مجدداً، واجتمع استياؤها منه وغرورها وقسوتها في إشارة متغطرسة واحدة. وعندما تابعت المشي بخطوات متأنية وثابتة اضطر إلى مجاراتها، وشعر بأنه مثل صرصار يعدو إلى جانبها.

وقال لها: "تمهّلي، تحدثي إليّ"

"ما الذي سنتحدث عنه؟"

"الكثير. هناك الكثير لنقوله. كم مضى على حملك؟ ومتى اكتشفت هذا؟"

"لا أعرف كم مضى على الحمل. وقد اكتشفت الأمـــر هـــذا الصباح"

"اكتشفته هذا الصباح! ظننت أن لديك صفاً هذا الصباح"

"فعلت ذلك في الصباح الباكر حين استيقظت. فهذا هو الوقت الذي يفترض القيام بالاختبار به"

فقال تود الذي لم يكن قد سمع مطلقاً عن اختبار الحمل المنزلي: "*ماذا* فعلت حين استيقظت؟"

"هناك تلك القطعة البلاستيكية التي تبول عليها، وتبتاعها مـــن الصيدلية. وإذا كان هناك حمل فسيظهر شريط زهري"

"قطعة بلاستيكية!"

"هذا ليس كل شيء، فدورتي الشهرية قد تأخرت"

"لكن، ينبغي أن تري طبيباً لتتوثقي

"أنت تريد بشدة ألا يكون هذا صحيحاً"

كانا في شارع هاريسون الآن، ويتجهان شرقاً. وكان الرصيف مزدحماً بطلاب يتحركون في كلا الاتجاهين، فانضما إلى الحشد.

سألها: "متى أخبرت أباك؟ وكيف تقبّل الأمر؟"

"ما رأيك أنت؟"

"لم يكن سعيداً"

"لا"

"ماذا قال؟"

"قال إنه سيلوي عنقك"

"أهذا كل شيء؟"

"أليس كافياً؟"

"لا بد أنه قال ما هو أكثر من هذا"

"أوه بلى، كدت أنسى. قال إنه سيتكلم مع جودي"

انتظر اختفاءها في قاعة هنري، ثم استدار عائداً إلى سيارته، نادماً آنذاك على الفوضى التي تسبّب بها. بدا واضحاً أن الموقف كان حسّاساً، وأنه كان يُفترض به أن يكون أكثر لباقة؛ رغم أن هذا ما كان ليُحدث أي فرق حقيقي. إذ تنجب النساء أطفالاً أو يمتنعن عن هذا وفقاً لأهوائهن. وما يريده بعض الرجال - حتى الرجل صاحب العلاقة - مختلف تماماً. لا ملاذ للرجال في هذا العالم، وهم جنس من المغفلين الذين لا يدركون أن إقامة علاقة أكبر مخاطرة يُقدمون عليها. سيتغير عالمه برمّته منذ الآن، ولا شيء يمكن أن يفعله بشأن هذا. كان ينبغي أن يكون له رأي في ذلك، لكن الأمور لا تحدث على هذا النحو. ورغم ما يقوله الجميع، فالنساء هن اللواتي يضعن القوانين. وفي هذه الحال، ناتاشا هي التي تضع القوانين، وهي منزعجة منه الآن، ولا يزال أمامه دين وجودي ليواجههما. وبغض النظر عن مشاعره بشأن إنجاب ابن أو وريث أو مهما كان ما يدعوه، فقد أصبح الأمر معقّداً جداً الآن، وهو يتطوّر بسرعة كبيرة. وانتابه شعور سيئ؛ كما لو أنه في سيارة على المسرب الخطأ، ويتجه نحو حركة سير قادمة. ولا يُحدث فرقاً جهله بطريقة وصوله إلى هناك؛ فهو الذي سيتحمّل المسؤولية.

وعندما مرّ أمام قاعة يو - آي - سي أمسك هاتفه بيده، وضغط بسرعة على رقم دين الخلوي. ينبغي أن يحظى ببعض الوقت لترتيب أفكاره، وتحديد ما يجب أن يقوله. لكن الوقت يمر ويجب عليه أن يتكلم مع دين قبل أن يتكلم دين مع جودي؛ هذا إن لم يكن قد فات الأوان. فكّر أن لديه فرصة؛ لأن دين لم يعرف إلا منذ بضع ساعات فقط.

والشيء الرئيس هو أنه مستعد لكي يكون متواضعاً، ومستعد لمنح دين حيزاً كبيراً واللجوء إلى الدفاع. فقد يكون دين قاسياً قليلاً، وصعب المراس، وعنيداً أيضاً، لكنه ليس أحمقَ. وقد لا يحب ما يجري، لكنه بمرور الوقت سيتكيّف لأنه وفي، وتود أقدم أصدقائه.

لكن تود كان مخطئاً في ظنّه أن دين قد حظي بوقتٍ كافٍ ليهدأ ويُجري حديثاً منطقياً. فقبل أن ينطق تود بكلمة واحدة، انهال عليه دين قائلاً:

"ظننت أنك صديقي، أيها القذر السافل. بحق الله، ماذا تفعل مع ابنتي؟!"

أراد تود التعبير عن أسفه، والقول إنه لم يتعمّد حدوث هذا، أو يرغب إطلاقاً بإيذاء دين أو تعريض صداقتهما للخطر، وإن دين لديه كل الحق بأن يغضب. رغب تود بشدة في أن يقول هذه الأمور ويُصفح عنه. لكن الأهم - في تلك اللحظة تحديداً - هو أنه أراد أن يطلب من دين ألا يتحدث إلى جودي، وأن يمنحه فرصة ليتكلم معها أولاً. لكن دين، بأي حال، لم يكن في مزاج مناسب ليصغي إليه.

قال صديقه: "سأمزّق رأسك إلى أشلاء، أيها الروث كريه الرائحة. سأجعلهم يعتقلونك بتهمة الاعتداء الجنسي وأنهى المكالمة.

شعر تود بالغضب الآن؛ فذلك المغفّل لم يمنحه أي فرصة. ينبغي له أن يهدأ، والمشي بخطوات واسعة سيفيده. المشي علاج معروف للسيطرة على النفس، فكما يُقال: اذهب في نزهة، اخرج وتخلّص من الانزعاج. إنه أحد تلك الأيام التي تخترق فيها أشعة الشمس غيوماً منخفضة، وتتساقط قطيرات مطر على الرصيف وكأنها حمامات مبعثرة؛ فترطّب رأسه وكتفيه، وتثير رائحة المروج المهيمنة على

أرضيات الجامعة. يجب أن يركّز على المستقبل؛ ليس المستقبل البعيد – رغم أن ذلك أيضاً على المحك – وإنما الساعات القادمة. أين سيتناول العشاء؟ وأين سينام؟ ينبغي فعل شيء ما، لكن ماذا؟

كانت أفكاره خليطاً من ملحوظات متضادة؛ يتردد صداها في ذهنه المرهق على نحو مؤلم، وتضرب فصّيه الصدغيين. لكن هناك شيئاً آخر يجري أيضاً. حتى في حالة الترقّب والسخط والقلق التي تنتابه، أدرك وجود تناقض معين؛ فأفكاره تميل غالباً باتجاه واحد، لكن ليس تماماً، أو بنحو حاسم. الدوار الذي ينجم عن الإجهاد مفيد، ومسلٍ، وحتى إنه هزلي؛ كما لو أنه قصيدة قصيرة مشوّقة تكون وليدة المشاجرة الأوركسترالية، وتتعلق بناتاشا وكل ما يشعر به تجاهها.

لقد عرفها طيلة حياتها – في الواقع، منذ اليوم الذي وُلدت فيه– ولا يزال جزء منه يعتبرها طفلة سيئة الحظ توفيت أمها، طفلة صاحبة بزي المدرسة، ومراهقة ببثور وحمّالتين، وقد اجتمع كل ذلك في شيء واحد. لو أنه عرف آنذاك أنها ستكون المرأة التي تحمل ابنه لضحك عالياً، فتلك ستبدو فكرة سخيفة حقاً.

تذكر اللحظة التي رآها فيها أول مرة بعد أن صارت شابة بالغة؛ بمنظرها الرائع الذي عرفه وأحبّه. كان جالساً إلى إحدى الطاولات في *دريك* بانتظار دين، ونظر حوله صدفة حين دخلت. كانت غريبة جميلة لفتت انتباهه، وتحرّكت نحوه بأبّهتها ونضارتها وكل حيويتها؛ ووركاها تتمايلان، وصدرها يهتز، وقرطاها يتأرجحان، فلم يتحمّل ذلك مطلقاً. وعندما طبعت قبلة على شفتيه، ازدهرت حديقة الآمال والأحلام في ذهنه الخصب.

أعلنت: "أنا ناتاشا، سألتقي أبي هنا. ينبغي أن يعطيني مالاً"

لم يكن قد رآها منذ أعوام. طلبت كأساً من الشراب، وبحلول وقت ظهور دين – بعد عشرين دقيقة – كانا قد تجاوزا نقطة اللاعودة.

تذكر تلك الأمور فابتسم لنفسه وهو يتابع المشي. لكنه عندما وصل إلى مكتبه، أدرك المشكلة التي تورط فيها، فبدأ يتحرّك ذهاباً وإياباً وهو يذرع غرفة المكتب. بغياب ستيفاني كان لديه المكان برمته ليتنقل فيه. فنقلته خطواته خارج مكتبه إلى مكتبها، وعبر منطقة الاستقبال في جولة كاملة. كانت يداه دبقتين، والطعم في فمه مثل مسمار صدئ. وقاوم فكرة إجراء مكالمة مع جودي؛ فلا فكرة لديه البتة عمّا سيقوله، وكيف سيفاتحها بموضوع حياته غير الرسمية، وكيف سيتكلم عن أمر لم يكن أي منهما قد أقرّ به صراحة مطلقاً. في ذهنه، لم يكن شيء قد تغيّر. وما يجري مع ناتاشا لا علاقة له بجودي؛ والعكس صحيح. لكن احتمال تصادم عالميه؛ عالميه اللذين ينتميان طبقياً إلى فلكين منفصلين، أمر يستحيل تخيّله، ويستحيل تحمّله. إنه مشهد نهاية الحياة كما يعرفها.

انتظر انتهاء الرنين ليستمع إلى الرسائل المسجّلة، وأخبره صوته أن لا أحد في المنزل يتلقّى مكالمته، فأدرك أنه ينبغي له أن يشعر بالارتياح. أخرج العلبة المسطّحة من درجه، وبحث بين البقايا عن لفافة ممنوعات، ثم أشعلها ووقف قرب النافذة؛ فبضع مجّات هي كل ما يحتاج إليه. إنها كافية لجعل ذهنه صافياً. سيكون ذلك الوغد دين قد اتصل بها الآن؛ رغم أن فشل التواصل بينهما ممكن، وهذا أفضل ما يمكنه أن يتمنّاه حالياً.

أوصد باب مكتبه، ومشى إلى سيارته. بدا له أن ساعة ازدحام بعد الظهر تبدأ الآن في وقت مبكّر أكثر من السابق. كان من المعتاد أن يعمل الناس من التاسعة إلى الخامسة، ولكن الآن هناك كل تلك

الأوقات المتعاقبة، ولم يعد أحد يتقيّد بثماني ساعات في اليوم. جعله الانضمام إلى حركة السير نافد الصبر وفظاً وعدائياً، فاستخدم بوق سيارته، وغيّر مساره، وأفكاره تتنافس على مساحة في حلبة ذهنية مزدحمة جداً.

كان موقف سيارة جودي - بجانب موقف سيارته - خالياً. وأثناء صعوده في المصعد، لم يتذكر آخر مرة جاء فيها إلى المنزل بعد الظهر. كل ما يعرفه أن جودي ربما يكون لديها حبيب منذ سنوات، وربما كانت في هذه اللحظة بالذات تقيم علاقة على سريره. وخطر في ذهنه ذاك المراهق الذي يقطن في شقة تحتهما بطابقين؛ ذاك الفتى الطويل الذي يعتمر قبعة. أخبرته جودي أنه بارع في الرياضيات ويعزف الكمان. لكن، كيف تعرف عنه كل هذا؟

وعندما فتح الباب، اندفع الكلب نحوه، وراح يتحرّك في الرواق ذهاباً وإياباً. وتوقفت جارته في طريقها إلى المصعد لتسلّم عليه وتضحك معه على تصرفات الكلب الغريبة؛ امرأة في العقد السادس من عمرها، بقوام ممشوق، وساقين لا تزالان تبدوان جميلتين في جوربين شفّافين وحذاء عالي الكعبين. وعندما تابعت طريقها، أخذ الكلب إلى الداخل، وتقدم إلى غرفة المعيشة؛ فرأى دليلاً على غياب جودي في الهواء الساكن والمصاريع نصف المغلقة. لكنه توثق رغم هذا من كل غرفة تباعاً، فلم يجد شيئاً باستثناء سرير مرتّب بأناقة، ومناشف نظيفة، ووسائد متناسقة، ومجلات مصفوفة. بحث في المكان عن سمّاعة الهاتف المحمولة التي يراها على طاولتها دائماً، فحملها وبحث في قائمة المتصلين. ظهر اسم دين ثلاث مرات، بفاصل نصف ساعة بين اتصال وآخر؛ بدءاً من الظهر، لكن من دون وجود أي

رسائل. وإذا كان دين قد ترك رسالة فلا بدّ أن جودي قد سمعتها مسبقاً وعاودت الاتصال به. صار الآن يتصبب عرقاً، وشعر بأنه تائه، وتمنّى لو أن دين لم يكن حاد الطباع. ينبغي أن يتعلّم دين السيطرة على نفسه، وينتظر ريثما يهدأ، وألا يرفع سمّاعة الهاتف ليدمّر حياة شخص ما؛ فقط لأنه تجاوز الخط قليلاً.

عاد أدراجه إلى فسحة ركن السيارات، وقاد سيارته إلى *دريك*. ورغم أن الوقت كان لا يزال باكراً، إلا أن الشيء الرائع في مقهى الفندق هو أنه لا يشغر مطلقاً. لذا، لا تضطر إلى الشرب وحدك. في أي فندق محدد، وفي أي وقت من النهار أو الليل سيكون هناك زبائن؛ لأن الناس يأتون إلى الفنادق من كل أنحاء العالم، ويعملون وفق ساعاتهم الخاصة. طلب كمية مضاعفة وتجرّعها كلها؛ فبدأت عقدة الفزع التي حملها معه منذ الغداء تنفك، واسترخت عضلاته، وأرخت الملزمة الممسكة بأعصابه قبضتها، وفُتحت ثغرة في دفاعاته، لتندفع عبرها فكرة عَجْزِ الآخرين عن فهمه أو عدم رغبتهم في ذلك. الأبوّة التي يتضخّم شعوره بها داخله أصبحت تدريجياً - حين أفرغ كأسه وشرع في تناول أخرى - حقيقة بسيطة وأساسية؛ مثل بخار يتكثّف ويتحول إلى قطرات ملموسة.

جال ببصره في أرجاء القاعة، ورأى رجالاً من أشكال وأحجام متنوّعة؛ رجالاً قد أنجبوا من أبناء من دون شك؛ لأن هذا ما يفعله الرجال. وشعر بالحب تجاههم؛ كل واحد منهم بمفرده وكلهم معاً. فهم الآن قبيلته؛ أخويته، ويجب أن يتقبلوه منذ الآن فصاعداً على أنه والد زميل، وعضو مُجاز في جمعية المنجبين، ومنافس في الرجولة، وباني سلالة. وبغض النظر عن طريقة حدوث ذلك، إلاّ أنه لا يمكنه

إنكار أنه أراده. فهذا ما أراده منذ التقاها، وما أراده دائماً حقاً؛ حتى إن لم يكن يعرف هذا لأنه كان مشغولاً جداً بإثبات نفسه بطرائق أخرى. هذا هو المشروع الدنيوي الرائع، والأرض الخصبة البدائية من المورثات والتكاثر. إنه الأبوّة المثبتة المؤكدة؛ الإنجاز النهائي. والآن، هذا شيء يشاطرها إياه، لذا ينبغي له أن يخبرها بكل ما يفكر فيه ويشعر به، ويجب عليه يثني على خصوبتها، وينسب الفضل إليه، ويشترك معها في حوار وقار متبادل. أخرج هاتفه، لم يكن يعرف سبباً يجعلها لا ترد عليه، أو سبباً لاتقاد غضبها. فقد كان ذلك الشجار تافهاً ولا معنى له. وإذا ردّت فسيطلب منها الصفح، وسيحصل عليه. ويمكنهما أن يمضيا قدماً على طريق مستقبلهما؛ طريق كينونتهما الجديدة في العالم.

عاد إلى كأسه وتأملاته؛ محاولاً الاتصال بها بين الحين والآخر. وتذكر أخيراً أنه يريد الاتصال بجودي، وسبب رغبته في التحدث إليها؛ لينقل لها النبأ قبل أن يسبقه دين إلى القيام بذلك. لكن، ينبغي له أن يحافظ على مزاجه الاحتفالي. وتماشياً مع هذا، وبدلاً من إجراء الاتصال، اشترى شراباً للحاضرين، فقُدِّم لهم الشراب بحلول الساعة الخامسة. رفع الناس في أرجاء القاعة كؤوسهم له محيّين كرمه، فأخبرهم أنه سيصبح أباً، وانهالت عليه التهاني. وعندما هتفت مجموعة تجلس إلى طاولة قريبة منه ابتهاجاً من أجله، قال بصدق وجدّية: "آمل فقط ألا تعرف زوجتي" تاركاً المباركين يحلّون هذا اللغز بأنفسهم.

5

هي

لقد اختفت الأفكار الكئيبة التي أزعجتها طيلة عطلة نهاية الأسبوع من ذهنها على الأغلب. فمهما فعل فقد انتهى ذلك الآن، ولن تكون أبداً شخصاً يعيش في الماضي. لو أنها شخص يمعن التفكير في الأخطاء لتركته أو خنقته منذ أعوام. أضف إلى ذلك أنها قد حققت انتقامها الصغير منه بأخذها المفتاح. وهي تشعر بالرضا الآن.

بعد إنهائها الفطور، تصفحت ملفها عن "الكيس الحزين" الذي يكاد يصل إلى جلسته صباح الاثنين. فتحت له الباب ليصعد إلى شقتها، فوضع بدنه النحيل ببذلته الفضفاضة على كرسي مرضاها. نظرت إليه كما لو أنه حيوان بري ينبغي أن تمسك به وتروّضه بطريقة ما، فرمقها بنكد. فالكيس الحزين مقتنع تماماً بأن الحياة مجحفة بحقه. وهو يصدّق من صميم قلبه أن الحظ يقف ضده، ولا شيء يمكنه فعله لإحداث فرق بهذا الشأن. وهذه هي الجملة الخاصة بالكيس الحزين؛ النزعة الأساسية المهيمنة التي تعرّفه وتحدّد مساره الخالي من الفرح عبر الحياة. إنه ليس رجلاً معقداً بإفراط، لكن نظراً إلى عناده يصعب تكوين أي نوع من الانطباع عنه.

يستفيد معظم مرضى جودي بجعل أنفسهم أقل جدّية. ويتضمن أسلوبها في العلاج مقداراً معيناً من التملّق والملاطفة؛ وهذا شيء غير مذكور في الكتب. لكن الطريقة التي تتعامل بها مع مشاكل مرضاها تشبه الطريقة التي تتعامل بها مع مشاكلها. استجاب الكيس الحزين خاصة لمحفزاتها اللطيفة. وبعد أن أصغت إليه لبعض الوقت وهو يشتكي، قالت له: "سأتقاضى منك مبلغاً أكبر بسبب تذمرك. وأعرف أن السبب الوحيد لوجودك هنا هو أن أسرتك لم تعد تتحمّل. هلاّ تخبرني بأمر واحد جيد حصل معك الأسبوع الماضي؛ شيء واحد فقط. أخمن أنه بمقدورك فعل هذا"

جعله التحدّي - رغم بساطته - يحجم عن المتابعة، ونظر إليها ببلاهة فاغراً فمه، ثم من دون إنذار كشّر بطريقة غير إرادية، كاشفاً عن أسنان بيضاء جميلة. بدّل الأمر حاله تماماً.

فقالت منتهزة اللحظة: "بجدية الآن، فكّر في ما جرى في الأسبوع الماضي، وتذكّر تجربة إيجابية واحدة"

إنه ليس جاهزاً تماماً لهذا التدريب، فقد شاطرها بدلاً من ذلك المشاكل التي عاناها بسبب سيارته. لكن جودي سعيدة رغم هذا، فهذه أول مرة تراه يبتسم فيها.

وبعد جلستها مع الكيس الحزين، رأت مريضة جديدة لأول مرة؛ امرأة خجولة جداً جعلت جودي بعد دقائق من بدء الجلسة تصنفها ذهنياً على أنها جين دو. المشكلة التي قدّمتها هي عدم قدرتها على مواجهة زوجها؛ وهو رجل غيور يراقب بدقّة كل ما تفعله. انقضت الجلسة في جمع المعلومات، أي سبر أغوارها لمعرفة خلفيتها وطفولتها؛ مما أبقى الحديث مستمراً. المشكلة هي أن جين لا تتذكر

الكثير عن أعوامها الباكرة، وذاكرتها فارغة تقريباً حتى عمر ثمانية أعوام.

بعدئذ، شعرت جودي بالتوتر، فتخلّصت منه في صالة الألعاب الرياضية. تناولت غداءها الذي كان عبارة عن شطيرة جبن وجرجير وكأس من الماء، ثم اغتسلت وارتدت ثيابها وعادت إلى مكتبها لتبعد ملفات مرضاها وتتوثّق من رسائلها. لقد اتصلت بها أليسون لتؤكد موعد العشاء، وهناك رسالة من دين كوفاكس قال فيها إنه ينبغي أن يتكلم معها بأقصى سرعة، ولا يمكنها تخيّل السبب. إنها تعرف دين جيداً، فقد جاء إلى منزلهما مرة أو اثنتين بعد وفاة زوجته برفقة ابنته لتناول العشاء. وهي لا تزال تراه من وقت إلى آخر في هذا التجمّع أو ذاك، لكن تود هو الوسيط عادة. لم يطوّر دين وجودي صداقة مستقلة عن تود، لذا اتصلت به وتركت له رسالة بالمقابل.

الحدث الأبرز في جدول أعمالها بعد الظهر هو حلقة دراسية عن اضطرابات الأكل برعاية نقابتها المهنية. ورغم أنها لا تعالج مثل هذه الأمراض، إلا أنها تحب أن تبقى على اطّلاع، وتستمتع بالاختلاط مع الزملاء. لقد تركت لنفسها وقتاً كافياً للقيام بمهمات أخرى في الطريق. وعندما استعدت لمغادرة المنزل، جمعت الشيكات التي أخذتها من المرضى، ووضّبت ثياباً ينبغي أخذها إلى المصبغة.

كانت محطتها الأولى هي المصرف. ورغم ما يحب تود قوله عن أن مزاولتها المهنة مجرد هواية، إلا أنها تجني على الأرجح ما تجنيه أمينة الصندوق التي تستلم وديعتها، وأكثر من النادلة التي تحضّر لها القهوة بالحليب في ستارباكس المجاور. بأي حال، إنها تجني ما يكفي لتأمين حاجات منزلية أساسية وبعض الأمور الإضافية. انتظرت في المصبغة

ريثما تنتهي آمي من الحديث مع شخص ما عن بقع الدم على ثيابه. كان رجلاً أنيق المظهر، ينتعل حذاء برباطين وأظفاره طويلة قليلاً، ويبدو قلقاً، وحتى محرجاً من حال قميصه. لكن آمي محترفة، فلم تبدِ أي اهتمام.

تقدمت جودي إلى الأمام حين حان دورها، ووضعت ثيابها على المنضدة، وانتظرت إلى أن فرغت آمي منها؛ إذ كانت تتفحّصها، وتبحث عن أزرار مفقودة وعيوب أخرى، وتفتش الجيوب، ثم تضع الملابس في أكوام. وعندما وصلت إلى السروال البالي الخاص بتود، أخرجت غرضاً من الجيب وأعطته لجودي التي ألقت نظرة عليه ثم ألقته في محفظتها.

وكانت قد ركنت سيارتها بشكل غير قانوني فأسرعت عائدة إليها. وكانت محطتها التالية هي بائع الأُطر في الطرف الغربي، حيث أخذت اللوحة المنمنمة التي أحضرتها في الأسبوع الماضي. تأخرت قليلاً، لكن سلسلة من الأضواء الخضراء جعلتها تصل إلى حلقتها الدراسية في مركز المكتبة قبل عدّة دقائق من الموعد المحدد، وسمعت همهمة في غرفة المحاضرة، ورأت بعض الناس جالسين، لكن معظم الحاضرين كانوا واقفين أزواجاً أو في مجموعات. نظرت بسرعة إلى الحشد، ورأت بعض الوجوه المألوفة. لكن قبل أن تقوم بأي جولة، أمسك مقدّمُ المذياع وطلب من الجميع الجلوس.

أول من تحدّث كان امرأة ترتدي بذلة صوفية مقلّمة، وتنتعل حذاء ضخماً؛ سيدة قصيرة ألقت دعابة عن طولها، في حين حدقت من فوق المقرأ، وعدّلت المذياع إلى الأسفل، فسرت ضحكات تقدير خافتة بين الحضور. وبعد ذوبان الجليد، أعادت ذكر شهاداتها التي

فصّلها المقدّم الذي عرّف عنها. وتبين أنها تحمل دكتوراه في علم النفس الاجتماعي، ومديرة برنامج عيادة اضطرابات أكل على الساحل الغربي. لقد سمعت جودي أن فاقدي الشهية في عيادات اضطرابات الأكل يُجبرون على تناول الطعام، مما يجعلهم أحياناً يُصابون بشره مرضي، وأن الكثيرين منهم يهربون منها. لم تذكر مديرة البرنامج شيئاً عن هذا، وأسهبت في الحديث عن موظفي العيادة، وعملية التقويم، وخطة العلاج، وصفوف التغذية، وقالت إن معالجة اضطرابات الأكل صعبة، وينبغي إيلاء المرضى رعاية متخصصة لا يمكنهم الحصول عليها إلا في بيئة مؤسساتية فقط. ونصحت بتعرّف الأعراض، وأضافت أن تلقي المساعدة من معالج مدرّب قد تكون مفيدة كجزء من برنامج رعاية لاحق، ثم أشارت إلى كومة من الكرّاسات على الطاولة بإمكان الجمهور الاستفادة منها.

المتحدّث الثاني والأخير كان مؤلف كتاب بعنوان *أنت وابنك واضطراب الأكل*، وهو طبيب بشري، في بداية العقد الرابع من عمره، وجهه مهزول ومتكلّف. بدأ تحقيقه عن الموضوع – كما قال – أثناء معالجته فقدان الشهية الذي أُصيبت به كل من بناته الثلاث تباعاً حين بلغن سن المراهقة. وتكلم عن معايير الجمال، والهاجس الأمريكي بالطعام والحمية، كما تحدث عن صورة الذات وكراهية الذات، وعن شعوره حين عادت بناته من مراكز المعالجة منتكسات بسبب عاداتهن المدمّرة للذات. لم تكن لديه أي إجابات، وألّف كتابه ليقدّم دعماً أخلاقياً لآباء آخرين في مثل وضعه، وليخبرهم أن ذلك ليس خطأهم وأنه لا يمكن مداواة كل الأمراض،

سواء أكانت بدنية أم نفسية. وبوصفه طبيباً، فهذا شيء يمكنه أن يقوله باقتناع؛ وهو أننا ينبغي أن نعيش أحياناً مع حقائق بغيضة.

ركّز النقاش على التناقض الظاهر الناشئ بين الخطابين. فالطبيب يؤكد أن مراكز المعالجة قد خذلته، في حين تلجأ مديرة البرنامج إلى الأرقام: معدل النجاح في عيادتها عالٍ، ومعدل الانتكاس منخفض. قد تنتمي بنات الطبيب – كما قالت – إلى النسبة الضئيلة من الحالات التي تقاوم المعالجة. وشكك الطبيب في أرقام مديرة البرنامج، مستفسراً عن دراسات المتابعة وطرائق جمع البيانات. وخاض الاثنان المعركة بضراوة متزايدة، فيما تابع الجمهور المحتشد من المعالجين والمستشارين ما يجري بشغف كبير حتى النهاية.

بقيت جودي في المكان لتناول القهوة التي شربتها واقفة ضمن حلقة مع زملائها، وهم يحلّلون بمرح التناقض الذي رأوه. شرد ذهنها لوقت قصير وهي تفكر في زيارتها إلى المصبغة، وما لديها في محفظتها. فأخرجته وعرضته على المرأة الواقفة بجانبها، والتي تبين مصادفة أنها طبيبة نفسانية.

"هذه حبوب منوّمة، أليس كذلك؟"

أخذت الطبيبة النفسانية العلبة ونظرت إلى اللصاقة، ثم قالت: "صحيح، إسزوبيكلون" وأعادتها إليها بصمت، وهي لا تزال مشغولة بالحديث العام.

وعندما شقت جودي طريقها إلى خارج المبنى، كانت تحاول اكتشاف ما كان تود يفعله بعلبة حبوب منوّمة وُصفت لناتاشا كوفاكس. لم تكن قد رأت ناتاشا منذ أعوام. ووفقاً لما تعرفه، لم يرها تود أيضاً، وقد تناول العشاء مع دين في الأسبوع الماضي. لكن،

ليس بمقدورها التفكير في وجود أي علاقة بين الأمرين؛ إلا إن كانت ناتاشا قد انضمت إليهما، ولكنه كان سيذكر هذا أمامها.

أثناء رحلة العودة إلى المنزل، استحضرت صورة ذهنية عن ناتاشا المراهقة كما رأتها آخر مرة؛ الفتاة الراشدة غير مهذبة. لا بد أنها مصابة بالاكتئاب؛ الأمر الذي يفسّر تناولها الحبوب المنوّمة، بالإضافة إلى حقيقة أنها الآن في الجامعة. ووفقاً لما تتذكّره جودي، قد تكون الجامعة مجهدة؛ فالدراسة للحصول على علامات جيدة أمر مهم، لكن هناك عوامل إلهاء قوية. إذ تبقى مستيقظاً حتى وقت متأخر مع الأصدقاء، وتشرب الكثير من القهوة، وتقبل كل ما هو غريب، وأخيراً تتوتّر كثيراً وتفقد القدرة على النوم. لم تتذكر دين إلى أن ركنت سيارتها؛ فقد اتصل بها، وهي بدورها حاولت الاتصال به، وقد حان دوره مجدداً لمعاودة الاتصال بها. وعندما دخلت المنزل، تأكدت من هاتفها، ولكنها لم تجد أي رسائل.

فضت غلاف لوحتها ووضعتها على رف الموقد، فأبرز الإطار المذهّب آثاراً ذهبية لم تكن قد لاحظتها في ريش الطواويس. المرأة في الثوب المبهرج فاتنة، لكنها بدت اليوم كئيبة وبائسة، وتركت لديها انطباعاً بأنها وحيدة ومنعزلة، وحتى سجينة، في حديقتها الجميلة. قد يكون الإطار مزخرفاً جداً، وبارزاً جداً بالنسبة إلى اللوحة الصغيرة بموضوعها المركزي الحسّاس.

تعرف جودي أنه بمقدور المرء استعادة رشده بطرفة عين؛ لأن هذا ما تراه دائماً يجري مع مرضاها. لكن، ليس هذا ما يحدث لها. ففي حالتها، يتطوّر الأمر تدريجياً منذ بعض الوقت، ويمكن القول تقريباً إنه بدأ في مستهل اكتئاب تود – حين سلكت الأمور منعطفاً نحو الأسوأ –

ثم مجدداً مع انتهاء اكتئابه؛ وكأنه وجد فجأة سبباً للعيش. حدث هـذا في الربيع أو في بداية الصيف، وكانت سعيدة باستعادته؛ حتى إن بدا شارد الذهن معظم الوقت. لكن الأحداث تتسارع الآن، وتندفع إلى الأمام على نحو مقزّز، وهي تعرف سبب اتصال دين.

خلعت ثيابها وارتدت فستاناً أسود بسيطاً. وحين وقفت أمام مرآة خزانتها، دُهشت على نحو مبهم حين رأت نفسها تبدو جميلة. فبالرغم من أن بشرتها شاحبة، إلا أنها كانت دائماً طبيعية. وكان الناس يعلّقون على ذلك، ويخبرونها أنها ينبغي أن ترى طبيباً. لذا، تلجأ أحياناً إلى مسحوق التجميل لمنح وجنتيها بعض اللون. لكن التناقض مع جلدها اللبني قد يجعلها تبدو مبتذلة، لذا كانت تترك كل شيء على حاله في معظم الأوقات.

رنّ الهاتف حين كانت تنقل محفظة نقودها ومفاتيحها إلى حقيبة يدها، فرفعته وتوثّقت من رقم المتصل. لا يمكنها أن تتحدث إلى دين الآن، فقد حان وقت المغادرة إلى المطعم، وهي متأخرة مسبقاً، وستكون أليسون بانتظارها. لذا، قرّرت أن تتكلم مع دين لاحقاً. لكن رغم اتخاذها هذا القرار حملت الهاتف إلى الردهة، وتركته على الطاولة الصغيرة في أثناء ارتدائها معطفها، وعند الرنّة السادسة أمسكت السماعة وضغطت على زر التكلم.

قالت: "دين، لقد كنت تحاول الاتصال بي

أليسون شقراء ريّانة، بوجنتين تفاحيّتي اللون وعينين زرقاوين تهتزان باستمرار. وكونها قريبة من عمر جودي - كهلة تقريباً - سبب جيد برأيها لتنتعل أحذية ذات كعوب عالية ولترتدي ثياباً تكشف جيدها. وهي مطلّقة مرتين، وقد اعتادت الاستقلالية العملية،

وتعتبر زواجيها قصيري الأمد مجردَ هفوتين ثانويتين في حياتها، هفوتين مؤقتتين ولا مفر منهما؛ مثل طقس سيئ لا ذنب لها فيه، وعاصفتين غير متوقعتين في مياه رائقة.

نادي غارنت هو قاعدة أليسون ونطاقها الاجتماعي. وهي غالباً تقضي يومها فيه جالسة إلى المقصف وهي ترتشف الكولا. الموظفون والزبائن المعتادون مثل أسرة كبيرة بالنسبة إليها، وهي أم بديلة للفتيات اللواتي يتشاجرن بشأن كل شيء؛ جداول الأعمال، الأزياء، الموسيقى، مجالات الاهتمام. يرى رئيس أليسون - مدير النادي - أنها الغراء الذي يثبّت الأشياء معاً، لذا يسمح لها بحريات معينة؛ وهذا ما قد فهمته جودي من كلام أليسون.

الليلة، كانتا ستتناولان العشاء عند *سايتي*، في أعلى برج *ليك بوينت*، حيث تحبان مراقبة الشمس وهي تغرب فوق المدينة. رأت جودي أليسون عبر الغرفة، جالسة آنذاك وهي تحمل كأساً من الشراب، فابتسمت جودي بسعادة، وأدهشتها أليسون - كالمعتاد - بأنها أكبر من الحياة؛ فحضورها زاهٍ مع مقدار كبير من الحيوية. في صف الطهي حيث التقتا، بدت أليسون قائدة بالفطرة؛ إذ كانت تساعد الناس بتقنية السكين رغم أنها لم تتعلّم الطهي من قبل. ومن جانبها، وجدت أليسون أن دفع المال إلى جودي للحصول على نصيحة شيء يثير الإعجاب؛ شيء قد فعلته بنفسها مجاناً دائماً.

سألت جودي وهي تجلس: "هل هذا شراب دكخورن؟"

"كيف تعرفين هذا؟"

"أنت تتناولينه دائماً" ولوّحت للنادل وطلبت كأساً من الشراب نفسه.

"إذاً، كيف حالك يا حلوتي؟" سألت أليسون وهي لا تنتظر جواباً فعلاً؛ فالسؤال مجرد استهلال لنشرة أخبارها. فقالت أليسون: "ستُسرّين لدى سماعك أن كريستال قد انفصلت عن حبيبها؛ فقد استغرق الأمر منها وقتاً طويلاً. وزوجة راي توفيت أخيراً، المسكينة. الوضع صعب على راي، لكنه يستطيع الآن على الأقل المضي قدماً"

تعرف جودي أن كريستال راقصة تعاني من ضعف احترام الذات، وقد سمعت الكثير عن مال كريستال الذي كسبته بجدّها، وطريقة إنفاق حبيبها له. وراي أحد الزبائن المعتادين؛ رجل عجوز تعامله الفتيات مثل حيوان أليف مفضّل لديهن.

قالت أليسون: "لقد سررت كثيراً لكليهما. فهذا يزيح عبئاً عن كاهليهما، حقاً"

وصل شراب جودي، فرفعت كأسها قائلة: "نخب أوقات أفضل لكريستال وراي"

لامست أليسون كأسها بكأس جودي، وتابعت متشوقة إلى مشاطرتها خزينة التفاصيل عن المرض الأخير لزوجة راي ورد فعل حبيب كريستال على الانفصال. كانت جودي تعرف أن راي وكريستال مثل أخ وأخت لأليسون؛ وما يحدث لهما جزء من قصة حياتها. إذ تمتلك أليسون قلباً مثل كتاب مفتوح. ورغم أنها توبّخ نفسها لتطفّلها على حيوات أشخاص آخرين، إلا أن حيوات الأشخاص الآخرين هي كل ما تملكه.

كان المطعم هادئاً أكثر من المعتاد، وكل الإثارة تجري في السماء المتقدة خارج النوافذ؛ حيث الشمس ومع اقترابها من الأفق يصبح تأثيرها أكثر درامية. تابعت أليسون الكلام، و لم تتوقف إلا

حين أتى النادل ليأخذ طلبهما. كان صوتها مُهدّئاً ومسلياً؛ ثرثرة ثابتة وموثوقة مثل المطر المنهمر على السقف. و لم تتوقف عن الكــلام إلى أن مُلئت كأساهما مجدداً، ووُضع طعامهما على الطاولة، ففكّرت في تغيير الموضوع وقالت: "أنت تلتزمين الصمت الليلة"

في الواقع، كانت جودي تقاطعها عادة بأسـئلتها وتعليقاتهـا، ولكنها لم تفعل ذلك الآن. لذا، أومأت مجيبة: "لا بد أنني متعبة"

لم تكن تهتم بكذب تود أو إخفائه شيئاً ما، وإنما انتابها إحساس بأن تعاملها مع تود طيلة تلك الأعوام قد أتعبها حقـاً. في الواقـع، شاطرت أليسون بسعادة كل ما عرفته من دين، لكن النبأ تحرّك بقوة داخلها مثل طائر حبيس؛ مما جعلها تشعر بنوع من الدوار النفسـي. قالت في إشارة إلى البوح المدهش – الحمل، الزفاف، قسوة الخيانـة، حجم المكيدة – "لا أفهم الأمر لكن، فيما كانت تتكلم، بدا لها أن الكلمات وحتى الأفكار خلفها تتشتّت وتفقد كل معنى. إذا كـان ينبغي لها أن تتكلم إلى شخص ما، فمن الأفضل أن يكون أليسون.

سألت: "كيف هي الأمور مع ريني؟" كانت تعرف أن أليسون عندما تبدأ بالكلام عن زوجها الأول، تبدو وكأنها على متن قطار لا يمكنها مغادرته. ريني فاشل، وقد خرج من تحت عبـاءة أليسـون، ومرثاتها تتكرّر غالباً: "أنا مجنونة بذلك الرجل، وسأتزوجه مجدداً إن نضج فعلاً"

ريني من بلدة صغيرة في كيبيك، حيث ربّـاه أب فرنسـي وأم إنكليزية، واسمه الكامل سيلفستر أرماند رينيه دولونغ، وقد قضى مدة في السجن بجرم تهريبه ممنوعات. التقته أليسون في أحد النـوادي في مونريال حيث عملت نادلة في الصيف، وقد اعتـاد أن يـأتي مـع

أصدقائه الدرّاجين ويجلس بجانب المنصة حتى يستطيعوا وضع أوراق من فئة مئة دولار في ثياب الراقصات. وكان يعطي أليسون الإكرامية ذاتها؛ رغم أنها لم تكن إلا نادلة.

كانت المغازلة بين أليسون وريني مرحلة مهمة في حياتها؛ مملوءة بالممنوعات وإقامة علاقة من الغسق إلى الفجر، ورحلات مرح صعوداً وهبوطاً على الجبل بسيارته هارلي. الزواج نفسه دام أقل من شهر، ولم يخبرها أنه كان يرى امرأة أخرى، بل توقف فقط عن المجيء إلى المنزل وتركها تكتشف الأمر بنفسها. لكنه لا يزال يقود سيارته من مونريال ليفاجئها، ولا يزال يحب اصطحابها في نزهة قصيرة.

قالت أليسون: "إنه يحاول دائماً الحصول على مال مني. وهو يعرف أنني أعمل معظم الليالي، لذا يتصل عند الرابعة أو الخامسة صباحاً حين أحاول النوم. طبعاً، إنه لا يطلبه بصراحة، فهذا ليس من شيم ريني، ويبدو كما لو أنه يمنحني تلك الفرصة الرائعة للاستثمار في صفقة يعمل عليها، حيث أضع عشرة آلاف وأحصل على خمسين. إذا كان يتعامل على ذلك المستوى فلماذا هو مفلس؟"

بذلت جودي قصارى جهدها لتبقى متيقّظة وتتابع ما تقوله أليسون، وشعرت كما لو أنها جثمت على قمة شجرة في عين العاصفة.

قالت أليسون: "أحتاج إلى رجل لطيف، وهادئ، وحسن السلوك، وذي دخل جيد. يأتي الكثير من الرجال إلى النادي، ويتعرّفون إليّ طوال الوقت، ويكونون متزوجين. ما الذي يظنونه بي؟!"

احتست أليسون شرابها وهي تنظر إلى طلاء أظفارها عابسة. أخذ النادل أطباقهما الفارغة وتركهما مع قائمتي التحلية.

قالت جودي: "قد يكون الرجل الهادئ حسن السلوك خرافة. بيولوجياً، الرجال سيئون"

فردت أليسون: "أخبريني عن هذا"

قالت جودي: "تحب النساء تصديق أن رجالهن أكثر لطفاً مما هم عليه حقاً. وهن يختلقن الأعذار لهم، ولا يرين الصورة كاملة، وإنما أجزاء في كل مرة، لذا لا يبدون لهن سيئين كما هم فعلاً"

نظرت جودي إلى قائمة التحلية التي وضعها النادل أمامها تماماً. كانت الكلمات تطفو أمام ناظريها؛ كما لو أنها مراكب صغيرة تهيم في مساحة بيضاء. وقالت: "الاختيار صعب"

فقالت أليسون: "أنتِ تحبين كريم الكراميل

فقالت جودي: "حسناً"

"لكننا لسنا مضطرتين إلى البقاء من أجل تناول التحلية إن كنت متعبة"

"نحن نتناول التحلية دائماً"

"لكننا لسنا مضطرتين إلى القيام بهذا. كيف تشعرين؟"

فقالت جودي: "في الواقع، أشعر ببعض الدوار كلمة *الدوار* ليست الكلمة المناسبة لوصف ما تشعر به، لكنها تختزل بشكل ملائم وابلاً من الأعراض التي لا يمكنها أن تعدّدها أو تصفها.

كان اهتمام أليسون بها فورياً وحقيقياً. فقد أشارت إلى النادل، وأعطته بطاقتها الائتمانية، وطلبت منه الإسراع، ثم أمسكت ذراع جودي، وأصرت على إيصالها بسيارتها إلى المنزل.

قالت جودي: "لا تكوني سخيفة، المسافة تستغرق عشر دقائق سيراً على الأقدام"

لكن أليسون تجاهلت كلامها. وعندما غادرتا المطعم، أبقت ذراعها حول صديقتها بنحو وقائي. وحين أحضر الخادم سيارتها شدّت لها حزام الأمان حولها وكأنها طفلة. وعندما أوصلت جودي إلى المنزل جعلتها تستلقي على الأريكة، وأحضرت لها كوباً من الشاي.

سألتها: "أين تود؟"

فهزّت جودي رأسها قائلة: "لا يزال الوقت باكراً"

"ربما ينبغي أن أتصل به"

"لا تفعلي بالله عليك"

" لَمَ لا؟"

"أفضّل ألا تفعلي

فقالت أليسون: "إذاً" وجلست على كرسي بذراعين وأراحت ظهرها إلى الخلف. "ماذا فعل؟"

لم تجب جودي فوراً، فانتظرت أليسون. انقضت اللحظات متوترة، وسمعا خلالها صوتاً بعيداً لماء يندفع عبر الأنابيب، وتكتكة ساعة كينيغر على رف الموقد. قاومت جودي رغبتها في إفشاء النبأ؛ لأنه حتى الآن ليس أكثر من كلمات في رأسها؛ قصة سُردت لها ولا يزال بمقدورها أن تحاول نسيانها.

وقالت أخيراً: "هل ذكرت سابقاً فتاة تدعى ناتاشا كوفاكس؟"

فردّت أليسون: "لا أظن هذا. لا أتذكر

قالت جودي: "جعلها تود حاملاً"

فصاحت أليسون: "أوه، يا إلهي

وبعد شروعها في الحديث، وجدت جودي أن الاستمرار أقل جهداً. "ناتاشا لا تبلغ من العمر أكثر من إحدى وعشرين سنة. وهي ابنة دين كوفاكس، الذي يُعتبر صديقاً قديماً لتود منذ أيام المدرسة"

فقالت أليسون: "هذا مقزّز. كيف يمكنه فعل هذا بك؟!"

"إنه يخطط للزواج بها؛ هذا ما قاله دين

"ليس مضطراً إلى *الزواج* بها. هذا سخيف، يمكنها الإجهاض

ووجدت جودي نفسها ترتقي إلى مستوى غضب أليسون، وقالت: "إنه *يريد* أن يتزوجها. ووفقاً لدين؛ إنه متشوّق للزواج بها"

"حسناً، ربما كان دين لا يعرف ما يتكلم عنه، أو ربما كان الزواج فكرته. وربما هو من الطراز القديم؛ من أولئك الذين يظنون أن الرجل يجب أن يتزوج الفتاة إذا جعلها حاملاً"

"لا أظن أن دين يريد أن يتزوج تود ابنته. أظن أن هذا آخر ما يريده"

"لا بأس. حسناً، دعينا لا نتسرّع. ومن الأفضل أن نعرف القصة جيداً أولاً"

هزّت جودي كتفيها. ليس لدى دين أي سبب يدفعه لخداعها. والطريقة التي نقل لها بها القصة قريبة على الأرجح من الحقيقة كما ستتضح.

وبعد مغادرة أليسون، نهضت جودي عن الأريكة، وملّست شعرها وثيابها، ثم دخلت الحمّام. كانت الملابس التي ارتدتها للذهاب إلى الحلقة الدراسية مجعّدة ومرمية على السرير المرتّب: البنطال *البيج*،

والقميص الأبيض، والسَير الذي كان بلـــون الجســـد، والســـروال الداخلي الفضفاض. وكانت حقيبتها الجلدية من فيندي على الكرسي الذي يوجد تحته خُفّاها من جيمي تشو، واللذان يجثمان بنحو مائل. تأملت ثيابها الجميلة، ما منحها شعوراً بالراحة؛ فهي ليست متشكّكة بمظهرها، لكن قد لا يكون جمالها نضراً كما كان سابقاً. وأي امرأة أصغر سناً منها قد تتمتّع بميزات لم يعد بمقدورها ادّعاؤها بالتأكيـــد. ففي أحد الأوقات، كان بمقدورها ارتداء سروال ليفيز وقميص تائي، وهي لا تزال تستطيع فعل هذا بالتأكيد، لكن هناك اطمئناناً يمنحهـــا إياه ارتداء الثياب الأنيقة.

أمسكت القميص وما تبقى من الثياب، وألقت القطع في ســـلّة الغسيل واحدة تلو الأخرى، ثم علّقت السروال في خزانتها، ووضعت الحذاء في علبته الأصلية وأعادتها إلى الـــرف مـــع علـــب الأحذيـــة الأخرى. كانت عملياً قد أفرغت حقيبة يدها قبـــل أن تـــذهب إلى العشاء، غير أن الحقيبة لا تزال تضم عدّة أشياء، ففتحتها، وقلبتـــها رأساً على عقب، وألقت محتوياتها على السرير؛ قلم الحـــبر الجـــاف، ودفتر الملحوظات الصغير، والإيصالات المتنوّعة، وبعض قطع النقود، وعلبة الحبوب المنوّمة. صدر عن علبة الحبوب – إحدى تلك القوارير البلاستيكية الشفافة ذات الأغطية الكبيرة التي يمكن نزعها – صوت خشخيشة طفل حين تحرّكت قليلاً. فأمسكتها وقرأت الكتابة علـــى اللصاقة: *كوفاكس، ناتاشا. تناولي حبة واحدة (1) وقت النوم؛ عند الضرورة.*

شعرت بأنها أفضل حـــالاً الآن. "عـــدت تقريبـــاً إلى حـــالتي الطبيعية" هذه هي العبارة التي استخدمتها لطمأنة أليسون، وكانـــت

صحيحة تماماً تقريباً. استعادت أخيراً إحساسها بأن الجاذبية تثبّتها في مكانها، والأغراض حولها تحتفظ بشكلها. منهجياً، بعد أن هدأ روعها، شرعت في روتينها المسائي: قلب أغطية السرير، ونفض الوسائد، وترتيب هذا الغرض وذاك. ثمّ بدّلت ثيابها، وأزالت مستحضرات التجميل عن وجهها، ومشّطت شعرها. وبحلول وقت سماعها مفتاح تود وهو يدور في القفل، كانت جالسة على الأريكة بردائها وخفيها، وهي تقرأ مجلة رحلات. انتظرته أثناء تلكّئه في الردهة وهو يتخلّص من سترته ومفاتيحه وقطع النقود التي يحملها، وسمعته يتنحنح ويتمتم بكلمة أو اثنتين بصوت خافت، كما سمعت وقع حذائه فيما كان يقترب، وصوت احتكاك الحذاء بوبر السجادة.

قال لها: "ما زلت مستيقظة؟!"

والتف حول الأريكة ليقف أمامها ويقبّل أعلى رأسها. فأغلقت مجلتها، ووضعتها جانباً، ونهضت على قدميها. هناك شيء ما غريب في وقفته، وأدركت أنه قد رأى اتصال دين ويظن أنها ربما بقيت مستيقظة لمواجهته. وضع يده على كتفها، ممعناً النظر إلى وجهها.

فقالت: "كانت أليسون هنا. فقد تناولنا الطعام في سايتي، وأقلّتني إلى المنزل. كيف كان يومك؟ ماذا تناولت على العشاء؟"

فأجاب: "تناولت شطيرة لحم في *دريك*"

كانت رائحة الشراب والطعام المقلي تفوح منه. كما كان أنفه مرتفعاً وصوته حاد النبرة. أمسكت المجلة التي كانت تقرأها، ووضعتها فوق كومة المجلات على الطاولة الصغيرة. وعندما استدارت، كان لا يزال واقفاً في مكانه ينظر إليها.

فسألته: "ماذا هناك؟"

"لا شيء. سُررت برؤيتك"

"ينبغي أن تُخرج الكلب في نزهة، سأنتظرك"

وعندما عاد، وجدها في المطبخ تحرك قدراً بواسطة ملعقة خشبية فيه أوفالتين. أصبح ثرثاراً الآن، وأراد أن يخبرها عن أشياء مختلفة حدثت في المقهى في سياق الأمسية؛ فتحدّث عن ثنائي يتغازلان ويتماديان حقاً في ذلك، ومجموعة من رجال الدين. كان هناك نوعٌ من الاجتماع الديني في مقهى الفندق. كما تكلم عن الحادثة المؤسفة في الصباح - ضياع المفتاح - وضحك بشأن مزاجه السيئ. وقال مشيراً إلى البوّاب: "إنه رجل مسكين، ولكنه غادر بسرعة كبيرة؛ حيث يظن المرء تقريباً أنه كان ينتظر عذراً للقيام بذلك"

وضعت أربع شرائح خبز في آلة التحميص، ثم ضغطت على الزر. وتابع تود الكلام، فيما استجابت آلياً بإيماءات وتمتمات، ولم يبدُ أنه لاحظ أنها لا تصغي فعلاً. وعندما أصبح الخبز المحمّص جاهزاً دهنته بالزبدة، ووضعت عليه مربّى الفراولة، وقطّعته إلى مثلثات، ثم رتّبتها على طبق، ووضعت الطبق على سطح الطاولة. ألقى أحد المثلثات في فمه، وقام بجولة في الغرفة، ثم عاد وأمسك بالطبق وتابع المشي.

وقال: "ألم تتكلمي مع دين اليوم، ربما صدفة؟"

فقالت: "دين! ولماذا سأتكلم معه؟"

"من دون سبب"

فقالت: "يمكنني تحضير المزيد من الخبز المحمّص

غير أنه قال: "دين وغد، وآمل أنك تعرفين هذا"

اقترب من الاعتراف على نحو خطر، وشعرت بالارتياح حـين انتقل ووقف قرب الموقد، وركّز اهتمامه علـى الصـورة المـؤطرة حديثاً على الرف.

وقال: "هذه هي الصورة فعلاً. التفاصـيل في هـذه الأشـياء استثنائية"

"هل أعجبك الإطار؟"

"الإطار! لم ألحظه" وضحك. "عمل جيد، لقد أعجبني"

وعندما عاد بطبقه الفارغ، وجد كوبـه مـن الأوفـالتين في انتظاره. لم يكن ساخناً جداً، فابتلع نصفه في جرعة واحدة.

وقال مستعداً للشجار: "أنا أحبك كما تعرفين"

كانت واقفة عند حوض غسل الأطباق وتغسل القدر والملعقـة الخشبية، فردّت وهي تنظر إليه من فوق كتفها: "هذا رائع. كيـف وجدت الأوفالتين؟"

"جيد" ووضع الكوب على شفتيه وأفرغه في جوفه غير مبالٍ.

"أعطني إياه" ومدت يدها.

التف حول نضد المطبخ وأعطاها الكوب. وفيما كانت تغسله تحت الصنبور، وقف خلفها، وطوّق خصرها بذراعيه وقال: "أنـت أكثر من رائعة لي"

عندما استيقظت وجدت نفسها على الأريكة، وانقضى بعـض الوقت ريثما تذكرت سبب وجودها هناك. ثم شعرت بلحظة فـزع متزايد. ففي الليلة الماضية، بعد أن نزعت ثياب تود ووضعته علـى حافة السرير، ودفعته إلى الخلف ورأته وهو ينهار مثل قطعة لحـم لا حياة فيها؛ فمه رخو وعيناه مغمضتان آنذاك، وبعد رفعها قدميه عن

الأرضية، ومحاولتها الفاشلة في دفعه إلى المكان الملائم، غطّته بلحاف وتركته هناك؛ مستلقياً على الفراش بشكل أفقي.

إحدى عشرة حبّة؛ ذلك هو عدد الحبوب التي كانت في القارورة؛ الأقراص المدوّرة الزرقاء التي تبدو مثل أزرار على ثوب طفل. أخرجتها إلى يدها، وعدّتها حين ألقتها واحدة تلو أخرى في وعاء السحق. امرأة تطحن حبوباً منوّمة في وعاء في مطبخها، وتخلط المسحوق الطباشيري الناتج في شراب يتناوله زوجها وقت النوم قد تحظى على الأرجح بالكثير من الاهتمام السلبي، وقد تصنع لنفسها اسماً معروفاً. لكن، ليس ذلك ما كانت تفكر فيه آنذاك، وإنما فكرت في أنها قضية شيء عادل وملائم ينبغي فعله. فقد كانت الحبوب في جيبه، وهو مهمل كفاية ليتركها هناك، وبدا من الصواب أن يكون الشخص الذي يتناولها، وإذا هضم الحبوب فستختفي، وفي أثناء العملية سيُسوّى الحساب بينهما.

لسوء الحظ، فشلت في ملاحظة الجرعة التي ينبغي تناولها. وقد فات الوقت الآن للتوثّق منها؛ لأن المعلومات اختفت. فقد كُشطت اللصاقة ورميت في المرحاض، والقارورة نفسها أُلقيت في القمامة مع باقي نفايات الأمس. لم تكن معرفة ذلك لتفيد بشيء؛ لأن لا فكرة لديها عن الجرعة التي يمكنها قتله أو الكمية التي ينبغي أن يشربها أو تأثيرها فيه بعد احتسائه الشراب. عادت بتفكيرها إلى الوراء، ورأت أنه لم يكن بمقدورها التفكير بتعقّل، وأنها أقدمت على مخاطرة كبيرة من دون حتى أن تتوقف قليلاً للتفكير فيها.

أدركت أنها كانت تحت تأثير شغف *الاحتفاظ بسجلات*؛ وهي عبارة يستخدمها مستشارو الزواج لتوبيخ عملائهم على احتفاظهم

بسجل جارٍ عمّن فعل ماذا ولمن؛ ما يتناقض مع روح التسامح التي يُفترض بها أن تغذّي أي علاقة صحية. التسامح - بالطريقة التي تراه فيها - رائع، لكنه ليس عملياً ودائماً. ومن دون بعض الانتقام الخفي لموازنة الأمور، وبعض الثأر السري للتخلّص من الشعور بالظلم، ستحترق معظم العلاقات - بما فيها علاقتها - بالتأكيد في لهيب الاستياء.

المهم أن إحدى عشرة حبة لم تبدُ لها آنذاك - ولا تبدو الآن - عدداً كبيراً. ربما كان الشراب ما جعله يفقد وعيه. ولكنه رجل ضخم، ويمكنه أن يتحمّل الكثير. النتيجة الأكثر احتمالاً؛ النتيجة المرجوة - وينبغي ألا تنسى أن والدها صيدلاني - هي أنه سيفيق عاجلاً أم آجلاً.

متفادية غرفة النوم والحمّام الملحق بها، استفادت من فسحة التزيّن قبالة الردهة. كانت لا تزال حافية، وترتدي رداء نومها. وشغلت نفسها بفتح الستائر والمصاريع، وطي بطانياتها، وضرب وسائد الأريكة حتى استعادت شكلها الطبيعي. وبعد أن قدمت للكلب فطوره وجلست إلى طاولتها لتتوثق من دفتر يومياتها وبريدها الإلكتروني، وجدت أن برغمان قد ألغت موعدها، ما يترك فقط ماري ماري؛ أول مرضاها اليوم. هذا حظ جيد؛ لأنها لا تريد أي إزعاج أثناء وجود المرضى لديها. وإذا كان سينهض ويترنح في الأرجاء، فلن يفعل هذا قبل الحادية عشرة، وبحلول ذلك الوقت ستكون ماري ماري قد غادرت.

وعندما لم يعد من الممكن تفادي غرفة النوم، دخلتها مثل حيوان حذر؛ أنفها وأذناها على أهبة الاستعداد في العتمة. بدا الهواء

الراكد مثل نغمة شاذّة تداعب قفا حلقها، وتُقحم في ذهنها الفكرة المرعبة بأنه قد يكون نجا من الحبوب والشراب، ولكنه اختنق حتى الموت بسبب قيئه؛ فقد سمعت أن ذلك يحدث. وإذا كان يتنفس، فهو يفعل هذا بصمت. توقفت قرب السرير، وأمعنت النظر إلى الانتفاخ تحت الأغطية، الكتلة الألبية المرعبة، ومما يمكنها رؤيته، لم يكن شكله قد تغيّر منذ أن نظرت إليه آخر مرة قبل ثماني ساعات تقريباً.

لبست ثيابها بسرعة، ونظفت أسنانها في الحمّام، ثم عقدت شعرها إلى الخلف، ووضعت القليل من مستحضرات التجميل كما تفعل نهاراً؛ الماسكرا، وطبقة رقيقة من مسحوق التجميل. كان وجهها المنعكس على صفحة المرآة يبدو لطيفاً، ونضراً، وجميلاً إلى حد العتب. وعندما مرت عبر غرفة النوم مجدداً، راقبت قليلاً، وانتظرت إشارة أو دلالة عمّا سيكون عليه اليوم، لكنها لم تتلقَّ أي علامة.

تحتوي الخزانة في الردهة مقوداً للكلب، ووجدت هناك أيضاً حذاءها "نايكي وسترتها. هبطت برفقة فرويد بالمصعد إلى ردهة المبنى، حيث لوّحت للبوّاب، وحيّت جارة كانت تدخل المبنى أثناء خروجها. شعرت بالراحة لوجودها تحت السماء الواسعة، وتنفّسها الهواء النقي المنعش. والآن فقط، حين تخلّصت من إحساسها بالضيق، لاحظت أنها كانت تشعر به يتسلل إليها مثل مجرم في منزلها. على الأقل، ليست هناك عودة إلى الشعور بالغثيان أو الدوار كما حصل في الليلة الماضية؛ أو مهما يكن. وذلك شيء جديد عليها؛ شيء لم تهتم به حقاً.

سلكت طريقها الصباحي المعتاد، ومشت على طول الساحل إلى الرصيف، ثم عادت عبر متنزه غيتوي. كانت السماء رمادية والبحيرة خضراء وفق تدرجات لونية متباينة، لكن الهواء المنعش وساقيها النشيطتين منحتها الإحساس بالحياة مجدداً. وعندما عادت إلى المنزل وهي تحمل قهوة بالحليب، فتحت بحذر باب غرفة النوم. ومن دون أن تتجاوز العتبة، حدّقت بإمعان إلى العتمة. وممّا تمكنت من رؤيته، لم يكن أي شيء قد تغيّر.

ماري ماري فتاة في الثانية عشرة من عمرها أرسلها والداها إلى جودي؛ لأنها عنيدة ومتمرّدة. وهي تحب جلسات علاجها التي تسمح لها بالخروج من المدرسة، وتجعلها تشعر بأنها مميزة، وتؤكد أنها وقحة ومتطفّلة. تعاني الطفلة من مشكلة عدم وجود حدود. وإذا كانت هناك مشكلة مع تود، فستدس ماري ماري أنفها فيها بالتأكيد. اعتبرت جودي نفسها محظوظة حين بقي تود ساكناً، فقد جاءت الفتاة وذهبت من دون أي مشكلة.

وقفت على الشرفة لتصفّي ذهنها وتفكّر في وضعها. عندما كانت مع ماري ماري، أزَّ هاتف تود في مكانه على الطاولة خلف باب غرفة النوم المغلق؛ حيث تركته في الليلة الماضية حين أفرغت جيوبه وساعدته في خلع ثيابه. يُبقي تود هاتفه بوضعيه الاهتزاز، وبتذبذبه على السطح الخشبي للطاولة، بدا الأمر كما لو أن هناك عمالاً في المكان يشغّلون مثاقب كهربائية. كان الأزيز عالياً بما فيه الكفاية لإيقاظه - كما تظن - خاصة وأن تود يولي اهتماماً خاصاً بهاتفه. فصوت الجهاز بالنسبة إليه مثل طفل يبكي طالباً من أمّه اهتماماً فورياً. وهو ليس من الأشخاص الذين يتجاهلون رنين الهاتف

عادة ويتقلّبون ثم يعودون إلى النوم، بل إنه يقفز من السرير في الثانية التي يفتح فيها عينيه.

راقبت زوجاً من النوارس ينقض على البحيرة ويخرج منها؛ بعيداً عن التردّد أو المراوغة. فعندما لاحظ الطيران ما يريدانه تحت سطح الماء، انقضا بسرعة عالية، وبقوة وتهوّر. ولا يبدو أن صرخاتهما الجشاء - نسخة النوارس من الضحك الخافت - قد حذّرت فريستهما التي ابتُلِعت كلها قبل أن تعرف ما أصابها.

انتابها الآن حافز للمضي قدماً في يومها؛ وكأن لا شيء غير معتاد يجري. فغض الطرف شيء تعرف كيف تفعله، وهي ماهرة في العمل بمفردها، وتنتظر عادة لترى ما سيحدث. حان وقت تمرينها، وبعد ذلك تتناول الغداء عادة. وهي تتطلّع قدماً إلى شرائح اللحم الصغيرة التي يذوب عنها الثلج في البرّاد. لكن تود عندما يستيقظ سيطرح الأسئلة: "لماذا تركتني أنام حتى هذا الوقت المتأخر؟ ألم تظني أن هناك خطباً ما؟... وفي حال لم يستيقظ فستأتي الأسئلة من أشخاص آخرين؛ من مساعدي الأطباء، والشرطة. ينبغي أن تحضّر في ذهنها ما ستقوله إذا وجدت نفسها في موقف محرج؛ أي قصتها، وكيفية تفسيرها سلوكها، وحقيقة أنها لم تفعل شيئاً، لا شيء إطلاقاً، حين فشل حبيبها في مغادرة السرير في الصباح. يمكنها أن تسمع منذ الآن بعض أفراد الشرطة المقدامين يقولون لها: *سيدة غيلبرت، زوجك مات قبل ست ساعات - أو ثماني ساعات أو اثنتي عشرة ساعة - من اتصالك بالنجدة*. وسيبدأ كل شيء من هناك: *ألم تظني أنه ينبغي لك أن تلقي نظرة عليه على الأقل؟ ألم تدركي ما حدث؟ ألم يخطر*

بالك أو يتبادر إلى ذهنك احتمال أن يكون زوجك مريضاً، أو يعاني ألمًا، أو فاقد الوعي؛ أن يكون ميتاً يا سيدة غيلبرت؟!

فاقداً الوعي؛ راحت تفكّر، *قد يكون فاقداً* وعيه. وفي أعقاب تلك الفكرة، جاءتها فكرة أخرى أكثر سوءاً؛ فكرة أن يكون في غيبوبة، وهو احتمال أفلت منها بطريقة ما حتى هذه اللحظة. ومثل متطفّل، تسلّل تعبير ضرر *دماغي* إلى فسحتها الذهنية، ومعه رؤية تود كإنسان نباتي، لا يعيش ولا يموت، ولا يخص أحداً؛ حتى نفسه، لكنه يحتاج إلى الرعاية، فيقوم أشخاص بإطعامه وغسله وتدليكه وجعله يجلس ويستلقي، مع تحول الأيام والليالي إلى شهور وأعوام، وبقاء ولاءاته - إلى جانب ممتلكاته - معلّقة. وحتى في تلك الحال، ستبقى هناك أسئلة. وقد بدأت تشعر أن أمرها قد اكتُشف وستُحاكم، وأن كل حركة منها تُسجّل لتستخدم ضدها. ولم يرحها أن فرويد بقي يشم باب غرفة النوم كل الصباح. *سيدة غيلبرت*، حتى *كلبك* عرف *أن هناك خطباً ما*.

6

هو

جلس على مقعد المرحاض ومرفقاه على ركبتيه، ووجهه بين يديه، وهو يتبوّل بسيل نتن. هذا كل ما أمكنه فعله ليبقى مستيقظاً. فكّر في القهوة، ورائحتها وطعمها، ودفعه هذا من المرحاض إلى الدُشّ، حيث أدار صنبور المياه الباردة. سبّبت له القطيرات الجليدية ألماً مبرّحاً، لكنها لا تُقارن مطلقاً بالثاقب العامل في رأسه. رفع وجهه نحو الرذاذ، وأدخل بعضه في فمه، وتغرغر وبصقه، ثم نخع بعض البلغم وبصقه أيضاً.

وعندما أنهى تجفيف جسده، وقف عند المغسلة ليحلق ذقنه، فوجد أن أصابعه خدرة وغير رشيقة باستعمال الشفرة. راودته فكرة أنه قد استغرق في النوم كثيراً، وتأكدت الفكرة حين عاد إلى غرفة النوم لارتداء ثيابه. لقد استيقظت جودي، ولا بد أن الوقت متأخر أكثر مما ظن. ورغم هذا، لم يتوثّق من الوقت إلا بعد أن ارتدى كل ملابسه ووضع ساعة معصمه.

وجد جودي في المطبخ تخفق بيضاً باستعمال المخفقة، فقال متردّداً: "تتحرّك ساعتي ببطء. لا بد أن البطارية قد فرغت"

فقالت له: "القهوة جاهزة" وملأت كوباً، ومزجت فيه القشدة والسكر، وأعطته إياه.

سألها: "ما الوقت الآن؟ تشير ساعتي إلى الواحدة والنصف"
فأجابت: "إنها الواحدة والنصف من بعد الظهر
فقال لها: "أنتِ تمزحين!"
فأجابت: "هذا هو الوقت"
عندها قال: "غير معقول، كنت سألتقي كليف عند العاشرة"
هزّت كتفيها قائلة: "إذاً، ينبغي أن تتصل به وتخبره أنك أفرطت في النوم" وسكبت البيض في مقلاة تئز وحرّكته باستعمال شوكة.
فقال: "لكن هذا جنوني! لماذا لم توقظيني؟"
"كنت بحاجة إلى النوم"
فقال: "يا إلهي!" وشرب بعض القهوة، ثم ضغط بيده على صدغه وتابع: "لا بد أني كنت مرهقاً حقاً. فأنا لا أتذكر أني أويت إلى السرير"
شعر بموجة تعب، فأخذ قهوته إلى الطاولة التي كانت قد جهّزتها، ووضعت عليها غطاء وشوكة وسكيناً ومنديلاً.
قالت: "لقد ساعدتك على خلع ثيابك. لم يكن بمقدورك حتى خلع حذائك"
قلبت البيض على طبق، وأضافت قديداً وبطاطا من مقلاة كانت تُبقيها دافئة على سطح الموقد. حملت الطبق إلى الطاولة ووضعته أمامه، فأمسك شوكته وقال: "شكراً، أتضوّر جوعاً"
وفيما كان يأكل، شعر بلسانه يعترض الطريق؛ وكأنه جسم غريب في فمه. غير أنه ابتلع الطعام رغم هذا، مغذّياً ضعفه وإرهاقه. كان يود أن ينهار – أن يعود إلى السرير، أو يتكوّر على الأرضية – ولكنه بدلاً من ذلك جلس منتصباً وثبّت قدميه.

قال: "لم أظن أنني شربت كثيراً. ليس أكثر من المعتاد بأي حال"

حاول أن يتذكّر ما جرى في المقهى - وقت وصوله إلى هناك، والمدّة التي أمضاها في المقهى، وعدد الكؤوس التي طلبها - لكن الرياضيات كانت تراوغه. ما يتذكّره حقاً هو مزاجه الاحتفالي. وفي الجو الاحتفالي، يبدو من الممكن أن يكون قد انغماس بالترف.

قال: "أعني، حسناً، ربما أكون قد شربت أكثر بقليل من المعتاد"

"على الأرجح، كنت بحاجة إلى النوم لوقت إضافي"

"قولي هذا لكليف، وستيفاني"

حملت إبريق القهوة إلى الطاولة، وملأت كوبه مجدداً.

"يا للهول يا جودي! لا أفهم لماذا لم توقظيني

فسألته: "هل تنوي التواجد في المنزل لتناول العشاء؟"

فأجاب: "بحالتي هذه!؟"

"سأحضّر لك يخنة رائعة؛ فاللحم يزوّدك بالحديد"

أزّ هاتفه حين كان يتلكأ بجانب الطاولة، فتبع الصوت إلى غرفة النوم، وجعلته رؤية رقم ناتاشا على الشاشة يشعر بالتحسن. فأحد الأشياء التي يتذكّرها فعلاً هو أنها لم تكن تتكلم معه في الليلة الماضية.

سألته: "أين أنت؟ كنت أحاول الاتصال بك طوال الصباح"

"كنت نائماً بسبب تأثير الشراب"

"أما زلت في المنزل؟"

"أكاد أخرج من الباب"

"ماذا قالت؟"

كافح ليفهم ما كانت تعنيه، وشعر بأن ذهنه لا يعمل؛ إذ بدا له كمحرك محروق غارق في بركة وحل.

حثّته على الكلام قائلة: "ربما أنت لا تستطيع أن تتكلم الآن"

فاختلس نظرة إلى الباب المفتوح، وسمع الصنبور يُفتح في المطبخ، فقال لها: "دقيقة فقط"

"إذاً؟ ماذا قالت؟"

"من قال ماذا؟"

تنهّدت بصخب قليلاً، ثم أجابت عن تساؤله: "إلى أي حد هي منزعجة؟ هل ستكون محترمة بهذا الشأن؟"

الحمل، راح يفكّر. *هل وعدها بإبلاغ جودي؟*

فقال: "وصلت إلى المنزل متأخراً، ولم أحظَ بفرصة مناسبة لأتكلم معها"

أراح أحد ساعديه على مزينته، وهي قطعة قديمة كلّفته أكثر مما كان سيدفع للحصول على شيء جديد؛ وسطحها الأبيض مُرقّش ومشقوق، وقال: "تعرفين أنني أحبك"

"حباً بالله يا تود، ماذا حدث بعد أن تَكلّمَتْ مع أبي؟"

"جودي لم تتكلم مع أبيك"

"بلى، لقد فعلت أمس، وأخبرها كل شيء"

"هذا مستحيل!"

"وكيف يكون مستحيلاً؟ لقد حدث الأمر. ما الذي يجري هناك؟ هل أنت بخير؟"

جلس بتثاقل على السرير، وبدأ يتساءل إن كان قد أُصيب بعلّة ما، وقال: "أنا بخير، لا شيء يثير القلق. سأتصل بك في ما بعد"

أنهى الاتصال، واتضح له أن هذا نموذجي في حياته مع جودي؛ المظاهر العنيدة، فجوات الصمت، المضي قدماً على نحو أعمى. كان ينبغي له أن يعرف هذا. لكن الغريب في الأمر وغير المألوف أن هذا لم يخطر بباله مطلقاً. يحتد أزواج آخرون ويتكلمون بصوت مرتفع، ويصرخون، ويتشاجرون أحياناً، ويحلّون مشاكلهم. لكن، في ما يتعلق به وبجودي كل شيء رياء؛ أي نصب واجهة، والتغاضي عن المشاعر، وعدم النبس بكلمة، والتصرّف كما لو أن كل شيء بخير وسيكون على ما يرام. ميزة جودي الرائعة هي صمتها. وقد أحب هذا فيها دائماً؛ أحبّ أنها تعرف كيف تتدبّر شؤونها، وتُبقي خططها سريّة، لكن الصمت سلاحها أيضاً. إنها مثال المرأة التي ترفض الاعتراض، والتي لا تزعق وتصرخ؛ وتوجد قوة في هذا الأمر ونفوذ. إن الطريقة التي تجاهلت بها عاطفتها، وعدم قيامها بلومه أو التشاجر معه منحاه سبباً للإعجاب بها أكثر. وهي تعرف أن رفضها يتركه وحيداً مع خياراته، لكنه يرى أنها تعاني من جرّاء ذلك.

إنه يفهم معنى المعاناة؛ فقد تربّى كاثوليكياً. وما يفهمه هو أن الحياة تنطوي على معاناة، ولا يمكن أن تخلو منها؛ لأن كل شيء موجود في الحياة. الحياة فسيفساء من كل شيء، وليست هناك حدود واضحة أيضاً. وفي فسيفساء الحياة تتداخل الأمور؛ لأن لا شيء يسلك مساراً محدداً. فعلى سبيل المثال، كان أبوه يحتقره، وتلك حقيقة مفترضة. لكن، انقضت أوقات أمضاها مع أبيه بإمكانه أن يفكر فيها حتى الآن بأنها شيء مثل السعادة. فبعد ظهر أحد الأيام، ذهب إلى المطار برفقة أبيه، وشاهد الطائرات وهي تأتي وتذهب، وكان في السابعة أو الثامنة من عمره في ذلك الوقت، وقد أحب

رؤية الهياكل الدائرية للطائرات الضخمة وهي تتحرّك بتثاقل على الأسفلت، ثم تقلع برشاقة ومن دون جهد، وأشعة الشمس تومض على أطراف جناحيها. أراد طوال أعوام بعد ذلك أن يصبح طيّاراً، وشجّعه والده على ذلك، وأخبره أنه بمقدوره أن يصبح ما يريده، وبدا آنذاك أن هناك شيئاً ما بينهما مثل الحب؛ الحب الممزوج بأشياء أخرى طبعاً؛ مما يعيده إلى مبدأ *أن لا شيء في الحياة يسلك مساراً محدداً*. كان الرجل العجوز طيباً، وحتى إنه كان مضحكاً ومسلّياً، لكن الظلمة في المركز كانت تتسع؛ تتسع دائماً. وعندما يكون أبوك متنمّراً يحتسي الكثير من الشراب، ينتابك إحساس بضرورة تحيّن اللحظة المناسبة، وانتظار اليوم الذي تصبح فيه كبيراً بما فيه الكفاية وقوياً بما فيه الكفاية لتتدخّل. وتتطلّع قدماً إلى ذلك اليوم لتحقق العتق النهائي؛ وهذا ما يتضح فعلاً. لكن هذا ليس كل شيء، فالعبرة هنا مجدداً هي أن الحياة مزيج متنوّع.

حل اليوم الذي بلغ فيه تود السادسة عشرة، وقد أضحى آنذاك طويلاً وضخماً، واكتسب قوة وثقة من العمل بالبناء في الصيف، وحمل أكياس الإسمنت ودلاء القطران. كان يوم أحد في الخريف، وكان بارداً وماطراً. يوم البقاء في المنزل لإنجاز الفروض ومشاهدة التلفاز، فيما الرجل العجوز ضجر، وسريع الغضب مثل لغم أرضي، ويخرج بين الحين والآخر من القبو ليزعج زوجته وينتقدها. استطاع الجميع رؤية العاصفة تتجمّع، وكان الأمر يتعلق بتوقيت ثورتها فقط. لكن هناك دائماً ذلك التفاؤل الضمني؛ الإنكار العنيد بأن الأمور قد تسوء كثيراً. شعرت أمه بذلك أيضاً كما عرف؛ لأنها قالت له وهي تقشّر البطاطا: "سيهدأ بعد أن يتناول عشاءه" لكن آنذاك، عندما

كانوا جالسين ويضعون أطباقهم على أحضانهم ويشاهدون شيئاً على شاشة التلفاز (حلقة من بيوتشلد كما يتذكّر)، ملتزمين الصمت، مدّت أمه يدها بمنديل لتمسح بقعة صلصة عن ذقن زوجها. وفجأة، وجدوا أنفسهم جميعاً، الثلاثة كلهم، واقفين وقد انقلب عشاؤهم، فيما الرجل العجوز يمسك شعرها بقبضته. عندها، تـردد في أذني تـود صـوت صاخب، وصارت رؤيته مشوّشة ببقعٍ سوداء، فهزَّ قبضـته وسـدّد لكمة؛ لكمة قوية وثقيلة وجّهها بكل قوته، ولم يعرف مـن الـذي أصابته في بادئ الأمر. وسرعان ما تكوّر والده من دون تكلّف مثـل كرسي قابل للطي وسقط على الأرضية واستلقى هناك وهو ينزف من أنفه. وفي الأيام التالية، شعر الفتى الذي أصبح رجلاً آنذاك بالأسـى، وازدرى ما آل إليه الأمر بينهما، وكيف أنه لم يعد هناك أب وابـن، وإنما رجلان راشدان فقط تربطهما علاقة قربى مملوءة بغضاً ونفوراً.

الآن، ها هو في المنزل بعد ظهر أحد أيام الأسبوع، في حين أنه ينبغي له أن يكون في العمل. وها هو يجلس على السـرير حـاملاً هاتفه، ومحتاراً مما أخبرته به ناتاشا. جال بصره بتكاسل في أرجـاء الغرفة؛ ملاحظاً ارتفاعها وعرضها ومساحتها الفسـيحة ونوافـذها الطويلة البارزة بلون أزرق فاتح في الجدران. ليس هناك صوت في أي مكان في الشقة، ولا صوت من الخارج أيضاً. وعندما تكون الشـقة على هذا الارتفاع لا يُسمع أي صوت؛ ولا حتى الطيور. لا يمكن أن يكون المكان أكثر هدوءاً، لكنه شعر بثقله يسحبه إلى الأسفل، وبأن روحه محاصرة؛ كما لو أن كلاباً برية تطوّقها.

إنه يفهم المعاناة ويفهم الإخلاص أيضاً. وهو دائمـاً يعـرض خدماته على حبيبته جودي؛ فيجعلها تشعر بالراحة. نعم، لكن ليس

هذا فقط؛ فهو مجامل ومتفانٍ، ويدلّك قدميها لمدة ساعات أحياناً حين يكونان في المنزل معاً ويشاهدان فيلماً، كما يقضي عطلاته الأسبوعية في المطبخ وهو يساعدها في تحضير الحلويات والمربّيات، فيحرّك باستمرار محتويات القدر؛ ذلك المزيج المائي الذي يبدو أنه لن يصبح كثيفاً أبداً. وهي تحب أن يرتدي مئزراً ويساعدها في الأعمال المنزلية، لأن هذا يشعرها بقربها منه، وهذا هو نوع الألفة الذي تتوق إليه؛ أي الصحبة التي تجعلها سعيدة. وهو يفعل ذلك عن طيب خاطر، وحتى بنحو مغالى فيه، وبروح متفانية، وسيفعل المزيد لها إن طلبت منه ذلك. ولكن جودي نادراً ما تطلب شيئاً، وإذا طلبت منه المزيد فقد تكون الأمور أفضل. كانت أمه كذلك أيضاً – لا تطلب – لكن ذلك أفضل؛ لأن أباه ما كان ليستجيب لها. وفي ما يتعلق بالخيانة، كان الرجل العجوز في فئة مختلفة؛ فالخيانة مع القارورة ليست مجرد تسلية، أو ترفيه مسائي، وإنما هي التزام بكل معنى الكلمة؛ إنها عقد أو عهد جعله ينفر من زوجته تماماً ونهائياً. كانت أم تود امرأة هجرها زوجها، وانعزاليتها سديم غلّفه أثناء طفولته.

نهض وأسند نفسه على إطار الباب. هذا ليس تأثير الشراب المعتاد، وربما هو تسمم غذائي ناجم عن شطيرة اللحم التي أكلها في المقهى. لكن، إذا كانت هذه حاله، أفلا ينبغي أن يتقيأ أو على الأقل أن يكون جالساً على المرحاض؟! ولكنه بدلاً من هذا، شعر بأنه يصرخ ويكاد يفقد رشده، ثم يصحو مجدداً. واعياً إلى أنه قد تمالك نفسه، وضع قدماً أمام الأخرى، ووجد جودي على الأريكة. لقد طوت ساقيها تحتها، ولم تكن تقرأ مجلة أو كتاب طهي، أو تتكلم عبر

الهاتف، أو تفعل أي شيء، فجلس بجانبها، وترك رأسه يهبط على كتفها.

وقال: "لقد أفسدت يومك"

"ليس حقاً" وبدت شاردة الذهن، ومنعزلة قليلاً. "سأتسوّق بعض البقالة ثم أبدأ بتحضير العشاء. قد يكون حساء دجاج هو الشيء المنشود"

"لا بد أن لديك خططاً أخرى"

"لا شيء مهم. العناية بك هي الأمر المهم الآن"

"أشعر بأنني ينبغي أن أعود إلى السرير

"و لَم لا تفعل؟ نم هنيئاً، وابدأ غداً بنشاط"

"يبدو حساء الدجاج جيداً، هل ستحضّرينه مع كرات العجين؟"

"أي شيء تحبه"

"ماذا سأفعل من دونك؟ آسف لأنني لست زوجاً أفضل"

فقالت: "لا تكن سخيفاً، أنت مريض وهذا كل شيء. سأعدُّ لك السرير. لماذا لا تستلقي هنا حتى يجهز؟"

7

هي

عندما لم تُسجّل فعلتها الشريرة في المطبخ - الحادثة المنزلية الصغيرة - في التاريخ، واعتبرتها قضية خاصة وعَرضية بينهما فقط، اعتبرت نفسها بريئة منها. كان تعافيه السريع - أصبح بعد أربع وعشرين ساعة سليماً مثل المطر - توكيداً ذا معنى على سلامة غرائزها، فهي لم تظن أن إحدى عشرة حبّة ستقتله، ولم يحصل ذلك فعلاً.

ومع تفاديها الكارثة التي كانت وشيكة، عادت إلى منطقة راحتها، وصار بمقدورها أن تضحك على مخاوفها. ما قاله دين عن الأمر لا يُعوّل عليه بالتأكيد *تقريباً*. هذا ما قرّرته، وتوصلت إلى نتيجة مفادها أن دين غير جدير بالثقة، وهو حالياً على الأقل، ليس بحالته السوية؛ وإنما هو رجل أُرغم فجأة على إعادة النظر بافتراضاته الأساسية عن الحقيقة. فقد تبيّن له أن أقدم أصدقائه مفترس، وأن ابنته ليست فتاة واعية كما كان يظن. لذا، يبدو أمراً مسلّماً به أن يفقد صوابه مؤقتاً. وبالإضافة إلى هذا، لطالما كان دين متهوراً، ويميل إلى التكلّف، ومتعالياً قليلاً. وهي، جودي، أفضل من يعرف تود. والشيء الذي تعرفه بالتأكيد هو أن المنزل مهم له، وأن المنزل يُعتبر

اللحن الإضافي الذي يمنح العلاقة الغرامية روعتها. وأي علاقة غرامية سرية، ومؤقتة، ومن دون التزام، ولا تنتج عنها تعقيدات علاقة طويلة الأمد تكون مغرية. ليست لدى تود أي نية للزواج بتلك الفتاة.

لم تكن ناتاشا تلفت النظر في طفولتها، وقد أفلتت من عقالها بعد وفاة والدها. تتذكّرها جودي بصباغ شفاه أسود اللون، وشعر شائك، وبطن ناتئ، وأظفار قضمتها بأسنانها؛ ويصعب عليها أن تتخيلها كبيرة وجذّابة بأي طريقة. ما جذب تود إليها هو شبابها؛ فهي فتاة بنصف سنّه تهتم به، وهذه هي حال الرجال؛ فهم يتحرّقون شوقاً إلى الطمأنينة. ناتاشا كوفاكس ليست قوة بالتأكيد، أو شخصاً ينبغي أن تحسب له حساباً. وتود لن يبقى معها وقتاً طويلاً، فهذا أسلوبه، والجميع يعرفون أن أفضل عوامل توقّع السلوك المستقبلي هي تصرّفات الماضي.

على الأقل، الأمر الجيد هو أنها متزنة، وناضجة، ومخلصة، ويمكنها جعل زواجها متماسكاً. فالعالم مليء بأشخاص سيئين وغير عاقلين يتولّون زمام الأمور. لذا، لن يكون أي زوجين بأمان. وهي تفعل هذا بإرادتها، وبسعادة؛ مسرورة بكونها العضو العامل في الاتحاد، وصاحبة السجل الخالي من الأمراض العقلية، والتي استمتعت بطفولة سعيدة وأنهتها من دون أن تلحق بها أي أذيّة نفسية؛ وهي واثقة بشأن هذا. في الحقيقة، إنها قادرة وعاقلة، فقد التحقت أثناء أعوام دراستها بصف علاج نفسي، وحازت على شارة معرفة الذات بنجاح.

تعرّفت العلاج النفسي عبر أحد أساتذتها في كلية أدلر، وقد ظن أنها ستستفيد من اكتشافها مباشرة ما يكون عليه الشعور حين تجلس على كرسي المريض، وقال لها إن البحث في نفسها سيعلّمها كيفية

مساعدة الآخرين على فعل الشيء عينه. عرفت أنه لم يقدّم هذه التوصية لكل طلابه، وتساءلت عن سبب اختياره لها؛ لكنها لم تسأل مطلقاً. وقد علمت أن بعض الكلّيات تجعل من صف العلاج النفسي الشخصي شرطاً أساسياً لإنهاء التخرّج. وأن طلاب يونغيان مثلاً، يخضعون لتحليل شخصي صارم أثناء تدريبهم.

بعد الجامعة، عندما كانت تفكر في اتخاذ قرار بشأن قيامها بدراسات إضافية، وقبل أن يستقر اختيارها على كلية أدلر، فكرت في معهد يونغ كأحد خياراتها. فقد أحبّت فكرة يونغ عن التشخيص؛ أي عملية إدراك المرء ذاته، بالإضافة إلى إرثه العرقي والثقافي. وبحسب تعبير يونغيان: طريقة تحقيق الكمال. ينبغي أن يصل الناس إلى توافق بشأن فهمهم للحياة ومعناها؛ بغض النظر عمّا يكون كبارهم قد علموهم إياه. لكنها إجمالاً وجدت مقاربة يونغ مبهمة، وتتصف بنوعٍ من فتنة الصندوق المغلق الناجمة عن اهتمام يونغ بالروحانية والرمزية. أخبرها يونغي مرة أن العيش بطريقة ذات مغزى يعني اعتبارها نفسها مشتركة في دراما رمزية؛ أي تعطيل إنكار لا يمكن أن تحقّقه تماماً أبداً. غير أن أدلر أعجبتها أكثر بوجهات نظرها العملية عن الاهتمامات الاجتماعية وبناء الهدف.

كان المعالج النفسي الذي اختارته - جيرارد هارتمان - خريج أدلر، وعالم نفس استشارياً مثلها، لكنه أكبر سناً منها، ولديه شهادات وخبرة أكثر منها؛ فقد كانت في العقد الثاني من عمرها آنذاك، أما هو ففي العقد الرابع. وصلت في صباح يوم ثلاثاء إلى البناية العالية العتيقة في شارع واشنطن قرب المتنزه في الموعد المحدد عند الساعة العاشرة، وجلست معه في غرفة مكيّفة على نحو سيئ، مما

جعلها تعتاد جلب بضع كنزات - بغض النظر عن الحرارة في الخارج - فبإمكانها أن ترتديها أو تخلعها وفقاً للضرورة. كان الشيء الآخر المهم الذي رافقها إلى جلساتها هو فهمها الأهمية الكبيرة للعلاج النفسي، وهي أهمية تمتد على نطاق واسع عبر مدارس فكرية متنوّعة؛ أياً تكن ومن حيثما تأتي، فأنت تكبر إلى شكلك وصورتك الحالية في حديقة طفولتك الباكرة. بكلمات أخرى، يكون توجّهك في الحياة والعالم حولك - إطارك الوراثي النفسي - محدداً مسبقاً قبل أن تصبح كبيراً بما فيه الكفاية لتغادر المنزل من دون إشراف أبوي. توجّهاتك وخياراتك، وأين تخفق وأين تتفوّق، وكيف تحدّد سعادتك وأين تشعر بالألم؛ كلها تسبقك إلى البلوغ. لأنك عندما تكون يافعاً، في ذاتك البسيطة وسريعة التأثر والنامية، فأنت تقيّم تجاربك وتتخذ وفقاً لهذا قرارات تتعلق بمكانتك في العالم. وتتجذّر هذه القرارات وتتحوّل إلى قرارات أخرى تتحوّل بدورها إلى مواقف، وعادات ذهنية، وأسلوب في تعبيرك عن ذاتك التي حدّدها بعمق وتصميم. وبعد أن فهمت هذا نظرياً أثناء دراستها، صارت مستعدة لمواجهته عملياً في علاجها. وبدا أن هدوءها ورباطة جأشها في مواجهتها هذا *الوضع* انبثقا من تصديقها أن الأمر في حالتها لن يكون مؤلماً؛ نظراً إلى بداياتها الجيدة واستشرافها الصحي.

أُعجبت فوراً بجيرارد الذي كان ضخم البنية، ومن نوع الرجال الذين يتصفون بحجم وكتلة ضخمتين. فرأسه كبير، وقدماه كبيرتان، وصدره وكتفاه عريضة، وطوله مثير للإعجاب. وكان شعره كثّاً، ويبدو كثيفاً وداكناً على رقبته، وظاهراً للعيان على معصميه. كما كانت روائح لفائف التبغ وتنجيد السيارات تفوح منه، روائح

ربطتها بالرجال والرجولة؛ ربطتها بأبيها، وأعمامها. كان جيرارد أحول قليلاً أيضاً، ويظهر مثل راعي أبقار. لكنه كافح ظهوره بتلك الصورة بارتدائه بزّة ووضعه ربطة عنق دائماً وعدم خلعه سترته أبداً؛ غافلاً كما يبدو عن تقلّبات الحرارة في عيادته.

جالسة قبالته في اليوم الأول، نظرت إلى القلم ودفتر الملحوظات اللذين يبقيهما على ذراع كرسيه لكنه نادراً ما يستخدمهما، ولاحظت عادته في منحها كل الوقت في العالم للإجابة عن أي سؤال. فكّرت في أنه يبدو متعباً ومرهقاً؛ وكأنه أجرى عدّة نقاشات صعبة مع مرضاه. لكن ملامحه الحزينة المعتادة دلّت على أسفه على ألمهم، وألمها أيضاً، وأنه مهتم ومتعاطف وموثوق.

كانت الطريقة التي بدأ فيها هي: "أخبريني أول شيء تتذكرينه" فروت له الذكرى التي خطرت ببالها.

"كنت في المستشفى لاستئصال اللوزتين، لكن أمي أخبرتني بهذا الجزء لاحقاً. الجزء الذي أتذكره هو وقوفي على سريري، ونظري في أرجاء الغرفة إلى الأطفال الآخرين المستلقين على أسرّتهم، وشعوري بالذهول حين بدأ أحدهم يبكي

انتظر بصمت فتابعت: "لم أفهم سبب بكاء ذلك الطفل، وأردت اكتشاف الأمر

ولكنه ظلّ ملتزماً الصمت، فقالت أخيراً: "أظن أنني اهتممت باكراً بالعلاج النفسي

جعله قولها ذلك يضحك، وسُرّت لأنه يتمتع بروح دعابة.

طلب معرفة المزيد من ذكريات الطفولة، فذكرت نصف دزينة أخرى من الذكريات، ثم طلب المزيد. كانت تعرف طبعاً مقاربة أدلر

بشأن الذكريات الباكرة، وتعلم أن جيرارد لن يهتم إن كان وصفها دقيقاً أم لا. فبالنسبة إلى خريج أدلر، ذكرياتك ببساطة هي قصصك، وتكمن قيمتها بالطريقة التي تعكس بها مواقفك، وتُعتبر أرضاً خصبة بالنسبة إلى معالج نفسي؛ لكنها لم تطبّق هذا المعيار علـــى نفســـها إطلاقاً. فهي ليست من النوع العاطفي، ولا تحتفظ بتـــذكارات، أو *ألبومات* صور، ونادراً ما تفكر في الماضي. وما أدهشها آنذاك كـــان التموّج العميق للشعور الذي أثارته كل ذكرى معها. لم تكن بـــاقي الذكريات التي تذكّرتها موغلة في القِدم كما ظنّت أنها ســـتكون، أو متحجّرة، وإنما نضرة ولا تزال حيّة وحيوية.

تذكّرت فستان حفلة مقلّماً وذا زركشة مخملية، وأمهـــا وهـــي تستخدم آلة لتجعيد شعرها، وتلك المرة التي التصق فيها لسانها *بدرابزين* بارد، والتواء معصمها بعد سقوطها عن شجرة، وخَبز البسكويت مـــع الجدّة بريت، ووالدها وهو يقرأ لها قصصاً، وشقيقها الأكبر وهو يدفعها على الأرجوحة، وبيت الدمى وألعاب الحجلة والتصفيق مـــع الأطفـــال الآخرين، ومنحها صديقتها سواراً كانت تحبه كـــثيراً، ونـــدمها علـــى كرمها عندما أضاعت صديقتها السوار. وفي مـــا يتعلـــق بالمدرســـة، تذكّرت فتاة جميلة تدعى دارلين أرادت أن تنافسها، وفتاة أخرى تدعى بيبي أجابت بشكل خاطئ عن السؤال: كم يوجد في ثلاثي؟ إذ قالـــت بيبي *اثنين*. جاء مع كل حدث تقييم؛ ما قرّرته في ذلك الوقت: أحبـــت كونها فتاة، ولم تكن لتستفيد من كونها متباهية أو متـــهورة، والرجـــال لطفاء معها، واللعب مع الآخرين ممتع، ولا بأس في أن تكون أنانية عند الضرورة، ويمكنها أن تقلّد أشياء تحبّها في دارلين (وقفتها الرائعة مـــثلاً)، وهي أذكى من بيبي، وتتمتع بفرصة أن تكون متميزة.

استمر البوح في الجلسات القليلة التالية، وأخبرت جيرارد عن دخولها مجال علم النفس، وأنها قد اعتبرت دخولها هذا المجال محتماً؛ لكنها ربما تكون قد ضُلّلت. لقد عُرفت في أسرتها منذ عمر السابعة أو الثامنة بكونها الطبيبة النفسية لسكان البيت؛ فهي الفرد الذي كان بإمكانه تهدئة شقيقها الأصغر رايان الذي يعاني كوابيس، ونوبات غضب، ولوماً للذات. وحين كان ينزف أو يتخبّط في سريره، كان يُقال: "أحضروا جودي"

فكانت تحتضن رايان وتهزّه لينام، أو تشغل ذهنه بدعابات وألعاب، وكانت النتيجة إغداق والديها الثناء عليها؛ وهذا شيء أحبته من صميم قلبها. ولكن تهدئتها شقيقها الصغير لم تكن تشبه مطلقاً العمل مع المرضى على نقاط ضعفهم، ومساعدتهم على التحكّم بغضبهم وغيرتهم ووحدتهم وجشعهم.

قال جيرارد: "نحن نبذل قصارى جهدنا"

"وماذا إن لم يكن أفضل جهودنا كافياً؟"

"إذا عرف مرضاك أنك تهتمين لأمرهم، فذلك نصف النجاح. فالدعم العاطفي بحد ذاته يمكنه أن يفعل العجائب، وبعد ذلك يجب عليك الاعتماد على تدريبك وفطنتك"

"وماذا عن الكفاءة؟ ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار

"إنها مثل أي وظيفة أخرى. فأنت تعملين على هذا الأمر، وتتحسّنين بالممارسة"

ازداد تقديرها لجيرارد مع مرور الوقت، وأصبح المرساة التي تبقيها ثابتة في مياه مجهولة، وبطريقة ما مصدر إلهامها أيضاً. فأضحت إيماءة، أو كلمة، أو إشارة من جيرارد مؤشراً وحافزاً بالنسبة

إليها. كانت نظراته الثاقبة وصوته الرخيم مكائد في مشروع جعلها تتكلم بحرية. وحتى إن الغرفة نفسها بألوانها الباهتة، والضوء المتّسق، والهدوء الذي لا يعكّره إلا أصوات تأتي أحياناً من الردهة أو صدى بعيد لباب يُغلق وإنما مكتوم وكأنه تحت الماء؛ كانت تنشّط ذاكرتها، وتعيدها إلى سنواتها الأولى، وتجعلها تنبض مرة أخرى بالحياة.

ورغم كل هذا، لم تكن توقعاتها عالية، ولم تنتظر الكثير من أي شيء يأتي من عملها مع جيرارد. كانت رغبتها أن تتقبّل الأمر كما هو؛ أي كجزء من تعليمها، ودعامة أخرى من تدريبها، لأنها بالمحصلة لم تكن قد جاءت إلى هذا المكان لأنها تعاني من المشاكل. فعلاً، كانت حياتها في ذلك الوقت بخير على نحو استثنائي. والمريض الذي حطّم ثقتها بنفسها بانتحاره - سيباستيان الشاب - كان تأثيره فيها يتراجع ببطء وإنما بثبات. وفي تلك الأثناء، كانت تمضي مع تود عامهما الثالث السعيد في علاقتهما. وكانا لا يزالان في مرحلة التسكّع الجميلة، ويذهبان إلى كل مكان معاً. لم تشعر من قبل بحب أكبر أو تستمتع أكثر بمباهج الجسد، ولا حتى في عامها الأول في الجامعة، حين مرّت بمرحلة لا يمكنها أن تصفها - حتى آنذاك - إلا بأنها علاقات بدنية صحّية.

وبنحو محتّم، تطرّقت وجيرارد إلى موضوع زواج والديها، وخاصة صمتهما الذي اعتبره كما يبدو أرضية خصبة للنقاش؛ وذلك نظراً إلى طريقته في العودة إليه باستمرار. لكن تلك كانت منطقة قديمة ولا تضم مفاجآت.

جيرارد: ما رأيك في عدم تكلمهما مع بعضهما؟

جودي: أظن أن ذلك كان يجعل الجو متوتراً بالنسبة إليّ وإلى أخي.

جيرارد: هل جعلك تتوترين؟

جودي: أحياناً جعلني أضحك. فعندما كان الضيوف يأتون إلى منزلنا لتناول العشاء، ووالداي يتودّدان إليهم – كما تعرف، اعتماد مبدأ ركّز على الضيوف كي لا تضطر إلى التكلم مع زوجك – كنت أنظر إلى رايان، فينظر إلى الأعلى ويمسك حلقه، فأبدأ بالضحك، وسرعان ما يشاركني الضحك؛ فنجلس هناك ونحن نهتز من شدة الضحك ونحاول ألا نبصق طعامنا. في الواقع، حدث هذا عدّة مرات.

جيرارد: الضحك فيه راحة كبيرة.

جودي: لا أعرف إن كان ذلك شيئاً مهماً؛ أعني ألا يتكلما مع بعضهما. فقد كان الأمر يتعلق بهما بكل وضوح، لكنني لم أرَ ذلك إلى أن صرت أكبر سناً.

جيرارد: وماذا رأيت؟

جودي: ما عرّضها له، وما اضطرّت إلى تحمّله بسبب ذلك. كنا نقيم في بلدة صغيرة، وعرف الجميع بما يجري. أظن أنها شعرت بالإذلال أكثر من أي شيء آخر؛ لأن الناس أشفقوا عليها، كما أحسّت بالضعف.

جيرارد: إذاً، لم يكن والدك مخلصاً وأحسّت أمك أنها ضعيفة. ما كان تأثير ذلك فيك؟

جودي: غريب، تذكّرت أمراً للتو. فقد لحقت به إلى منزلها مرة.

جيرارد: أخبريني عن ذلك.

جودي: كانت زبونة تأتي إلى الصيدلية، وقد لاحظت دائماً ما ترتديه وكيف تتصرّف وما تشتريه: أدوية السعال عادة، وفاليوم. وكان دائماً يعطيها ما تحتاج إليه من الفاليوم، وهي تتأنق دائماً – أحمر شفاه، تنورة، حذاء ذو كعب عالٍ – وبدا كل شيء واضحاً. لم تشعر بالخجل قطّ، ووجدتُ ذلك صادماً نوعاً ما.

جيرارد: تابعي.

جودي: جاءت في أحد أيام الأحد حين كنت هناك أساعده. وعندما غادرت مع مشترياتها، خلع سترة المختبر وطلب مني تولي أمر الصيدلية، لكنني أغلقتها بدلاً من ذلك، وتبعته. أظن أنه حتى ذلك الوقت كان هناك مجال للشك، لكن الأمر بدا واضحاً جداً ومحسوماً تماماً حين رأيته يصعد الدرجات المؤدية إلى منزلها ويقرع الجرس، وحين رأيتها وهي تفتح الباب وتسمح له بالدخول.

جيرارد: هل قلت شيئاً لأمك؟

جودي: وما الفائدة؟

جيرارد: هل تكلمت معه بشأن هذا؟

جودي: لا، فكّرت في القيام بذلك آنذاك ثم فهمت. تلك المرأة كانت أرملة؛ أصيب زوجها في فيتنام، أتى

كرسي مُدولَب وبعد بضعة شهور مات نتيجة تناوله جرعة مفرطة. بدأ أبـي شيئاً ربما يكون قد نـدم عليه لاحقاً، لكنه لم يستطع هجرها.

جيرارد: وأمك لم تتركه.

جودي: كان ذلك سيعني انفراط عقد الأسرة.

جيرارد: لو كنت مكانها، فماذا كنت ستفعلين؟

جودي: إذا كان لدي ثلاثة أطفال؟ أظن أنني كنت سـأفعل الشيء نفسه؛ سأبقى هناك. لكن المرء يـتعلم مـن أخطاء والديه، أليس كذلك؟ لذا، لن أضع نفسـي في ذلك الموقف.

جيرارد: ماذا تقصدين؟

جودي: لن أتزوج، أو أُنشئ أسرة.

جيرارد: تقولين هذا بثقة كبيرة.

جودي: هذا ما أشعر به.

جيرارد: بطريقة ما، يضعك هذا في موقع مـن يـدفع ثمـن أخطائهما.

جودي: أريد أن أتحكم بحياتي، وأكون سعيدة.

جيرارد: السعادة ليست شيئاً يمكن تحديده.

جودي: إذاً، سينتهي أمري مثل أمي؛ لن ألوم إلا نفسي.

لكن مشاكل والديها كانت خاصة بالراشدين، ولم تؤثر كثيراً في حياتها كطفلة. وكان من الصعب أن تحسّن وضـعها في أسـرتها المزدهرة من الطبقة الوسطى بقيمها الجوهرية المتينة من العمل الشاق، واكتساب النفوذ، وروح الجماعة، والتعليم، أو في طفولتها المستقرة

المتوازنة المليئة بالعطلات الصيفية، ودروس البيانو، وممارسة السباحة، والذهاب إلى دار العبادة أيام الأحد، وتناول أفراد الأسرة العشاء معاً. وأثناء ترعرعها، كانت محبوبة ومنضبطة، وتلقى المديح والتشجيع، وأبلت حسناً في المدرسة، وكسبت صديقات وحافظت على صداقتها معهن، وخرجت في مواعيد مع فتيان، وتجنّبت تماماً المرور بأي نوعٍ من المراحل الصعبة. كانت فتاة وحيدة في أسرة تضم ثلاثة أبناء، وهي الثانية؛ بين شقيق أكبر منها وآخر أصغر منها. وفي أحاديثها مع جيرارد، تبين لها أن ذلك قد أفادها أيضاً؛ فقد دُلّلت، ولكن ليس أكثر أو أقل من أي طفل في أية أسرة. كان شقيقها الأصغر هو رايان، أما شقيقها الأكبر داريل فكان أكبر منها بعدة أعوام؛ مما جعله معلّماً لها وليس منافساً.

أحياناً، أثناء عملها مع جيرارد، كانت ميزاتها الممتازة تجعلها تشعر بالحرج، وحتى برغبة في الاعتذار. فالطريقة التي نظر بها إليها (ساخراً على الأرجح)، وعادته في انتظار أن تقول المزيد أو تضيف شيئاً إلى المزيج جعلاها تتداعى وتستجوب نفسها. وقد انقضت لحظات شعرت فيها بأنها كاذبة؛ أو فكّر هو بالتأكيد أنها كاذبة. وأصبح من المقلق بالنسبة إليها أن يشك في أنها تتظاهر وتخفي حقيقة أكثر عمقاً عن نفسها، وتفشل في كشف جانب أكثر حلكة وكآبة من قصتها، وتقاومه وتقاوم العلاج. لكنه لم يقل قط أشياء مماثلة، لذا كان عليها أن تستنتج أن ذلك كله من بنات أفكارها فقط، وأنه ناجم عن انزعاجها البسيط من عملية المعالجة النفسية.

8

هو

في المدة القصيرة التالية، أمسكت ناتاشا بيد تود، وأصرت على أن يرافقها في كل أرجاء البلدة في جولات ونزهات متنوّعة. كان كل يوم يخرج من العمل في ساعة مختلفة عن اليوم السابق، فيزوران طبيبة التوليد، ويبحثان عن شقق للإيجار، ويشتريان أغراضاً للطفل - دمى، عربة، مهداً وخزانة متماثلين - وكان تود يخزّنها في القبو الرطب في مبنى مكتبه نظراً إلى عدم وجود مكان آخر يضعها فيه. فكانت ناتاشا تردّد أن هذا سبب كافٍ ليسرعا في العثور على مكان يعيشان فيه.

في الأسبوع الثالث من أيلول، وقّع تود عقد إيجار شقة فيها غرفتا نوم في ريفر نورث. أعجبت الشقة ناتاشا لأنها مجدّدة حديثاً، وفيها مطبخ خشبي وغرانيتي، وجاكوزي، وأعجبها أيضاً أنه بمقدورهما الانتقال إليها في الأول من تشرين الأول؛ أي في وقت قريب جداً.

وبعد توقيع عقد الإيجار الذي تم في ضحى أحد أيام الأسبوع، أعلنت ناتاشا أنهما يجب أن يحتفلا. لذا، حجزا غرفتهما المعتادة في كراون بلازا، وقام تود بأفضل إنجازاته؛ رغم النبأ الذي تلقاه من

كليف سابقاً خلال اليوم عن وجود تسرب في قبو مبنى جيفرسون بارك السكني. كانا يعرفان بأمر الرطوبة، لكن كليف أخبره أن الأمر أسوأ مما ظنّا، وأن تسرّب الأمس كان بمنزلة جرس إنذار. وعندما استطاع الابتعاد عنها، قاد سيارته إلى الموقع ليرى بنفسه التسرّب على طول الجدار الغربي (حيث يخطط لإنشاء غرف الغسيل) والذي سيصبح أسوأ. مما يعني وجود ثقب رئيس في هامش ربحه، ومما جعل مزاجه معكّراً؛ وخاصة بعد توقيع عقد التأجير اليوم. إذ إن دفع إيجار مسكنين في المدينة نفسها عمل أخرق. لكن، لا خيار آخر لديه. فناتاشا تمسك به مثل ملزمة، والأمور مع جودي لم تنضج بعد. ورغم أن ناتاشا تصر على أن جودي تعرف الحقيقة، إلاّ أنه ليس واثقاً تماماً بأنه يصدّقها. لقد فكّر في التكلّم مع جودي، لكنه عندما يُجري ذلك الحديث في عقله فهو يصل إلى طريق مسدود؛ باعتبار أنه هو نفسه لم يكن قد اتخذ أي قرارات نهائية بشأن مستقبله، وترك جودي ليس بأي حال من الأحوال بنداً ثابتاً على جدوله. تستطيع ناتاشا أن تلحّ كما تشاء، ويمكنها أن تضغط عليه، لكنه سيتخذ قراره في الوقت الذي يلائمه.

غيرة ناتاشا من جودي أمر آخر يستنفد صبره؛ فهي تريد منه أن يتركها وينتقل إلى فندق، وتقول إنه ليس تصرفاً صائباً أن يذهب إلى منزل جودي كل ليلة في حين أنها - ناتاشا - تحمل طفله. والأسوأ أنها أضحت فضولية على نحو مريع بشأن حياته مع جودي، وتريد أن تعرف ما يتكلمان عنه، وما يتناولانه على العشاء، وما يرتديانه في السرير. وكان يخبرها أنه وجودي صديقان، وأنهما لم يُقيما علاقة حميمة منذ أعوام، وأخبرها مرة أن جودي تمنّت لهما

الخير؛ لكنْ يبدو أن لا شيء يُرضيها. تمنى أن تتمالك نفسها وتهدأ، فهو مع جودي منذ وقت طويل، وناتاشا شابة ولا تفهم أثر السنين. وهي نافدة الصبر، وتفتقر إلى الرأي السديد، كما أنها حادة الطباع، وتميل إلى أن تكون عنيدة مثل أبيها.

وهي أيضاً أم بالفطرة، وتريد أسرة كبيرة. وهو يحب هذا، ويكاد يتخيل نفسه أباً؛ الرأس الكريم لذرية من الصبيان والبنات من أعمار مختلفة. ويراهم في خياله مصطفين وكأنهم يستعدون لالتقاط صورة أسرية، وأنيقين ومتكاتفين وهادئين ويحسنون التصرّف. الأهم من ذلك كله أنه يريد تربية الأطفال على الأخلاق الحميدة؛ إذ لا يمكنه تركهم على هواهم. وعندما يكبر أبناؤه بما فيه الكفاية سيعلّمهم حرفاً، ويُريهم المدينة، ويشرح لهم كيف نمت الأحياء بمرور الأعوام، وكيف تغيّرت أسعار العقارات، وكيف يتعرّفون إلى وجود صفقة حين يرون واحدة؛ فتنتقل معرفته المتراكمة إليهم ولا تذهب سدى. إنها حياة مختلفة عن تلك التي يحياها، وتُغريه بطرائق عديدة، لكنها حتى الآن مجرد فكرة أو تصوّر أو احتمال. ينبغي أن تتحلّى ناتاشا بالصبر وتقبل الأمور على حالها لأن لا شيء ثابت، ولا شيء محدّد، ولن يتحرّك إلى الأمام إن لم يُفتح درب واضح أمامه. فهو لن يتخلّى بتهوّر عن بيت أسّسه مع جودي، وعن كل ما قد اشتركا فيه طوال أعوام عديدة؛ فهي محور عالمه. وعندما دخلت حياته – عندما ظهرت منتفخة العينين تحت المطر الغزير عند تقاطع مزدحم – وعندما ساعدته في تجديد قصر بوكتاون، وعندما قرّرت أن تثق به وبقدراته، وجاءت في يوم آخر لتساعده في الطلاء، وتوازنت على السلم ببهاء رائع؛ عندها، لم يرغب آنذاك، وفي أي يوم، إلا في أن

يقطن معها، ببشرتها الناعمة، وهدوئها، وقلبها المفتوح. ومنذ ذلك الوقت، ومع تطور الأمور بينهما، وتعمّق علاقتهما معاً، تغيّر شيء ما فيه، وترسّخت الأرض تحت قدميه، وفقد الإحساس بعجزه عن اتخاذ القرار الصحيح، وبأن أي خطوة يُقدم عليها ستكون خطأً.

في منزل صباه، لم ينتبه أي إحساس بالتوازن مطلقاً، وبدا الأمر دائماً قضية تحالفات ملتبسة؛ فأمه تحميه من أبيه، وأبوه يحرّضه على أمه، مما جعل إحساسه مرتبكاً وولاءه متغيراً. ولقد قضى وقتاً طويلاً مع آل كوفاكس؛ إذ كان يتناول العشاء مع دين وأسرته، وينام لديهم أحياناً. ووجد حضور السيد كوفاكس الدائم إلى الطاولة، وثناءه على تحضير زوجته للطعام، وعدم رؤيته الشراب في يده إلا نادراً أمراً رائعاً. وكانت السيدة كوفاكس تدعو تود لينضم إليهم في المناسبات، وفي أحد الأعوام طلبت منه مرافقتهم في عطلتهم الصيفية – ليرافق دين كما قالت حينها – وكانت لطيفة؛ كما لو أنه يُسديهم معروفاً بدلاً من أن يكون الأمر معاكساً.

وعندما التقى والدَي جودي ذكّراه بالسيد والسيدة كوفاكس. فقد كانا يتمتعان باللمسة الدافئة عينها من الطبيعة الطيبة والودّية، ويسود منزلهما الشعور ذاته برغد الطبقة الوسطى. وعندما جلس معهما لتناول يخنة اللحم البقري وكأس من عصير التفاح، شعر بأن ذلك شيء مألوف له. أعجبته المودّة بين جودي وأمها حين وضعتا الوجبة على الطاولة، والألفة بين جودي وأبيها الذي ضايقها بشأن ارتقائها السريع لسلم النظام التعليمي، واصفاً إياها *بفراو* دكتورة جودي، ما جعلها تتورّد على نحو جذّاب. وشعر بأنه متطفل من طبقة أدنى؛ الحبيب الذي أوقف تعليمه ودخل الحياة الخطرة – وربما

المميتة – لمقاول مستقبلي يشق طريقه بجهد. كان مفلساً، ويفتقر إلى الخبرة والتجربة، وبدا من البديهي أنه لن ينال رضا والدي جودي.

لكن تبيّن أن السيد بريت – وهو رجل مربوع القامة، يضع نظارة ذات إطار أسود، ولا يبتسم حتى عندما يمزح، ومنضبط وحازم مع أولاده؛ وفقاً لجودي – لبق ومجامل، والسيدة بريت لطيفة جداً أيضاً؛ فهي امرأة كريمة وتتصف بالدماثة، وقد استقبلت تود بحرارة كبيرة.

وعندما جلس الجميع إلى المائدة وهم يضعون مناديلهم على حجورهم، قالت جودي: "تود يجدّد قصراً قديماً مهيباً في بوكتاون. حوّله المالك السابق إلى نُزل، وتركه في حالة من الفوضى. يقدّم تود خدمة كبيرة للمدينة؛ إن كانوا يعرفون هذا"

فقالت السيدة بريت: "هل هذا صحيح يا تود؟"

وقال السيد بريت: "يبدو مشروعاً صعباً"

أضافت جودي: "إنه يقوم بكل الأعمال بنفسه، ويعرف كل الحرف ويجيدها حقاً"

فسأله السيد بريت: "ما الإطار الزمني الذي تعمل ضمنه؟"

قال تود: "حسناً يا سيدي، أظن أنني أعمل بأسرع ما يمكنني

وقالت جودي: "إنه ماهر في إنجاز المطلوب بالوقت المحدّد أيضاً"

لم يكن قد كذب عليها تماماً، ولكنه لم يخبرها قط بالحقيقة أيضاً؛ وهي أن قصر بوكتاون يشبه الرمال المتحرّكة، وأن مستنقع الدين يكاد يبتلعه، وسينتهي به المطاف كعامل بناء؛ وهي وظيفة قد اشتغل بها في فصول الصيف أثناء دراسته الثانوية، ثم مجدداً لعدّة أعوام

بعد ذلك. وفي تلك اللحظة الحرجة؛ اللحظة التي ينبغي له أن يتباهى خلالها قليلاً أمام والدي جودي، خذلته ثقته بنفسه تماماً.

قال السيد بريت: "يتطلّب القيام بشيء مماثل شجاعة. لكن الوقت الملائم للقيام بذلك هو الآن؛ في حين لا تزال شاباً وتتمتع بالمقدرة"

قالت جودي لأبيها: "لقد اشتريت الصيدلية حين كنت لا تزال شاباً"

فقال السيد بريت: "كنت وأمك في مثل عمركما الآن"

قالت السيدة بريت: "أسوأ ما في الأمر أن تترك أحلامك تتلاشى من دون أن تكافح من أجلها"

قالت جودي: "أرادت أمي أن تصبح مغنية، فهي تمتلك صوتاً جميلاً"

قالت السيدة بريت: "هذا من الماضي

قال السيد بريت: "إدارتك عملك الخاص هي الطريقة المثلى. لا يهم ما تفعله، ما دمت مدير نفسك"

قال تود متشككاً بكل ذلك الاستحسان: "يهتم بعض الناس بالأمان أكثر

فقال السيد بريت: "سيأتي هذا في الوقت الملائم"

قالت السيدة بريت: "ينبغي أن تبدأ من مكان ما"

سأل السيد بريت: "ما نوع ذاك المنزل؟

فأجاب تود بلطف أنه قد بُني عام 1880، لكنه - بخلاف قصور كثيرة في شيكاغو تعود إلى ذلك العصر - شُيِّد بطراز عهد النهضة القوطية وليس بطراز فيكتوري، ويعد بشعاً في الواقع. وقال:

"يبدو مثل منزل أشباح نموذجي، وقد تحوّل إلى خرابة، وحتى الحديقة في حالٍ يرثى لها، وكلها أنقاض وأعشاب. ينبغي أن أوظّف فلاحاً ليحرثَ التربة"

قال السيد بريت: "يمكنك أن تضع بذور العشب في أي وقت الآن. امنحها وقتاً لتمد جذورها قبل أن يحل الطقس البارد. أو ازرع مرجاً إن كان هذا ما تفضّله، لكن البذور تعطي نتيجة أفضل على المدى الطويل، وهي أرخص ثمناً"

قالت جودي: "ثق بكلامه، فهو يعرف عن العشب"

قال تود: "لاحظت المرج حين دخلنا"

فقالت السيدة بريت: "المرج مصدر فخره وفرحه"

قال السيد بريت: "لا تدع العشب يخيفك، فزراعة العشب كيمياء بسيطة"

لاحقاً، عندما كانت جودي وتود في الخارج يتكلمان، قال تود: "أحببت والديك، فهما لطيفان جداً"

جرى ذلك في أواخر الصيف؛ وقت ذبول الأزهار والأوراق وحلول الغسق ببطء بمهابة. تباطأ ضوء المساء في السماء الغربية حين تجوّلا في الشوارع الهادئة. وتجاوزا ثانوية جودي القديمة، ودار العبادة الميثودية الموحّدة التي ذهبت إليها باستمرار مع أسرتها، ومنازل صديقاتها اللواتي قد كبرن مثلها وغادرن المكان. كانت جودي آنذاك راسخة في حياته، لكن لا يزال هناك غموض بشأنها؛ أصول لم يستطع اكتشافها. وما عرفه حقاً هو أنه لم يكن قد التقى قط فتاة أراد بشدة إثارة إعجابها، وتاق للارتقاء إلى مستوى ثقتها به، وأن يكون الرجل الذي تحتاج إليه وتستحقّه. لذا، عندما مشى بجانبها في

الغسق المتألق، في هدوء خالٍ من حركة السير في مجتمع ريفي صغير تكتنفه نسائم معطّرة، والهواء نفسه غسول مسكّن، شعر أن حياته يمكنها أن تبدأ أخيراً، وأنها الشخص الذي سيهيم به حباً وسيصوّب الأمور.

وبحلول وقت عودتهما من نزهتهما، كانت السماء قد أظلمت ومصابيح الشوارع قد أُنيرت. كانت الخطة تقضي بأن يمضيا الليلة في منزل والديها، وأن يعودا أدراجهما بالسيارة في اليوم التالي بعد الغداء. وعرف أن الزيارة ستكون محتشمة؛ لأن جودي حذرته مسبقاً بأن والديها من النوع قديم الطراز. والتزاماً بالتقاليد، رافقته السيدة بريت إلى الغرفة التي كانت تخص رايان سابقاً؛ أي الابن الأصغر، في حين أن جودي – كما فهم – ستمضي الليلة في غرفتها بجانب الردهة. وجد ذلك محبباً، وحتى جديراً بالثناء؛ فالوالدان يحميان ابنتهما بأفضل ما يستطيعان، على الأقل أثناء وجودها تحت سقفهما. ومثل معظم الآباء، إنهما من دون شك يعتقدان أن ابنتهما الراشدة صغيرة. وعلى مستوى معين، لا بد أنه بدا لهما غريباً مخيفاً قد دخل بطريقة ما مجمّع الأسرة. ورغم هذا، كان سعيداً بقبول ضيافتهما كما هي، وبألا يشغل نفسه بأي شيء. فقد عرف مثلاً أن هناك مشكلة ما بين جودي وشقيقيها؛ فهي لا تتكلم مع الأكبر، وتشعر بالقلق بشأن الأصغر الذي تبين أنه يسيء إلى سمعة أسرته. لكن الشقيقين لم يُذكرا في الحديث العام، ولم تكن هناك أي دلالة على وجود نزاع بين الوالدين.

وبعد بضعة شهور، في أيام الخريف الرائعة حين تزدهي الأشجار بالألوان، ويغمر الضوء القادم بزاوية حادّة المدينةَ بوهج

ذهبـــي – يشعر دائماً في الخريف بضرورة وجود بـــوق يصـــدح– وبعد أن باع قصر بوكتاون وأمّن مستقبله؛ في ذهنه علـــى الأقـــل، وجد وجودي شقة صغيرة في لوب، ودمجا مقتنياهما وحياتيهما.

أراد الزواج بها، ونوى الزواج بها، وفكّر في طرائق لطلب يدها قد تتغلّب على رفضها. قالت له إن كونهما معاً أمر مثـــالي، فلمـــاذا يعبثان بهذا الأمر؟ لكن، بدا له أن بمقدوره إقناعها، وداهـــن نفســـه بقدرته على تجاوز دفاعها. أغراه الالتزام؛ حصن حياتهما معاً، والعهد بضمان مستقبلهما. وإذا لم تحصّن معقلك منذ البداية، فكيف تتوقّع أن يصمد حين تهبُّ العواصف عليه؟ أراد أن يكرّما حبهما، ويحوّلاه إلى شيء أكبر من كليهما.

وفي النهاية، قرّر أن أفضل وسيلة هي أن يفاجئهـــا ببســـاطة، متمنياً أن تذعن فحسب بمزاج عفوي. حاول القيام بهذا الأمر عـــدّة مرات، لكنها لم تأخذه مطلقاً على محمـــل الجـــد. كـــان يقـــول: "لنتزوج"، فتقول له: "هل يمكننا التوقف في الســـوق أولاً؟" كـــان ينزعج قليلاً من تصرفها ذاك، لكن هناك شيئاً يعجبه في عزيمتـــها في الوقت نفسه. وبأي حال، لا يكبر الفتيان وهم يحلمون بيوم زفافهم. كان حصوله على وعدٍ منها – سماعها وهي تقول الكلمات، وتأخذ على نفسها عهداً – سيعني له شيئاً، لكن حبها وإخلاصها لم يكونـــا موضع شك مطلقاً. وهي تخصّه، إنهما يخصّان بعضهما، وهما سعيدان بذلك. رعته بطرائق مدهشة، وجعلت من ترتيبات منزلهما فناً؛ ممـــا خفف عبء الحياة اليومية. وكان ذلك شيئاً جديداً بالنسبة إليه؛ هذه هي مسرّة الحياة المنزلية. فهي موجودة من أجله حين يعود إلى المنزل، وتبدو جميلة، والعشاء الذي تعده شهي، وثيابه نظيفة ومكوية حـــين

يحتاج إليها؛ وهي تفعل كل ذلك من أجله. وجد ذلك لطيفاً جـــداً وفاتناً جداً، وخاف ألا يدوم. لكن كليهما كانا يتمتعان باســـتقرار متأصّل ومدهش. ومع جودي، لا يتعلق الأمر بالجنس، فهي أهم من ذلك بكثير. تمتّعت جودي بقيم جوهرية رائعة، وعرفت ما تريـــده، ومعها يمكن الاسترخاء؛ فلا وجود لبرنامج مستتر، ولا شيء يفاجئه. وهناك صفات لديها أهم من ذلك كله؛ أعمـــاق لم يســـتطع ســـبر أغوارها، ونيران لم تُدفئه، وأماكن خارج متناول يده. إنها جـــوهرة، وكل ما قد يريده الرجل وأكثر.

9

هي

"سيدة غيلبرت"

"نعم"

"ناتاشا كوفاكس تتكلم"

ساد الصمت فيما كانت جودي تفكّر في إنهاء المكالمة. فهي لن تستفيد من إجراء هذا الحديث.

"أرجو ألا تنهي الاتصال يا سيدة غيلبرت"

ماذا يمكنها أن تفعل؟ تساءلت جودي.

فتابعت ناتاشا: "أنا لست كما تظنين، وأرجو أن تصدقيني. ينتابني شعور مريع بشأن ما حدث؛ بشأن ما أقدمت عليه وتود. أظن نوعاً ما أنني أتصل لأقول إنني آسفة، إن كلينا آسفان"

كيف وصلت حياتها إلى لحظة الذروة غير المحتملة هذه بعد أن بذلت قصارى جهدها طوال أعوام عديدة لإنجاح الأمر، ولتكون مفيدة ومجاملة، وزوجة ورفيقة جيدة؛ وغالباً في ظروف صعبة وغير ملائمة؟! فتود ليس رجلاً يسهل العيش معه، لكنها نجحت في القيام بذلك، وجعلت حياتهما معاً متماسكة، وأنشأت حياة هادئة وحافظت عليها؛ حياة مقبولة لكليهما.

تابعت ناتاشا: "أردت إبلاغك أنني أقدّر كل ما فعلته لأجلنا – لي ولأبي – بعد وفاة أمي. وأرجو ألا تظني أنني قد نسيت هدايا ذكرى ميلادي، وحين اصطحبتني لتسوق ثياب المدرسة؛ لقد فعلت الكثير يا سيدة غيلبرت. كنت الشخص الوحيد الذي تدخّل ليملأ الفراغ، ويُحدث فرقاً في حياتي. وأنا أفكّر فيك دائماً بمحبة، ولم أرغب قط –"

لا يمكن أن تسمح باستمرار هذه الثرثرة، ما الذي تفكر فيه الفتاة؟

فقالت: "ناتاشا، أنت تدركين بالتأكيد أن هذا سينتهي على نحو سيئ بالنسبة إليك. ويمكنك أن تتوقفي عن التفكير بأنني معلّمتك؛ فأنا لم أعد أتمنى الخير لك، ولا شيء بيننا لنناقشه"

ورغم هذا، أصرت ناتاشا على متابعة كلامها: "أفهم شعورك. ربما كنت تكرهينني – ولن ألومك إن فعلت – لكن ينبغي أن تنسبي إلي فضل المحاولة؛ إذ لم يكن من السهل عليّ الاتصال بك يا سيدة غيلبرت. لم أعرف إن كنت ستوافقين على التكلم معي؛ رغم ما قاله تود. فقد أخبرني أنك سعيدة من أجلنا، لكن شعوره هذا ربما كان ناجماً عن رغبته في أن تكوني كذلك. فأنت معه منذ مدة طويلة، وأعرف أنك ستفتقدين إليه؛ على الأقل إلى أن تعتادي الأمر. لقد أخبرك أننا قد استأجرنا شقة في ريفر نورث، أليس كذلك؟"

صمتت قليلاً تنتظر رداً، وعندما ظلّ الصمت مطبقاً تابعت: "أنا آسفة إن كان هذا صادماً لك يا سيدة غيلبرت، ولكننا ينبغي أن نؤسس بيتاً لطفلنا. إنها شقة جميلة، وربما ستأتين لرؤيتنا بعد أن نستقر، وسنحب أن تزورينا. ستكونين خالة نوعاً ما"

كانت جودي تمشي أثناء استماعها إلى ما تقوله ناتاشا، وترسم في طريقها رقم ثمانية منحرفاً باتجاه عقارب الساعة؛ حول الأريكة والكراسي التي تواجه الموقد، وأمام جدار النوافذ، وبعكس عقارب الساعة؛ حول طاولة الطعام، ثم تعود مجدداً. غير أنها تسمّرت في مكانها، ما إن سمعت عبارة ناتاشا الأخيرة. وأدركت أن تلك غلطة تود؛ فهو من عرّضها لهذا الموقف، وعارٌ عليه أن يختار هذه الشابة الساذجة والحاقدة جداً، والمضطربة على نحو يائس. قد يكون تود متبلّد الأحاسيس، لكن كيف له أن يترك الفتاة على هواها؟! خاصة وأنها ابنة صديقه أيضاً. المسكينة، لا فكرة لديها عمن يكون تود فعلاً أو كيف يفكّر.

قالت: "ناتاشا، أعرف أن الأمر يتخطّى قدرتك على الفهم، وأنك لا تدركين تماماً ما تفعلينه بهذا الشأن. ما عمرك؟ عشرون عاماً؟ إحدى وعشرون؟ أخبرني والدك أنك ما زلت تدرسين، وقال إنك ذكية أيضاً. لكن، ينبغي لي أن أخبرك أنني لا أحصل على هذا الانطباع بناء على اختياراتك، وبناء على الطريق التي يبدو أنك تسلكينها في حياتك.

بأي حال، لا شيء مما سبق ذكره مشكلتي حقاً. وأنا لا أحبك أو أهتم لأمرك كفاية لأحاول مساعدتك. أنا مشغولة حالياً وينبغي لي أن أذهب الآن. وأحثّك بقوة على عدم الاتصال بي مجدداً"

هناك أوقات – والآن أحد تلك الأوقات – تفكّر فيها أن عدم الزواج من تود ربما كان غلطة. وأحياناً، تجد صعوبة في تذكر سبب رفضها الزواج بحزم؛ إنه رد فعل أكثر من كونه قراراً. إنه بغض ونفور؛ شيء ما على مستوى عميق. لقد أراد الزواج بها، بل وطلب

يدها، فعل هذا أكثر من مرة كما تتذكّر. لكن المرة التي تتـــذكّرها بوضوح، تلك التي بدت مميزة، كانت في أحد أيـــام آب؛ في يـــوم مشمس ومُبهج وقائظ.

كانا واقفين في البحيرة والماء يغمرهما حتى الخصر، يشـــاهدان مركباً شراعياً يبحر مبتعداً. بقيا يراقبانه لوقت طويل، مشغولين تماماً بحجمه المتقلّص ببطء؛ إلى أن أصبح أكبر من نقطة بقليـــل، نقطـــة صغيرة ومبهمة الشكل تطفو على خط الأفق.

قال: "لن تعرفي أبداً أنه مركب شـــراعي إن لم تراقبيـــه منـــذ البداية، فقد يكون أي شيء"

قالت: "إنه صغير جداً، مثل حبة ملح"

"حبة ملح، هذا حجمه تقريباً"

"متوازن على حافة العالم"

"هل ترين كيف يهتز تقريباً؟"

"إنه يومض؛ كأنه يهمهم"

"يستعد للتلاشي

"الاختفاء إلى الأبد"

"سيكون هذا رائعاً"

"مثل رؤية المستحيل

"مثل رؤية تفاعلات كونية"

متشبثين ببعضهما، ومصابين بالدوار نتيجة التوقّع وإجهاد كل منهما عينيه، كانا يبذلان قصارى جهدهما كي لا يَطرِفا؛ خوفاً مـــن فقدانهما اللحظة التي تنهار فيها قوانين الفيزياء ويحدث المســـتحيل؛ المركب الشراعي يختفي أمام عيونهما. كانا لا يزالان رطـــبين بعـــد

سباحتهما، شابين متحابين تظللهما السماء، اختبرا تلك التجربة كما لو أنها شيء مميز؛ لحظة انصهار واندماج احتفالية. وعندما اختفى المركب الشراعي، ولم تكن هناك ثغرة – حتى لحظة واحدة – بين وقت رؤيته لذلك ووقت رؤيتها له، أطلقا معاً صرخة ابتهاج عفوية. وحينها قال لها: "لنتزوج" كانت تلك فكرة حماسية في لحظة حماسية؛ لحظة ستود الآن أن تستعيدها لتعيد التفكير في عرضه.

10

هو

في صباح الأول من تشرين الأول استيقظ تود باكراً، واستلقى على ظهره ممسكاً بطنه، ومتذكّراً تفاصيل صغيرة من حلم شهواني. وعندما تلاشى الحلم نهائياً، انقلب أخيراً على جانبه، وانتقل عبر فسحة السرير التي تفصله عن جودي. كانت تدير ظهرها له، وقد رفعت ركبتيها، فلفّ ذراعاً حول خصرها، وقولب جسده ليتلاءم مع عمودها الفقري المنحني، فصدر صوت خافت من حلقها، لكن إيقاع تنفّسها لم يضطرب. شم شذاها؛ وكان مزيجاً من رائحة شعر نظيف وجلد دافئ، وأغمض عينيه واستغرق في النوم. وعندما استيقظ مرة أخرى، أدرك المشكلة التي يواجهها؛ فقد اندفعت بين أفكاره مثل قصف الرعد.

إنه يوم الانتقال.

رأى الكلمات كما لو أنها كتبت بحروف نافرة على لوحة تومض، أو مثل راية صغيرة في سماء زرقاء، أو مرسومة بعصا على رمل رطب. في الواقع، حاول التوصل إلى قرار من دون طائل. وإلى الآن، لا يستطيع القول إن رأيه قد استقر، لكنه يشعر بزخم مستقبلي؛ بحافز للتحرّر والخروج من منطقة راحته وإعادة تنظيم

حياته. إنه شيء مثل اقتلاع الجذور والانتقال إلى بلد أجنبي، والشعور بأن الناس ينبغي أن يكون لديهم ميلٌ إلى كل غريب، ودافع لإيجاد مكان جديد لأنفسهم. إنه يعرف أن عدم استقراره بيولوجي جزئياً، لكنه يفضّل قصة التجدّد. ويعرف أيضاً أن ما يكاد يفعله يجعله صيغة مبتذلة ومتجولة، لكن رغبة الصفح الذاتي قوية لديه.

لقد أصرّت ناتاشا على أن يحظى بإجازة يوم من العمل، وقد وافق على أن يحضر إلى مقر إقامتها عند العاشرة تقريباً؛ تزامناً مع وصول العمال الذين سيمنحهم أثاثها البالي وأدوات مطبخها شيئاً يبدأون به. فالشيء المؤكد الذي لن يفعله تود هو التشاجر مع جودي بشأن الأغراض المنزلية. فمهما يحدث، لن يحوّل هذا الأمر إلى نزاع تافه. وهو يعرف جيداً أن الانفصال سيكلّفه الكثير، لكن الخوف الذي يشعر به بشأن مستقبله المالي لا يزال غامضاً؛ شبحاً من دون شكل أو مظهر، وقد تفادى جعله ملموساً بالطريقة ذاتها التي تفادى بها أشياء كثيرة؛ مثل الاتصال بمحاميه، أو إبلاغ جودي أنه سيرحل.

سيكون الوضع صعباً الآن، وهو يفهم هذا. ومع اقتراب اللحظة الحاسمة، سيكون الانتظار حتى آخر لحظة ممكنة فكرة سيئة. فعندما يتعلق الأمر بأي نوع من التغيير أو الانفصال، تهتم النساء بالتوقيت كثيراً. لكنْ، من يعرف؟ فقد تتفهّم جودي الأمر؛ فهي دمثة، ولا تنزع إلى الاستئثار أو التسلّط، ولديها طريقتها الخاصة في مواجهة المحن.

نهض من السرير وارتدى ثيابه من دون أن يوقظها. يصعب عليه استيعاب أن هذا يحدث، وأنه لن يعود إلى المنزل الليلة، أو لن ينام مجدداً إلى جانبها في هذه الغرفة المألوفة، وأن حياتهما معاً – التي

تصوّرها دائماً كشيء راسخ مثل التلال – في الواقع قطار يتحرك نحو محطته الأخيرة. حاول تخيّل الشقة المستأجرة في ريفر نورث وفشل في ذلك؛ فهو لم يُمضِ فيها أكثر من خمس عشرة دقيقة، وفي عشرٍ من تلك الدقائق كان يحسم الأمور مع مالكها.

عندما ظهرت جودي، كان لا يزال جالساً إلى الطاولة، ويقلّب الصحيفة الصباحية، ويتناول كوبه الثالث من القهوة.

فقالت له: "ما زلت هنا!"

التوضيح مطلوب. لكن، رغم تلكئه في النظر نحو الساعة، لم تخطر بباله أي فكرة عمّا ينبغي قوله.

سألها: "هل ستخرجين مع الكلب؟"

"نعم، لماذا؟" وأمسكت بالسير المعلق بطوق الكلب بإحدى يديها والمفاتيح بالأخرى.

"سآتي معك"

فعبست وسألته: "ماذا يجري؟"

"لا شيء. أريد أن أتكلم معك فقط"

"أخبرني"

"انتظري إلى أن نخرج"

في المصعد، وقف الثلاثة جنباً إلى جنب بمواجهة الباب: هو وجودي والكلب. ينبغي أن ينتظر شخص مع آلة تصوير في الردهة، مستعداً لالتقاط صورة لهم حين يُفتح الباب، فهذه اللحظة تستحق التصوير؛ مجموعة الأسرة قبل انفراط عقدها، صفائح تكتونية متراصّة سابقاً تكاد تنفصل. كل شيء مختلف عما كان عليه سابقاً، ولا مجال للتراجع. وقد يكون الأمر أسوأ بالنسبة إلى الكلب الذي لن يفهم ما

يجري، وسينام بعين مفتوحة متوقعاً عودته إلى المنزل في أي لحظة. وأثناء توجههم نحو الماء سالت الدموع على وجهه، فلم تعلّق جودي، وربما لم تلحظ ذلك؛ فهي لم تقل شيئاً منذ أن خرجوا، بعد أن قالت إنه يوم مشمس ووضعت نظارتها. لا بد أنها تعرف ما ينتظرها، وخاصة إن كانت قد تكلمت مع دين؛ كما تزعم ناتاشا، وقد اعتبر صمتها مفرطاً وذا معنى؛ عقبة.

تجاوزا مسلك الدراجات الهوائية إلى الحافة العشبية بجانب البحيرة وحرّرا الكلب من طوقه. كانت الواجهة المائية مزدحمة في صباح هذا اليوم، والناس يستمتعون بشمس أوائل الخريف، ويخزّنون الحرارة من أجل الشتاء القادم. وقفت بمواجهة البر المؤطر بخلفية نيّرة من السماء والماء، ورأى انعكاسه على عدستَي نظارتها. كان منخفض الكتفين، وهناك خطي دمع يلمعان على وجنتيه. ورغم تواري عينيها عن ناظريه خلف النظارة، إلا أنه أحس أن مزاجها قد تغير، وأنها تعرف وتفهم بطريقة ما.

قال لها: "آسف"

وقرّبها إليه ونشج في أعلى رأسها، فلم تتحرّك لتقاوم ثقل ذراعيه. تشاركا لحظة أسى مدمّرة، ودفع أحدهما نفسه نحو الآخر بدفء؛ صدراً إلى صدر، وخفقة قلب إلى خفقة قلب؛ معاً كما لو أنهما كيان واحد تحت ضوء الصباح. وعندما ابتعدا عن بعضهما غيّرت موقعها، واستدارت قليلاً، ثم رفعت نظارتها. آنذاك فقط رأى غلطته؛ فهي عصيّة الدمع وعابسة، وحاجباها قريبان من بعضهما، وعيناها تنطقان بشكوكها.

سألته: "ما الأمر؟ ما الذي أردت إخباري إياه؟"

إنه آسف الآن لأنه ورّط نفسه في هذا الأمر. فقد كان من الأفضل لو ترك لها رسالة؛ شيئاً موجزاً وغير حاسم لإبلاغها بالترتيب الجديد. لماذا المواجهة في حين أن تفاديها سيكون ألطف لكليهما؟ فالصدام وجهاً لوجه قاسٍ جداً بالحسم الذي سيترتّب عليه، ولا حاجة إلى بناء جدارٍ نتيجة الكلام، فالكلمات مثل الأدوات؛ تتحوّل بسهولة إلى أسلحة، وتغلق الطريق أمام أي حل. والحياة ليست كلمات، والناس بطبيعتهم تتقاذفهم أمواج التردّد، وتعصف بهم رياح عاتية ومتقلّبة.

قال: "ظننت أنكِ تعرفين، وأنكِ تكلمت مع دين"

لم يتغير تعبير وجهها، وبدت النظرة التي رمقته بها قاسية. فشعر بأنه ينكمش ويذوي من الداخل.

فقال لها: "لا تفعلي هذا، لا تصعّبي الأمر علي. فأنا لم أخطط لهذا، والأمر كله خارج عن إرادتي. فنحن لم نقرر كل ما جرى معنا، *وأنت تعرفين* هذا" شعر بأنه أحمق؛ فهي لم تقل أي كلمة، وقد جعلته يرتبك، فاستدار مبتعداً عنها، ونظر إلى العشب حيث يقذف رجلان قرصاً طائراً بينهما.

سألته: "ما الذي تقوله بالضبط؟"

"اسمعي، أنا آسف، لن آتي إلى المنزل الليلة"

"ما الذي تعنيه بقولك إنك لن تأتي إلى المنزل؟ أين ستكون؟"

فأجابها: "سأنتقل، ألم تكوني على علم بذلك حقاً؟"

"ستنتقل؟! إلى أين ستذهب؟"

"لا بد أنك تتذكرين ناتاشا كوفاكس جعل جملته خبرية وليست استفهامية. "ولكنّ هذا لا يعني أنني لا أحبك"

أدهش النزاع العلني الصاخب الناجم عن ذلك كليهما؛ فقد أبقيا خلافاتهما بينهما طوال أعوام. وأسوأ ما في الأمر أن الجدال كان يتطرّق إلى أشياء هامشية. وكما عرف أن هذا سيحدث، ركّزت جودي على توقيته.

فقد قالت: "لطفٌ منك أن تخبرني، وأنا مسرورة جداً لأنك لم تنتظر وقتاً أطول. إذ لا أرغب بأن أكون آخر من يهنئك"

كره تكلّمها معه بسخرية، وقال: "أنتِ محقة، لقد خذلتك. وأنا مذنب، وقد تسبّبت بفوضى

فقالت: "آه حسناً، هذه مشكلتك. يمكنني أن أقيم حفلة، أو أشتري لك ساعة ذهبية"

"أنا آسف لأنني لم أخبرك في وقت مبكر أكثر

"وما السبب؟ لماذا لم تخبرني في وقت مسبق؟"

"لأنني لم أعرف بنفسي ما سأفعله"

"كنت تعرف أنني سأطردك ولهذا لم تخبرني"

"هذا ليس صحيحاً"

"كنت *سأطردك*"

"نعم، لكن ليس هذا ما كنت أفكّر فيه"

"إذاً، فيم كنت تفكر يا تود؟ أخبرني فحسب. ما الذي كان يجول في ذهنك؟ ولماذا انتظرت حتى لحظة خروجك من الباب لتطلعني على النبأ؟"

"أخبرتك أنني لم أعرف ما أريده. الأمر شائك، والوضع معقد"

"وقّعت عقد إيجار شقة قبل أسبوع. وقّعت عقد إيجار! كم هذا معقّد؟"

"إذاً، كنتِ تعرفين. لقد عرفت طوال الوقت"

"لم أصدّق الأمر، و لم أظن أنك ستمضي قدماً به"

كانا يصرخان، ويقذفان الكلمات عبر الفراغ الشاسع. أراد جزء منه أن يلين ويخبرها أنه ارتكب غلطة شنيعة، وأنه لا يعرف ما كان يفكّر فيه. وهو يفهم أن هذا ما تفكر فيه أيضاً؛ إنه ما تحبه، وربما ما تتوقّعه. فهي تريد أن تكون الغلطة البشعة كلها مجرد زوبعة في فنجان شاي، وأن تنتهي بإظهار الصفح، ولاحقاً بقضاء أمسية في البلدة، وتناول الشراب، والقيام بنزهة على طول النهر تحت ضوء القمر؛ وهذه رؤية سارّة، ويمكنه أن يحقّقها تقريباً.

ومن دون إنذار، أطلقت صرخة وانهالت عليه ضرباً بقبضتين قويتين. كان بضعف حجمها، لذا أمسك رسغيها بجهدٍ لا يُذكر. وجّهت ركبتها نحوه، لكنه أبقاها بعيدة عنه، ومنعها من ذلك. وفي النهاية، تملّصت منه فتركها. كان شعرها أشعث، ووجهها كئيباً، وتلهث، فيما الناس يحدّقون إليهما. نظر حوله بحثاً عن فرويد، فرآه في أجمة قريبة يحفر حفرة كما تفعل الكلاب؛ كَفله مرتفع، وذيله يهتز، وهو مشغول تماماً بما يفعله.

قالت له: "لا بأس. اذهب وأخرج أغراضك. لديك عشر دقائق، ولا أريد رؤيتك حين أعود إلى المنزل"

11

هي

مع ابتعاد نصف الكرة الشمالي عن الشمس، فكّـــرت في الليـــل الطويل والنهار القصير على أنهما عقوبة خاصة بها بنحو انتقائي. كانت الرياح العاتية تعصف بقوة حاملة معها المطر والضباب. وراحت تصـــفر عبر أشجار، وتضرب ألواح النوافذ الزجاجية. وتحوّلـــت الأوراق الـــتي كانت خضراء قبل أسبوع فقط إلى صفراء، وتكدّست على الرصـــيف. بالنسبة إلى جودي، بدت السرعة الكبيرة لهذه التغيرات الجويـــة تفاوتـــاً صارخاً مع الزحف البطيء للوقت؛ فكل يوم ثقلٌ تجرّه خلفها.

في الصباح، عندما فتحت عينيها وخدّها لا يزال على الوسادة، وأنفاسها تتحرّك بموجات لطيفة، كان أول ما رأته هو الكرسي البالي في الزاوية؛ بمقعده العريض وذراعيه المنخفضتين، وغطائـــه القطـــني اللامع، بملمسه الحريري ورسومه الفاتحة والداكنة من أوراق العنب. تابعت النظر إلى الشكل المورق بعيني طفل، وذهنها مشغول بتأمـــل بهيج؛ إلى أن حانت لحظة مواجهتها حقيقة أن الخروج من الســـرير لتبدأ يومها هو الشيء القاسي وعديم الفائدة الذي ينبغي أن تفعله.

الغريب في الأمر هو أن أكثر ما يسبّب لها الألم ليس غيابه البدني؛ فهو في أحيانٍ كثيرة لم يكن يأتي إلى المنزل إلا بعد أن تخلد إلى النـــوم.

وعادة، كان يذهب قبل أن تستيقظ في الصباح. أكثر ما يزعجها هو تخلخل روتينها، وافتقادها إلى الساعات التي كانت تقضيها عادة مستغرقة في قراءة كتب الطهي، ووضع قائمة طعام، وتسوّق مكوّنات، وتطوير أطعمته المفضّلة، ثم هناك عبء الواجبات اليومية التي وقعت على عاتقه دائماً؛ مثل إخراج الكلب في نزهة بعد العشاء، وأخذ سيارتها إلى الصيانة. حتى إن وضع القمامة في المزلقة يبدو لها الآن مثل شيء حزين وشاق ينبغي ألا تُرغم على فعله. طرحت الصحيفة اليومية مشكلة أخرى. فبعد تخلّيها عن عادة طيّها بعناية وتركها له على الطاولة الصغيرة، وجدت أن غيابها يمكنه أن يفاجئها. وكانت أحياناً تقف قرب خزانته، وتعيد ترتيب سُتره. وقد أخرجت في أحد الأيام كل قمصانه التائية من أدراجه، ونفضتها، ثم طوتها مجدداً وأعادتها إلى الأدراج.

تركها روتينها المحطّم من دون أي عمل تؤديه. لكن الأسوأ هو أن معظم ما اعتادت الاستمتاع به لم يعد يجلب لها أي سعادة على الإطلاق. فالخروج في الصباح، والقيام بالإجراءات المعتادة؛ كمداعبة أذني الكلب المخمليتين، وارتداء قميص إيطالي مطرّز، وإغلاق أزرار اللؤلؤ الصغيرة... لم تعد تشعر بأي إحساس لدى قيامها بكل تلك الأمور. والآن، عندما لوّحت للبواب لدى مرورها في الردهة، تخيّلت شفقته عليها وفضوله. إنها الآن من دون شك موضوع أقاويل وتخمينات في المبنى. فجيرانها - كما لاحظت - يعاملونها بطريقة مختلفة. ولم يظهر ذلك في تغيّر نبرة أصواتهم حين يسلّمون عليها فقط، وإنما في الطريقة التي تتلكأ بها أبصارهم على وجهها.

لم يفدها أن دين ترك خُطباً مطوّلة على بريدها الصوتي؛ مكدّساً كربه على *كربها*. وهي تعرف أنه مثلها قد ضُرب على حين

غرّة – فقد أُصيب بإحدى تلك اللكمات الجانبية التي لا تراها قادمة أبداً – وربما خفّ ألمه وتحوّل إلى تشدّق وسخط. لكن ألم دين ليس مشكلتها. طبعاً، في مهنتها يفعل الناس هذا معها طوال الوقت؛ كما لو أنهم يظنون أنها مبرمجة للتعامل مع شكواهم.

أفضل ساعات اليوم هي تلك التي كانت تقضيها مع المرضى. فهي تحب التحدّي الذي تشعرها به غرفة الاستشارات، والتعقيدات التي يجلبها مرضاها إليها؛ ألغاز الحياة، وانهيار خط الدفاع، وتعلّم الثقة، وأمواج المقاومة. بعضهم أكثر انغلاقاً من الآخرين. ولكن عموماً، الناس الذين يتكبّدون عناء المجيء إليها أكثر تحفزاً للتغيير؛ فهم يعانون ألماً عاطفياً كافياً لبذل الجهد. يُخرج مرضاها أفضل ما فيها، فتزداد محبتها لنفسها حين تكون معهم؛ خاصة الآن، مع تداعي عالمها وانهيار تفاؤلها. ومع مرضاها، يمكنها أن تكون صبورة وحنونة ومنفتحة الذهن، فيكافئونها بتقدّمهم، وحركتهم المتقطّعة إلى الأمام، والثغرات التي تُفتح إلى الضوء. قالت جين دو في يوم سابق عن زوجها: "عندما يخبرني بما ينبغي أن أفعله أشعر بالأمان. إذ يعجبني ملاذ التبعية" مدهش! هذه أول مرة على الإطلاق تعترف فيها جين بأزمتها؛ إن ما قالته إقرار صريح بأنه في ما يتعلق بزواجها، هي ليست ضحية وإنما شريكة. وهذه خطوة جريئة على درب تحقيق الذات، وقدّم هذا أيضاً دليلاً على سبب بقاء جين معه، وهو شيء لا تجده جودي محيراً. فهناك أسباب كثيرة لبقاء النساء مع الرجال؛ حتى عندما تيأس إحداهن من محاولة تغييره ويصبح بإمكانها أن تتوقع بثقة الشكل الذي ستتخذه باقي حياتها معه. كان لدى أمها سبب، وكل امرأة لديها سبب.

انقضى وقت اعتادت أن تقول فيه عن تود: "هو نقطة ضعفي، وأنا نقطة ضعفه" قالت هذا لنفسها وأصدقائها بطريقة تبريرية. فتكريس المرأة نفسها من أجل رجل ليس أمراً شائعاً هذه الأيام، وبالتأكيد ليس الطريقة المثلى للمضي قدماً في العلاقة. إذ لم تعد التضحية بالقيم على مذبح الحب تمثّل أيديولوجية، والتسامح أكثر من حدٍّ معين لم يعد مقبولاً على نطاق واسع؛ رغم أنه عندما يلتقي شخصان يومياً، ويستنشق كل منهما طريقة الآخر في الوجود على أنها مقياس الحياة، ستكون هناك تضحيات من نوعٍ ما. لن تكون عند خروجك من العلاقة الشخص نفسه الذي دخلها، وهي لم تفهم هذا الأمر آنذاك، في البداية. عندما واجهته فاعتذر، وذرفا الدموع، وأكّدا مجدداً على حبهما، وفعلا هذا مرة بعد أخرى، لم تحس بنكران الذات الذي يسري داخلها؛ لأنه بالمحصلة تود، وهو غالٍ على قلبها، وحتى إن هذا التمرد غالٍ، وهو طريقته في البقاء صادقاً مع نفسه. لم يكن قاسياً بشأن هذا، أو فظاً مطلقاً، ولا يمكنها أبداً أن تقول عن تود إنه وضيع أو حقود، والعكس صحيح تماماً. فإذا أزعجت تود فسيمنحك فرصة أخرى، وإذا أزعجته مئة مرة فسيمنحك مئة فرصة، لكن تود مصمم وعازم على عيش حياته، وكل ما يمكنها فعله في النهاية هو القبول بهذا؛ رغم معرفتها أنها قد أصبحت نسخة عن أمها. وعلى الرغم من انتقائها خيارات متنوّعة، وعيشها في وقتين مختلفين، وتحذيرها مسبقاً أثناء دراستها علم النفس الذي علّمها أن المشكلة تنتقل من جيل إلى آخر، فإن الأزمة التي تجد نفسها فيها الآن هي تلك التي حاولت جاهدة تفاديها.

شعرت بأنها تكون أفضل حالاً في الأيام التي يكون لـــديها فيهـــا شيء تتطلّع إليه قدماً؛ كصف تنسيق الزهور أو تناول عشاء في الخارج. فمن الصعب أن تكون نكداً في غرفة مملوءة بأزهار قُطفت حــــديثاً، أو محاطاً بغرباء أنيقين في مناسبة اجتماعية احتفالية في مطعم مـــا. كانـــت تبذل جهداً لتنظيم مواعيد عشائها، وتتناوب الخروج مـــع صـــديقاتها بانتظام لتفادي الاتصال بأي منهن كثيراً، وعندما تتكلم عــــن وضـــعها فهي تفعل هذا من دون مبالاة تقريباً، وأحياناً تضحك وتشرب نخــــب قوة الشباب، وتجد أن صديقاتها يرتحن لأنها تتقبّل الأمر جيداً.

ينهار دفاعها مع أليسون فقط. وقد اجتمعت جـــودي معهـــا غالباً – أكثر من المعتاد – لتناول غداء مبكّر قبل مناوبة أليسون، أو عشاء في يوم عطلتها. أليسون هي الوحيدة من صديقاتها التي تعترض حين تخفف جودي من محنتها، وهي الصديقة الوحيدة أيضـــاً الـــتي تعرف حقيقة أنها تنتظر عودة تود إلى المنزل.

"عزيزتي، أعرف أنك تتألمين، لكن لا يمكنك أن تكوني ساذجة بهذا الشأن. راجع الرجل خياراته وقرّر المغادرة. ما تحتاجين إليه هـــو محامي طلاق، وينبغي أن نُبقي سقفاً فوق رأســـك، ونتوثـــق مـــن حصولك على حصة عادلة من المقتنيات؛ بعد قضائك عشرين عامـــاً وأنت تعتنين بالرجل

"لا أظن أن تود سيريد حرماني من حقي

"رجل في ورطته! لن أعتمد على هذا. بأي حال، من الأفضـــل اتخاذ الحيطة والحذر

من المريح أن تعتني بها أليسون، لكنها لا تقبل نصيحتها، ومـــا يجول في خاطرها هو أن الناس الذين يتصـــرّفون وفقـــاً لأهـــوائهم

يرتكبون الأخطاء، ويندمون عليها لاحقاً. ربما ينبغي له أن يعرف أنها ستصفح عنه، وربما هو ينتظر إشارة. وحقاً، عندما تفكر في هـــذا، تعرف أنه لم يحصل ضرر حقيقي، وحتى إن الطفـــل لـــيس تعقيـــداً رئيساً، ولا ينبغي أن يكون كذلك. لن يمضي وقتاً طويلاً معه حـــين يكون رضيعاً، فالرُّضّع يحتاجون إلى أمهاتهم. وعندما يصـــبح أكـــبر سناً، حسناً، قد يكون وجود طفل صغير في المكان أمراً لطيفاً لجعـــل الأمور أكثر حيوية.

12

هو

رافضاً النظر إلى الخلف، دفع نفسه قُدماً وبتهوّر في حياته الجديدة؛ ابتداء من تسوق الثياب بدلاً من تلك التي تركها خلفه. رافقته ناتاشا، وسمح لها بالتأثير في خياراته، وكانت النتيجة أن مظهره أصبح أكثر أناقة وحداثة؛ بمشبك أكبر لحزامه، ومقدّمة مدببة لحذائه. كما تعلم ارتداء قميص تائي مع سترة وجينز، وحملت الثياب الجديدة أسماء مصممين، وقد ناسبته هذه الملابس على نحو أفضل. وقد أعجبته إعادة اكتشافه نفسه واعتياده عليها، وقد ترك شعره ينمو وشذّب لحيته الكثّة. كل ذلك جعله رجلاً أصغر سناً، وأكثر إثارة، ويبدو مثل شخص لا يزال فتياً. ثم هناك المكافأة التي تفوق كل شيء آخر؛ فعندما يخرج وناتاشا معاً لم يعد الناس يخطئون ويظنون أنه والدها.

كانا يقضيان الأمسيات في تناول العشاء، والخروج في نزهات، والتسوّق، وإقامة علاقة. وإذا كانت لدى ناتاشا دراسة، تولّى تود القيام ببعض الأمور مثل غسل الأطباق والملابس. وإذا ذهب تود إلى المشرب فناتاشا تذهب معه؛ رغم أنها تُخرجه من هناك - لأنها حامل ولا يمكنها أن تشرب - قبل أن يبدأ حقاً، مما يعرّضه لسخرية

الرجال، خاصة كليف الذي كان يشير إلى ناتاشا على أنها المديرة. في عطلات نهاية الأسبوع، كانا يضعان غداءهما في علبة ويخرجان بالسيارة من المدينة، أو يتناولان البيتزا ويشاهدان الأفلام، أو يجالسان أطفال أشخاص في المبنى. وكانت ناتاشا تقول إن جيرانهم ينبغي أن يكونوا أصدقاءهم.

قضيا أصيل يوم أحد في الحصول على وشمين متماثلين؛ ضفيرة من أوراق متداخلة، له ولها. جعلت الإبر عينيه تذرفان دموعاً – لم يكن مستعداً للألم – لكن فكرة طقوس الانتقال أعجبته؛ فهذا الأمر استهلال من نوعٍ ما؛ شيء يرمز إلى بداية حياتهما معاً. كان الوشمان فكرة ناتاشا، فالوشوم – كما تقول – دائمة ولا يمكن تعديلها، بخلاف روابط الزواج. لم يكن هذا يعني أنها لا تريد الزواج، وإنما على العكس؛ فقد قرّبت الموعد إلى منتصف كانون الأول. فهو موعد مثالي كما قالت؛ ليس بسبب عطلة الكريسمس فقط، وإنما لأن الحمل لن يظهر عليها كثيراً في ذلك الوقت، وسيبقى فستان أحلامها ملائماً لها أيضاً.

كان يقضي أيام عمله بحيوية وعزيمة كبيرتين؛ فالمشتري الذي كان يتفاوض معه بشأن نُزل متنزه جيفرسون قد وقع العقد، لذا أضحت المسألة الآن قضية إنهاء العمل، ويتضمن هذا الكشف عن الأساس الغربي، وجعل الجدار الخارجي صامداً ضد الماء، واستبدال الممر الإسمنتي الذي سيتضرّر في العملية. اكتشف أن المبلغ المالي الذي كان يعتمد عليه لإنشاء المكاتب الجديد أقل مما توقّع، لكنه الآن يركب موجة تفاؤل، ويشعر أن لديه ناتاشا ليشكرها من أجل كل مباهج الحياة. لن ينسى محنة اكتئابه السابق، فقبل ناتاشا لم تكن الحياة تستحق العيش بالنسبة إليه، والآن روحه المتجدّدة تترقرق

نحو الخارج، وينشأ عن هذا وعد بمستقبل أفضل. كان مقتنعاً تماماً بالخيارات التي أقدم عليها، والدرب الذي سلكه، ونصيحته للجميع ستكون: لا تدع أحداً أو شيئاً يمنعك من عيش حياتك.

كان يعرف أنه سيضطر في النهاية إلى تسوية الأمر مع جودي؛ وهذا شيء لا يتطلّع قدماً إليه. لقد رأى مما حصل مع أصدقائه أثناء انفصالهم ما فيه الكفاية ليتوقع الصدمة في ما يتعلق بدخله وممتلكاته. وما يحتاج إلى فعله الآن هو الاتصال بمحامٍ؛ لأن تأجيل الأمر لن يفيده شيئاً. فحتى الآن، جودي تنفق من مالِه، وبيانات بطاقتها الائتمانية تأتي إلى مكتبه، وتدفعها ستيفاني بالإضافة إلى أجرة الشقة والتكاليف المنزلية الأخرى.

وتذمر ناتاشا المتواصل يدفعه في النهاية إلى التصرف. فناتاشا عنيدة في دفعه إلى إنهاء الأمر مع جودي، وقد عرفت منه كل التفاصيل عن ترتيباته المالية معها، وتخشى أن يستمر الأمر على حاله؛ وكأن شيئاً لم يتغير؛ وكأنه وجودي لا يزالان معاً.

محامي تود - الذي يراه لمراجعة كل التفاصيل في صفقات العقارات - مختص أيضاً بالقانون الأسري. هاري لوغروت رجل في العقد السادس من عمره، وقد خاض ثلاث حالات طلاق، ويعرف ما يعنيه ارتكاب الأخطاء ودفع ثمنها. فقد تزوج زوجته الأولى حين كان طالباً في كلية الحقوق، ورغم أن بصره لم يقع عليها في الأعوام الثلاثين الماضية إلا أنه لا يزال مطلوباً منه إرسال صك شهري لها. وتعيش الزوجتان الثانية والثالثة - إضافة إلى استنزافهما ماله - في منزلين فخمين اشتراهما ودفع ثمنهما حين كان لا يزال متزوجاً بهما. ويعيش هاري نفسه في شقة مستأجرة، ويتضرّع يومياً كي يتوفين: يا إلهي،

أرجوك خُذ شوشانا، أرجوك خُذ بيكي، أرجوك خُذ كيت. لكن شوشانا، وبيكي، وكيت لسن في عجلة من أمرهن لمغادرة هذا العالم.

التقى تود هاري إلى الغداء في بلاكي في برنترز رو، حيث طلبا شطائر شرائح اللحم والشراب. شعرُ هاري فضي ويمشّطه إلى الخلف تماماً؛ كاشفاً عن ملامح بارزة وجبين عالٍ، ويرتدي بزة صوفية رمادية فاتحة وقميصاً بلون الفحم من دون ربطة عنق. تعود معرفة تود بهاري إلى أكثر من عقدين؛ إلى بداية مهنة تود في التطوير العقاري تقريباً، وقد ازدهرت علاقتهما أثناء العمل، لكنهما يحبان القيام بهذا في مطاعم والمقاهي، حيث يمكنهما أن يشعرا بالراحة وينفتحا على بعضهما بعضاً على مستوى شخصي. بالنسبة إلى تود، هاري ذو شخصية أبوية، وخبير بالنطاق الملغّز لقوانين المدينة الفرعية وسياساتها المدنية. وهاري الذي استنفدت حالات زواجه الفاشلة تسامحه تجاه المخاطر، معجب بالجرأة وقدرة التحمّل اللتين حققتا النجاح لتود.

عندما استقرا في المكان لتناول طعامهما وشرابهما، نقل إليه تود النبأ وقال: "لن يعجبك هذا، لقد تركت جودي"

قضم هاري لقمة من شطيرته، ومضغ، وابتلع، ومرّر لسانه فوق أسنانه العلوية والسفلية، ثم شرب من كأسه، وتجشأ بلطف بعد أن وضع يده فوق فمه. وعندما تكلم، كان صوته جهيراً وعميقاً.

"لديك منزل رائع، وزوجة جميلة تحبك، وكل وسائل الراحة التي قد يريدها أي رجل، فضلاً عن حياة خالية - لحسن الحظ - من أي استنزاف مالي تفرضه طليقات يمتصصن دمك ويبغضنك بشدة. وتريد الآن رمي كل هذا جانباً، والانضمام إلى صفوف رجال مخبولين في منتصف العمر مثلي يضعون عقولهم في سراويلهم. خاب رجائي بك

يا تود، فقد ظننت أنك أكثر تعقلاً" وهز رأسه بأسف، وجالت عيناه الزرقاوان الدامعتان في أرجاء المطعم، ثم سأله: "كم عمرها؟"

"كم عمر جودي؟"

"كم عمر هادمة البيوت؟ وأرجوك ألا تخبرني أنك تخطط للزواج بها"

فقال تود: "توقف يا هاري، فأنت لم تلتقِها بعد"

"لا حاجة إلى لقائي إياها. فمهمن تكن، إنها لا تستحق العناء، وإذا كانت أصغر منك، فستجعل حياتك جحيماً"

فقال تود: "هناك سبب لكونك وغداً ساخراً. وأنا أشفق عليك يا هاري فعلاً؛ لأنك رغم كل ارتباطاتك السابقة لم تجد ضالتك. فمع ناتاشا – وهذا شيء لن تفهمه أبداً – أشعر كما لو أنني كنت ميتاً ودب النشاط في شرايينك من جديد. نعم، إنها أصغر مني، لكن هذا يعني أنه بمقدورنا إنشاء أسرة. سأصبح أباً يا هاري، هنّئني. على الأقل، أنت لديك أبناء، وتخيّل ما كنت ستفعله من دون أولادك"

فقال هاري: "تقدير الأبوّة مبالغ فيه كثيراً. ألا تشاهد التلفاز؟ تمنح المحاكم الوصاية إلى الأم؛ أي طليقتك التي تجعل مهمتها قلب أولادك ضدك، فترى أشخاصاً يزدرونك ويصبحون بدناء وكسولين بفضل أموالك، في حين أنك تجهد نفسك بالعمل ولا تتقدّم قيد أنملة"

فقال تود: "أنت تفطر قلبي

قال هاري: "هل تظن أنك منيع؟ مهما حدث، فستحصل جودي على النصف"

فأجاب تود: "لا بأس، هذا ما أريد معرفته. ستحصل جودي على نصف ماذا بالضبط؟"

"نصف ثروتك الصافية أيها الأحمـــق، نصـــف اســـتثماراتك، ونصف كل عقار تملكه. أنتما معاً منذ أن كنتما طفلين عملياً، وقبل أن تشتري أول منزل، وهذا يعني أن لديها حصة في كـــل درهـــم، وحتى الفكّة في حصّالتك"

جلس تود وقد تدلّت شفته السفلية، محاولاً استيعاب الأمر. ما يقوله هاري ليس صحيحاً. وفكر في الأمر مجدداً، وبـــذل قصـــارى جهده لتذكر ما جرى فعلاً.

ثم قال: "كنت قد اشتريت أول منزل حين التقيتها. أتذكر هذا؛ لأنني أخذتها إلى هناك لتراه، وكان بحال يرثى لها. لـــذا لا، عنـــدما اشتريت المنزل لم أكن أعرفها، ولم ننتقل للعيش معـــاً إلا بعـــد أن بعته"

قال هاري: "العيش معاً أمر آخر، متى تزوجتما؟"

فقال تود: "لم نفعل. أعني لم تُجر مراسم حقيقية"

"ألستما متزوجين؟"

"إنه زواج عُرفي"

فقال هاري: "أنت تمزح!"

سأل تود: "هل هذا سيئ؟"

"مسكينة جودي، يمكنني أن أشعر بالأسى عليها تقريباً"

"لم ترغب بالزواج، ولم ترَ فائدة من ذلك"

اتسعت عينا هاري وكشّر مثل قرد، ففكّر تود في أنه يهزأ بـــه وسأله: "ما الذي يعنيه هذا؟"

فأجاب هاري: "هذا يعني أنه بمقدورنا تناول شـــراب آخـــر، ينبغي أن نحتفل

13

هي

اتصلت به على هاتفه الخلوي يوم ثلاثاء، بعد التمـــرين وقبـــل الغداء، فرد وصوته متهدّج لدى لفظه حروف اسمها.

قالت له: "مفاجأة! أين أنت؟"

"في سيارتي، كيف حالك؟" بدا مرتبكاً، وحذراً؛ مفترضاً من دون شك أنها قد اتصلت لتوبّخه.

فأجابت: "أنا بخير، كنت أفكر فيك، بالخير

فقال: "حقاً! لم أكن أتوقع هذا"

قالت: "حسناً، ما جرى قد جرى، ولا يمكننـــا إلا أن نمضـــي قدماً"

قال: "أنا مسرور لشعورك هذا. لقد كنت أفكر فيك أيضاً"

فأجابت: "هذا لطيف، هل تشتاق إلي؟" لم تقصد أن تطـــرح عليه هذا السؤال.

"طبعاً أشتاق إليك. أشتاق إليك كل يوم"

أخذت نفساً عميقاً، وأطلقت زفيراً، ثم قالت: "أنا هنا"

"نعم، حسناً، لم أظن...

"أعرف، انفصلنا بطريقة سيئة"

قال: "حتى صوتك يبدو لطيفاً"

تظاهر كلاهما بأنهما خجلان قليلاً، واختارا كلماتهما بعناية. كانت خطتها هي اختبار المياه أولاً، وإذا بدا منفتحاً فبإمكانها أن تتابع بدعوتها.

قالت: "اسمع، لماذا لا تأتي لتناول العشاء؟"

لم يرد فوراً، فانتظرت، مصغية إلى الأصوات القادمة عبر السمّاعة: حركة المرور، مذيع المحطة الإذاعية. تخيّلته خلف المقود، بالسروال والقميص الفضفاضين نفسيهما اللذين كان يرتديهما في صباح رحيله. كانت تفكّر يومياً في حقيقة أنه قد غادر بالثياب التي يرتديها فقط، وتظن أنه قد تسوّق شيئاً بالتأكيد، لكن ليس بمقدورها تصوّره إلا بالطريقة التي بدا عليها آنذاك.

قال أخيراً: "سأحب هذا، متى تريدين مني المجيء؟"

"كنت أفكّر في يوم غد"

كرّر وهو يبدو متشككاً: "غداً"

ما الذي يجول في خاطره؟ هل سيضطر إلى تقديم بيان بكل أمسية يقضيها في الخارج؟ هل تسمح له حتى بقضاء أمسية في الخارج؟

قال: "إذاً، أراك غداً"

"هل يمكنك أن تأتي عند السابعة؟"

فوافق: "عند السابعة، هذا جيد، لا يسعني الانتظار لرؤيتك"

تبيّن أن المحادثة نقطة تحوّل. وبعد أن وضعت السمّاعة، راحت تعيش في عالم متغيّر؛ عالم أوجده اتقاد شعلة حبهما كما كانت سابقاً، حب أكثر صبا لم يفقد بريقه وتجانسه، وليس عُرضة للتمزّق؛

أي الانفصال عن الطرف الآخر والتفكير في التفاصيل: هذا جيد، وذلك سيئ. في تلك الأيام، كان كل شيء - حتى أطوارها الغريبة - عزيزاً على قلبه: إدمانها على الإنفاق، وبغضها للضوضاء الذي يصل إلى حد الهوس، وعادتها في الاحتفاظ بسدادات قوارير الشراب وقشور الجبن، وحبها للجوارب الطويلة التي لا تزال ترتديها حتى مع الجينز، وطبيعتها المتحفّظة. اعتاد أن يخربش لها رسائل حب ويتركها في أماكن غير متوقعة قبل أن يغادر إلى العمل، وأن يداعب شعرها. بطريقة مماثلة، لم يكن هناك شيء آنذاك يتعلق به و لم تحبه. فقد أحبت طريقة شربه قهوته بعد أن تبرد بوقت طويل، وتلمّظه بعد ذلك بشفتين يدفعهما إلى الخارج على نحو ساحر، وطريقة اغتساله بأن يكسو جسده بالصابون من رأسه إلى قدميه حتى يختفي تحت الرغوة، وطريقة تقطيعه الزبدة إلى شرائح ووضعها على الخبز المحمّص. حتى إنها أحبت طريقة قيادته، وكيف يسدّ الطريق على الناس، ويضحك حين يرفعون له إصبعاً. وقد أحبّته على تلك الحال وقتاً طويلاً؛ حتى بعد أن عرفته جيداً. وهي تنسب فضل تجدّد حبهما إلى انفصالهما، فقد أثّرت صدمة فقدانه فيها بعمق، وأعادت تنشيط خفقات قلبها، وأنعشت حجيرات قلبها المهجورة.

أمضت ما تبقى من ذلك اليوم وكل اليوم التالي مشغولة بالعد التنازلي للساعات. ومضى الوقت في زيارات إلى السوق، ومحل الجبن، وتاجر الأسماك، وبائع الزهور. وبعد عودتها، راحت تقطّع الأعشاب، وتحضّر المربّى، وتفرم الخضار، وتنظّف حبّاراً. كما أخذت الكلب إلى البيطري، وذهبت للعناية بأظفار يديها وقدميها، وإزالة شعر جسمها ووجهها، وإجراء تدليك. قصّرت جلساتها مع

المرضى نافدة الصبر، وخلدت إلى النوم متأخرة، ونهضت باكراً، وانشغلت بتجربة أثواب مختلفة؛ رغم أنها تعرف أنه قد رآها كلها. سيفي شراب يحتسيانه في مقهى، أو غداء يتناولانه في مطعم بالغرض تماماً أيضاً. لكن، يغمرها شعور بنشاط مقنع، وكل ما يمكنها رؤيته هو النجوم في عينيها، وكل ما يمكنها سماعه هو الموسيقى في رأسها.

الهفوات من هذا النوع جزء من تاريخها، ويميّزها تزايد الإثارة بشأن حادثة اجتماعية قادمة. عندما كانت فتاة صغيرة، شاركت وأمها في مناسبات اجتماعية معاً، وانتابها غالباً إحساس بالترقب، والتودّد مع وعدٍ واحتمال، وظنّت أن هذا ما يمثّل أوقاتاً ملائمة في الحياة. لكن، حتى في أيام عادية، وحتى لدى مواجهتها خيبات الأمل، كانت وجهة النظر الإيجابية تُعتبر دعامتها الأساسية. وهي بارعة في تجاوز العقبات، ومقاومة التيّارات المرتدّة، وركوب الأمواج، والبقاء طافية هو أكثر ما تجيد فعله؛ وهو شيء قد علّق تود عليه دائماً. إنه يحب مرحها، فهذا ما أبعده عن السقوط المتواصل في ثقب أسود والإدمان على الشراب، الإدمان كما فعل والده؛ رغم أنها لم تتمكن من مساعدته أثناء اكتئابه.

حاولت دفعه إلى العلاج لكنه لم يقتنع، فقالت: "هذا عالمك، لذا اتركني خارجه" ربما كان عليها أن تحاول بجد أكبر؛ فقد كان سيستفيد من المقاربة العملية لخرّيج أدلر مثل جيرارد هارتمان. ففي ما يتعلق بصعوبات الطفولة، يمكن اعتبار تود نموذجاً؛ فأي طفل لديه أب مدمن على الشراب وأم ضحية له سيتأثر بشكل سلبيّ. وقد أبلى تود حسناً رغم هذا، لكن القصة الحقيقية تكمن في كذبه ومراوغته، وعجزه عن الإفصاح عن مشاعره، وبغضه للسلطة، وإقدامه غير

المحسوب على المجازفة؛ ممّا حقق له نجاحاً في العمل. لكن علاقاته الغرامية التي لا تنتهي تعكس مشاعره المتأصلة بالدونية التي تدفعه باستمرار لإثبات نفسه. ووفقاً لأدلر، يجعلنا مقدار جيد من احترام الذات أحراراً لنركّز على أعمالنا بدلاً من التركيز على قيمتنا في كل ما نفعله، في حين أن مشاعر الدونية تجعلنا نركّز على أنفسنا، وهذا هو تود بإيجاز.

تعرّفت جودي أدلر للمرة الأولى في الجامعة. لكن دراستها في كلية أدلر، وعملها مع جيرارد جعلاها تكتسب معرفة عملية بمبادئه. وإلى جانب يونغ، كان أدلر زميلاً لفرويد في فيينا في مطلع القرن العشرين. لكن أدلر ويونغ انفصلا عن فرويد تباعاً، وكوّنا مدرستيهما الفكريتين الخاصتين. وكانت مدرسة أدلر واقعية ومتّسقة اجتماعياً؛ وهذا واضح تماماً في مهماته الحياتية الرئيسة الثلاث التي عرّفها على أنها صفات الصحة الذهنية: (1) التجربة والتعبير عن الحب، و(2) تطوّر الصداقات والعلاقات الاجتماعية، و(3) القيام بعمل ذي مغزى. بهذه المعايير لا يمكن اعتبار جودي إلا سليمة تماماً. ومع تقدّم علاجها مع جيرارد، أضحت هذه الحقيقة ساطعة نوعاً ما. وأياً تكن الطريق التي سلكاها، أو نوع الأسئلة التي طُرحت، فقد وصلا دائماً إلى علاقتها الملهمة مع تود، ومهاراتها الاجتماعية الممتازة، وتفانيها المهني. لقد قضت وقتها على كرسي المريض، فهل كانت بحاجة فعلاً إلى مواصلة جلساتها الأسبوعية؟ خطر السؤال في ذهنها غالباً، وبلغ أوجه حين اقترحت على جيرارد أنهم يدعونه تعادلاً، لكن جيرارد بدا مصمماً على متابعة الأمر، لذا هذا ما فعلاه. طرح أسئلة، وأصغى، وسجل ملحوظات، فيما تحدثت جودي عن

أحلامها، وتكلمت عن أسرها؛ عن والديها، وشقيقها الأكبر داريل، وشقيقها الأصغر رايان.

كانت تكبر رايان بثلاثة أعوام، لكنها لا تتذكر مناسبة دخوله الأسرة، ولا صورة ذهنية لديها عن مظهره في المرة الأولى التي رأته فيها. فرايان موجود في حياتها منذ أن بدأت ذاكرتها بالعمل، واهتمامها به متملّكاً. وفي أثناء طفولتهما، كان تقريباً مثل الدمية المفضّلة لديها؛ فقد كانت تعامله برفق، وتدلّله، وتُلبسه ثيابه، وتعلّمه، وتعنّفه، وتأمره عادة. وكان آنذاك لين العريكة، ومطيعاً، ودمثاً، ويذعن بسهولة لحسن نيتها. وعندما كبر ولم يعد طفلاً وصار فتى، بدأت نوبات غضبه، والكوابيس، والجروح التي يُصيب بها نفسه؛ ممّا جعل الجميع يقلقون كثيراً، لكن كل ذلك انقضى، كما هي حال مراحله الأخرى العديدة: كثرة المزاح البغيض، ومعرفة كل شيء مخالف، والانطوائية والارتياب.

كانت قد أحبته بحالاته تلك كلها ولا تزال تحبه؛ رغم أنها لا تقبل ما قد أصبحت عليه حاله، مع حقيقة أنه بعد تخرّجه من الجامعة أمضى العقد الثاني من عمره وهو يسافر في أرجاء الهند وجنوبي شرقي آسيا. وهو يعيش منذ ذلك الوقت نصف العام في كوالالمبور ويدرّس الإنكليزية، والنصف الآخر في باجا كاليفورنيا سور، حيث يركب الأمواج ويعمل نادلاً. ومع حقيقة أنه شخص يسيء إلى سمعة أسرته، وسيصبح يوماً ما طاعناً في السن ولا يمكنه الاستمرار في فعل ما يفعله، فكيف ستكون حاله عندئذ؟ سيصبح من دون مال، وبعيداً عن المنزل، وسيمنعه غروره من طلب العون.

لم تكن لديها طريقة للتواصل معه؛ لأنه لا يملك هاتفاً أو لم يمنحها رقمه – لم تكن واثقة من السبب فعلاً – لذا كانت تضطر إلى

انتظار اتصال منه. ولحسن الحظ، كان يتصل بها بين الحين والآخر، رغم أن بصرها لم يقع عليه في الواقع إلا نادراً. وفي أثناء جلساتها مع جيرارد، لم تكن قد رأته منذ وقت طويل جداً، حين التقته مرة في المطار في أحد توقفاته السريعة. فقد اتصل بها عند السادسة صباحاً، والتقته باكراً، وتناولا معاً شطائر اشترتها من كشك المطار؛ تناولاها وهما يضعانها على حجريهما. حصل ذلك في أواخر تشرين الثاني، لكن نظراً إلى كونه في الطريق من مناخ استوائي إلى آخر، فقد كان يسافر خفيفاً، مع حقيبة ظهر فقط يضع فيها أمتعته المؤلفة من قميصه التائي، وجينزه، وخفين. وكان يضع سلسلة من حبّات زجاجية زرقاء حول عنقه، ويعتمر قبعة من القش سوداء عليها شعار جمجمة وعظمتان متقاطعتان وحافتها مقلوبة من الجانبين. كان قد أصبح مربوع القامة قليلاً، ويحتاج إلى حلاقة لحيته، لكن عينيه الزرقاوين لا تزالان تتمتّعان بالنظرة الفاتنة ذاتها التي لطالما تحلّى بها. كان يبدو بخير، وإنما أكبر سناً من أن يعلق في ذلك المكان في حياته. وكان لا يزال عازباً مشغولاً بركوب الأمواج، ومتجاهلاً موهبته وإمكانياته. في طفولته، كان بارعاً في الجمباز والرسم، ويهتم بالحشرات والنباتات، ويتكلم عن رغبته في أن يصبح رياضياً أو رسّاماً أو عالم أحياء... وفي أثناء دراسته الثانوية كان مستشار تخييم. وأراد أن يصبح مدرّساً؛ ليس مدرساً يؤدي عمله فقط وإنما يُشرف على تلاميذه ويُحدث فرقاً.

راودتها كوابيس متكرّرة بشأن رايان؛ يكون فيها ضائعاً أو هارباً، فتحاول الوصول إليه بسرعة لكنها لا تستطيع حجز مقعد في رحلة، أو الصعود على متن الطائرة. وهي لا تزال تفكّر فيه كل يوم،

أو بالأحرى يبدو حاضراً فيها دائماً؛ فهو بمثابة عنصر ثابت ومميّز بغيابه المقلق. كانت موهبتها حمايته ومساعدته، لكنه جعل هذا مستحيلاً، وتعرف أنها إذا جازفت بالتعليق على نمط حياته فسيفكّر مرتين بشأن الاتصال بها مجدداً. وقد اقترف والداها هذه الغلطة، فاضطرا لاحقاً إلى الحصول على أخباره منها. وبالإضافة إلى هذا، لم يكن يمنحها أي فرصة، ويحب إبقاء مسافة بينهما؛ متفادياً الحديث عن أي شيء مهم، ومن دون أن يكشف لها عن مشاعره أبداً، وإنما يمزح ويجعل الأمور تبدو سهلة. لذا، كان كل ما يمكنها فعله هو الضحك على القصص التي يسردها عن سوء حظه، ومقاومة الحافز الذي يحثّها على عرض المال عليه؛ غير مستعدة لإيذاء كبريائه.

بالمقابل، لقد سار شقيقها الأكبر داريل على خطى والدهم؛ فحصل على إجازة في الصيدلة من مينيابوليس، ثم عاد إلى الديار وتزوج حبيبته من المدرسة الثانوية. وقد علّق أبواهم أملاً على استقرار داريل هناك ليدير صيدلية الأسرة، لكنه اختار في النهاية الانتقال. وهو يعمل الآن مدير صيدلية في مستشفى تعليمي كبير في كندا.

داريل أكبر من جودي بستة أعوام، لكنه كان منذ البداية الضوء الساطع في حياتها. وهو معلّم طيب ولطيف ومحب للتسلية، ولديه وقت لها، ويمكنه أن يجعلها تضحك. كان داريل من رافقها في بعض المناسبات المهمة في حياتها، ومن علّمها ربط شريطي حذائها بأسلوب أذني الأرنب. حتى إنها تذكر حفلة *شاي الدمى* التي قدّم فيها داريل فطائر الوحل، وقلّد صوت شقيقة باربي الصغيرة؛ سكيبر. وعندما أصبحت أكبر سناً ساعدها بفروضها المنزلية ولعب

الورق معها؛ رغم أنه كان آنذاك في المدرسة الثانوية وهي لا تزال طفلة. كان داريل أحد أولئك الفتية الدمثين واللطفاء والنادرين الذين يتفقون مع كل شخص. كان الشاب الهادئ والجاد والدبلوماسي دائماً، والذي قُدّر له أن يبلي حسناً في الحياة؛ لأن الجميع يبدون متشوقين إلى مساعدته في دربه.

اهتم جيرارد بحياتها الأسرية، وأمطرها بوابلٍ من الأسئلة.

جيرارد: مع أيّ من شقيقيك لعبت؟

جودي: لعبت مع رايان. كان داريل يحب أن يلعب معي، لكن ذلك كان يعني أن ينزل إلى مستواي.

جيرارد: مع من تشاجرت؟

جودي: كنت أتشاجر مع رايان أحياناً.

جيرارد: أخبرتني أن رايان مرَّ بمراحل مختلفة؛ إذ كان مطيعاً ولطيفاً حين كان طفلاً صغيراً، ثم صار لاحقاً بغيضاً وعنيداً ومتشكّكاً (وعندها كان يشير إلى ملحوظاته). ماذا ستقولين عنه عموماً؟ إذا كنت ستستخدمين كلمة واحدة لوصفه.

جودي: إنه حسّاس. كان رايان حسّاساً، وكنا نزعجه بشأن هذا.

جيرارد: وأي نوع من الأطفال كنت أنتِ؟

جودي: كسبت شهرة بكوني متسلّطة.

جيرارد: على من تسلّطت؟

جودي: على الجميع. لكن رايان فقط من كان يفعل ما أطلبه؛ حتى أصبح أكبر سناً.

جيرارد: عندما كنت تكبرين، كيف كان والدك؟

جودي: توقّع منا الكثير، لكنه كان صارماً مع الصبيين أكثر مني.

جيرارد: إذاً، أُفسح لك المجال لأنك فتاة. كيف كانت أمك؟

جودي: كانت حالمة بعض الشيء. وقد أبلت حسناً في طهي الوجبات والعناية بالمنزل، وأدّت خدمتها الاجتماعية، لكنها عاشت معظم الوقت في عالمها الخاص.

جيرارد: وما نوع الخدمات الاجتماعية التي أدّتها؟

جودي: نظّمت مناسبات لتوزيع الطعام، وتطوّعت في مطبخ الحساء. كما درّب أبي ليتل ليغ.

جيرارد: إذاً، كانت الخدمة الاجتماعية قيمة أسرية.

جودي: كانا مؤثرين في الخدمة الاجتماعية، وفي الحصول على التعليم أيضاً.

جيرارد: ومن الذي تحلّى بأفضل روح اجتماعية من بينكم أنتم الأولاد؟

جودي: داريل؛ فقد اعتاد القراءة لكبار السن كل أحد، وفعل هذا طوال أعوام.

جيرارد: ومن كان الأقل مشاركة؟

جودي: لا بد أنه رايان. فأنا لا أتذكر مطلقاً مشاركة رايان في هذا النوع من الأمور.

جيرارد: ماذا عنك؟

جودي: ساعدت في بيع الكعك، لكنني لم أتحلَّ بحماسة داريل.

جيرارد: ومن الذي حصل على أفضل العلامات في المدرسة؟

جودي: داريل.

جيرارد: ومن حصل على الأسوأ؟

جودي: رايان.

جيرارد: من كان المفضّل؟

جودي: داريل. فقد أحب الجميع داريل.

جيرارد: ومن الأقل تفضيلاً؟

جودي: رايان؛ فوفقاً لحالته آنذاك، بدا أنه لا ينتمي إلينا تقريباً. أحياناً كان والداي يدعوانه *المشاغب الصغير*. هذا ما فعله والداي؛ فقد دعواه كذلك حين كان يتصرّف بشقاوة.

جيرارد: من كان المطيع؟ ومن المتمرّد؟

جودي: أنا وداريل كنا مطيعين، أما رايان فمتمرّد.

جيرارد: إذاً ثبّت داريل مكانه على أنه المفضّل، وميّز رايان نفسه على أنه المتمرّد. أين يتركك هذا؟

جودي: كنت الفتاة الوحيدة، ولم يكن يُتوقّع مني التنافس مع الصبيين.

جيرارد: لكنك حظيت بموقع أفضل في الأسرة من رايان، وتشاجرت معه وتأمّرت عليه.

جودي: أظن أنني - برأيي الخاص - كنت أعتني به. لكنه ربما لم ير الأمر على هذا النحو.

جيرارد: وكيف تظنين أنه رآه؟

جودي: أخمّن أنه احتاج إلى الخروج من تحت عباءتي؛ لأننا

كنا مقرّبين من بعضنا جداً في طفولتنا، لكننا لم نعد كذلك الآن.

جيرارد: وكيف يجعلك هذا تشعرين؟ أعني بعد أن أصبحتما بعيدين عن بعضكما الآن؟

جودي: هذا مؤلم كما أظن؛ فقد وضع مسافة بيننا، وأنا أقلق عليه. لكن، ربما لم تكن هذه غلطتي.

14

هو

غادر المكتب وقاد على المسار القديم المألوف. وعندما سلك المنحدر المؤدي إلى طريق راندولف العليا، ورأى الشقة من بعيد، انتظر أن ينقضّ عليه الحنين، لكنه لم يظهر، وربما استبدل بكل شيء آخر كان يشعر به، وكان يعلوه الترقب. لا ينتابه أي إحساس حيال ما ينبغي له توقّعه؛ فقد كانت ودودة بما فيه الكفاية عبر الهاتف. لكن هذه أوقات غير اعتيادية. ومهما يحدث، ينبغي له أن يضع يديه على بعض أغراضه أثناء وجوده هناك؛ بعض الكنزات ومعطفه الشتوي على الأقل. ينبغي أن يتركها في صندوق سيارته، وإلا فستعرف ناتاشا بأمر زيارته، وقد تكتشف هذا بأي حال؛ فهي تمتلك أنف ابن آوى. كان يُفترض به الليلة أن يتناول العشاء مع هاري، ويراجعا العقود. لكن، قد تجد طريقة للتوثّق من هذا الأمر، وستكون هذه أول أمسية يقضيانها كلٌّ على حدة منذ أن انتقلا للعيش معاً.

ركن البورش في الموقف رقم 32، وكافح لحظة مع إحساس طاغٍ بالملكية. ورغم أن الأمر كان منافياً للعقل، إلا أنه لم يستطع كبح إحساسه بالملكية الخاصة. مئتا قدم مربعة من الرصيف له - فهو يمتلكها - ويمتلك أيضاً الموقف رقم 32، حيث تجثم سيارة

أودي الخاصة بجودي. وفي ما يتعلق بتلك المسألة، الأودي ملكه أيضاً.

استقل المصعد نحو الأعلى، واستخدم مفتاحه. كان الفخر بالملكية لا يزال يحفزه ليدخل الشقة. وكانت تفوح في المبنى روائح طبخها؛ ترحّب به قبل أن يعبر الباب، وتثير فيه الحنين الذي ينتظره. كان فرويد يقف هناك لتحيته، ويقفز على قوائمه، ويدور حول نفسه، ويبدو بخير؛ عيناه لامعتان، وجلده صقيل وينبض حيوية. تحرّك إلى غرفة المعيشة، ورآها بنظرة جديدة؛ كما لو أنه قضى وقتاً طويلاً جداً بعيداً عن هذا المكان. وغمره المكان بشعور بالترف لا بد أنه قد تعوّده حين عاش هنا، أو ربما أفسده بؤس مسكنه الحالي؛ حيث تُعتبر عادة ناتاشا في إثارة الفوضى على كل سطح متوافر بمهملات حياتها اليومية مبدأها السائد عن تدبير شؤون المنزل.

بحث عن جودي في المطبخ فلم يجدها. لكنه عندما استدار ظهرت أمامه؛ كانت تبدو أصغر مما يتذكرها، ومختلفة بطرائق أخرى أيضاً. فهي أكثر رقة، وعنقها أطول، وجلدها أكثر بياضاً؛ كما لو أن ملامحها قد رُتّبت مجدداً بطريقة ما. كيف تغيّرت إلى هذا الحد فقط لأنه لم يكن ينظر؟

كانت ترتدي سروالها *البيج* وقميصها الأبيض المعتادين. ربما لا تُعدُّ هذه مناسبة خاصة بالنسبة إليها، أو لَمّ شمل، أو انفصالاً مهماً كما فكّر تباعاً. ظهر في عينيها وميض استفسار حين رأت سترته الكشميرية وشعره الطويل. رغب في تقبيلها، لكنه استدار نحو المطبخ بدلاً من ذلك.

سألها: "هل أحضّر الشراب؟"

جعلهما الروتين القديم يتجاوزان البداية المحرجة. لكنه عندما جلب الكأسين وأخرج زجاجة الشراب من البراد، فيما كانت هي تفرم البقدونس وتضع قشريات على الطبق، بدا واضحاً على نحو صارخ أن شيئاً ما قد تغير. فهما مجاملان جداً، ويتحدّثان بتكلّف، ويقيسان بحذر شديد حركاتهما، ويراقبان المسافة بينهما كما لو أنهما غريبان. وعندما احتسيا أول حسوة من الشراب، جلس على كرسي، وراقبها وهي تقطع ليمونة طولياً إلى أرباع، وتبتسم أثناء تقديمها له؛ لكن كل ما رآه هو البعد في عينيها. وفيما كان يمضغ ويبتلع، تحرّكت في المطبخ بقميصها الأبيض الأنيق المغلقة أزراره كلها، فحاول أن يتذكّر كيف يبدو شكلها وهي عارية.

تركّز الحديث أثناء العشاء على عملهما، في حين تفاديا الموضوع الآخر؛ أي ترتيبات حياته الجديدة، ولياليها الموحشة، وأبوّته الوشيكة؛ أي شيء يتعلق بالمستقبل. تكلم بعناد عن السباكة والعفونة، فيما قدمت معلومات عن مرضاها. وعندما سمع أن الآنسة بيغي حامل ولا تعرف إن كان زوجها أو حبيبها هو المسؤول، ضحك رغماً عنه. فهو لم يشعر قط بتعاطف مع الآنسة بيغي، أو في ما يتعلق بتلك القضية؛ فأي شخص قد يقيم علاقة طويلة الأمد خارج إطار الزوجية؛ نوع من تعدد الأزواج/الزوجات في الواقع. العلاقة العابرة شيء، والجنس مع بائعة هوى شيء آخر. لكن تقسيم المرء ولاءه كطريقة في الحياة دربٌ شائكةٌ، ولا يمكن أن تنتهي إلا بنحو سيئ.

من ناحيتها، فهمت جودي رأيه هذا دائماً، ويمكنها أن ترى الصورة الكبرى. فطوال فترة بقائه وجودي معاً، كان يخصّها. وقد

عرفت ذلك. والكثير من النساء - معظمهن على الأرجح - يُثرن جلبة بشأن الانحرافات الصغيرة، وينزعجن كثيراً من العبث التافه هنا والانعطافة الثانوية هناك. ومن الممكن أنه اعتبر تسامح جودي وصبرها أمرين مُسلّماً بهما، ولم ينسب إليها فضلاً كافياً لتحمّلها إياه؛ وهذه غلطة يسهل اقترافها، فجودي تتمتع بميزة القبول، ولا يمكن تهديدها أو جعلها تفقد توازنها بيسر، وهي تمضي قدماً بطريقة محسوبة وبثبات، ولا تفقد رباطة جأشها أو تتجاوز المألوف.

وفيما كانا يأكلان السلطة والخبّار والسلمون تباعاً، بدأ يشعر بأنه لم يغادر قطّ. فهما هنا في مكانيهما المعتادين إلى الطاولة، ويتناولان عشاءهما من الأطباق اليومية. وهي لم ترتدِ ثيابها المعتادة فقط، وإنما لم تزعج نفسها أيضاً بإخراج بالأواني الكريستالية، أو الفضية، أو حتى بوضع غطاء المائدة. الطعام شهي؛ لكن جودي أتقنت الطهي دائماً. وعلى الطاولة شموع ومناديل قماشية، غير أن هذا عادي أيضاً.

ثم فهم ما يجري، فهي تمنح الحدث انطباعاً مألوفاً متعمّدة. وهذا شيء لا يمكن أن يحدث إلا مرة واحدة، مناسبة ليست خاصة وإنما عادية؛ شيء يتكرّر. فهي تريد المضي قدماً كالمعتاد، وأن يتصرّفا كما لو أن شيئاً لم يتغير، وتحضير العشاء له جزء من حياتهما العادية معاً، والمسرّات الروتينية تكون دائماً دعامتها الأساسية وجوهر سعادتها والصفة المميزة لوجودها. فقارورة الشراب، والوجبة المحضّرة منزلياً، ومباهج إقامتهما معاً، والانحرافات المتوقّعة، وأسباب الراحة موثوقة؛ إنه يرى الآن تحديداً من أين تأتي، والأمر مثل لعبة تقريباً.

إنه مذنب في التقليل من شأنها؛ فهي تتمتع بذكاء عملي رائع، وهناك وضوح فاتن بشأنها. خطر بباله أنها ستلفت انتباه رجال

آخرين، وربما تكون قد فعلت مسبقاً. وربما بعد رحيله أكل رجال آخرون العشاء من هذه الأطباق عينها، وربما أحبها أولئك الرجال الآخرون، وناموا على سريره معها، واستفادوا من مستحضرات التزيّن التي تركها خلفه. هذه ليست أفكاراً سارّة، وكافح لقمع خياله الجامح؛ ذاك الجزء منه الذي يريد الابتعاد عن الطاولة، والتعبير عن غضبه في الغرفة، والتوكيد على هيمنته وملكيته.

سألها بفظاظة: "ماذا كنت تفعلين؟"

فأجابت: "أوه، كما تعرف، الأمور المعتادة"

"آ – ها" وعدّل جلسته على كرسيه. "من كنت ترين؟"

فسألته بلطف: "هل هذه هي الدرجة الثالثة؟"

فقال: "لا، إطلاقاً"

"ألين، جين، أليسون"

نقر على أصابعه وهو يسألها: "هل تعرفت إلى أحد؟ كما تعرفين، علاقة رومنسية؟!"

اتسعت عيناها، وأدرك أنها قد دُهشت؛ ليس من السؤال فقط، وإنما من الفكرة نفسها أيضاً.

قال: "لا بأس، لا بأس، لكنك جذّابة وسيحدث هذا. سيسعى الرجال خلفك، إن لم يكونوا قد بدأوا مسبقاً"

جعلت الطعام على طبقها بشكل مثلث: سلمون - بازيلاء – هريس، الخنادق الفاصلة تكوّن إشارة سلام رُسمت بنحو فضفاض.

سألت: "أي رجال؟! أنا لا/أعرف أي رجال"

فقال: "حسناً، ها ها، العالم مليء بالرجال"

"ليس في مهنتي؛ فعلم النفس مليء بالنساء"

فقال مسمّياً النجوم في كوكبتها المهنية: "أدلر، وفرويد، ويونغ رجال"

"لقد تغير الوقت، وكلهن نساء الآن"

ينبغي له أن يصمت، وهو يعرف هذا، لكنه لم يستطع الآن أن يمحو من ذهنه الصورة التي ابتكرها؛ ذكر مجهول من دون هوية يقف عارياً في حمّامه، وهو لا يزال رطباً بعد الاغتسال، ويستعمل المناشف ومعجون الأسنان ورغوة الحلاقة التي تركها خلفه.

قال: "كنت ودودة مع الفتى كارسون من الطابق الأدنى"

"جول كارسون؟! إنه في الخامسة عشرة فقط"

"لقد رأيت الطريقة التي ينظر بها إليك"

"إنه فتى لطيف ومهذب جداً وساذج"

"الفتيان المراهقون ليسوا سُذّجاً"

"حسناً، ربما لا. لكنني كبيرة بما فيه الكفاية لأكون أمه"

"ربما أنت كبيرة كفاية لتكوني أمه، لكنك لست كذلك. وأخمن أنه يعرف الفرق"

"تود، أنت سخيف"

"عندما كنت في مثل عمره وقعت في حب مدرّسة التاريخ. كان اسمها الآنسة لارابي، وكانت جميلة ومهذّبة وإنما قوية الإرادة وقاسية أيضاً، وقد أثارتني حقاً. وعندما أفكّر فيها الآن، أجد أنها تشبهك كثيراً. فكّرت فيها طوال الوقت، وقد تخيّلت اتصالي بها، واصطحابها في موعد، حتى إنني عرضت عليها إصلاح سيارتها مرة، لكن السيارة لم تكن ما أهتم به حقاً"

"حسناً، إذا كان هذا ما يجول في ذهن جول فلم تصدر عنه أي إشارة بهذا الشأن. وفي المرة الوحيدة التي جاء بها إلى هنا وقف بجانب الباب ويده على المقبض؛ وكأنه لا يطيق صبراً للفرار

"متى كان هنا؟"

"جاء مرة ليستعير مجلة فيها مقال عن عازف كمان لا أتذكر اسمه؛ عزف الألحان المنفردة لأحد الأفلام. يعزف جول على الكمان ببراعة" ونهضت لتجلب قارورة شراب أخرى، وأحضرتها إلى الطاولة ثم فتحتها، وأعادت ملء كأسيهما الفارغتين، وقالت: "لا يعني هذا أن ذلك من شأنك، في هذه الظروف"

سأل تود: "متى سمعته يعزف؟"

"سمعته في حفلة مدرسته الموسيقية"

"وهل ذهبت إلى حفلة مدرسته الموسيقية؟ يا للهول! أنت حقاً مقرّبة من هذا الفتى"

"نعم، صحيح، أنا وجول كارسون. حسناً، بعد أن خمنت الأمر، بإمكاني أن أقرّ به الآن. نحن في علاقة متّقدة منذ بعض الوقت، وقد بدأت في ذكرى ميلاده الخامسة عشرة، أم إنها كانت الرابعة عشرة؟ أو ربما كان في الثانية عشرة؟ غريب أنني لا أتذكر، ربما كان في التاسعة أو العاشرة فقط حين أحببنا بعضنا"

فقال: "لا بأس، فهمت. لكنك جذّابة وجميلة، وأنت تعرفين هذا، وستثيرين انتباه كل من لديه عينان في رأسه؛ حتى فتى لديه بثور ويعزف على الكمان"

"لا توجد بثور لدى جول"

فقال تود فاقداً الاهتمام بالفتى كارسون: "أياً يكن. ما أقصده هو أنكِ جذّابة جداً ورائعة، وقد أحببتك منذ أول لحظة رأيتك فيها، ونعم كنت مبللة تماماً، وكنت قد حطّمت سيارتي للتو، ولكنك بدوت جميلة، ولا تزالين كذلك"

رأى عينيها تفيضان دموعاً، فمد يده فوق الطاولة إلى يدها، وفهم فجأة أنه يطفو من دون جذور، وقد أفاق يوماً ووجد نفسه في حياة شخص آخر، ولم يجد طريق العودة إلى منزله. جالساً هنا الآن، وهو يمسك يدها بيده، ويشعر بأن الوقت ينقضي بعيداً مثل قطار على سكّة نائية؛ في هذه اللحظة غير المحدّدة، تجمّعت كل المشاعر التي دفعها قسراً جانباً.

قال: "لقد اشتقت إليك، واشتقت إلى المجيء إلى المنزل، والذهاب إلى السرير معك، والاستيقاظ بجانبك. وكل ما يمكنني قوله هو أنني لم أكن بكامل قواي العقلية حين ظننت أنه بمقدوري التخلّي عنك"

أمسكت يده بقوة، وبدأت دموعهما تسيل بغزارة وتروي قلبيهما المنكمشين ألماً، وحبهما الذابل. نظرا إلى بعضهما بعضاً الآن، متجاوزين الغرابة والبعد. وعندما جففا دموعهما أخيراً، نهضت وقدّمت له حلوى الشوكولا، فراحا يغرفان منها بملعقتيهما مثل طفلين نهمين، ويلعقان طبقيهما، ويضحكان على نفسيهما.

وبعد إزالة كل شيء عن الطاولة، وفيما كانت واقفة قرب المغسلة تغسل الأطباق، رافعة ردنيها إلى مرفقيها، وشعرها مسترسل ومتموّج، اقترب منها من الخلف، ومدّ ذراعيه حول خصرها بلطف، ووضع ذقنه على أعلى رأسها، وقال: "أحبك"

فاستدارت لتواجهه، وتحرّكت في طوق ذراعيه، ويداها مشبوكتان على صدرها؛ وكأنها تتضرّع.

وقالت: "ما زلت أحاول اعتياد التغيير فيك. ليس الشعر والثياب فقط، فأنت تبدو أصغر سناً. هل خسرت وزناً؟"

جالت يداه على العظام الرقيقة لظهرها وكتفيها، وراحتا تتعرّفان مجدداً منحنياتها الدقيقة ونِسَبها الطفولية. كان قد تعوّد آنذاك على ناتاشا؛ بجسدها القوي، وردفيها المكتنزين، ونحول خصرها الكبير.

أجاب: "هذا وهم"

تمتمت على صدره، وأنفاسها تدفئ جلده متسللة عبر قطن قميصه: "لو أنني تجاوزتك في الشارع لما كنت قد عرفتك. كنت سأمرُّ قربك من دون إلقاء نظرة ثانية عليك"

"كنت سأوقفك وأعرّف بنفسي

فابتسمت له وقالت: "لا أتكلم مع رجال غرباء" شعر باسترخائها، وتداعيها بين يديه؛ وكأنها قد تحوّلت إلى هلام.

أخبرها: "ينبغي أن تعتادي على هذا"

حملها بقليل من الجهد، وأمسكها كلها بين ذراعيه؛ وكأنها فاقدة الوعي أو كجثة، وكانت خفيفة الوزن جداً مثل دمية. وعندما حملها عبر العتبة إلى غرفة النوم، تذكر هذا الأمر عن جودي؛ أي الاسترخاء الغريب الذي يصيبها حين تُثار.

15

هي

تمهّلت في تناول الفطور في حين كانت ترد على مكالمة من مكتب هاري لوغروت. كانت مساعدته هي المتصلة؛ فتاة جادّة تدعى دافني، وقد التقتها جودي مرة أو اثنتين في الماضي.

قالت دافني: "لقد طلب مني السيد لوغروت الاتصال بك، وهو يودّ التحدث إلى محاميك. سيكون لطفاً منك أن تزوّدينا باسمه ورقم هاتفه. يود السيد لوغروت الشروع في الدعوى"

سمعت جودي الكلمات، لكنها كانت تَصْفر حولها مثل عصفات ريح عشوائية. إذا كان تود يريدها أن تعلم بشأن شيء قانوني، كان ينبغي له إذاً أن يتكلم معها بنفسه.

"سيدة غيلبرت؟ هل أنت معي؟"

فأجابت: "نعم، أخبريني مجدداً، ماذا تريدين مني أن أفعل؟"

"لا حاجة حقاً إلى فعل أي شيء يا سيدة غيلبرت" كانت نبرة دافني ودودة وإنما جدّية. "الشيء الرئيس هو أن السيد لوغروت يريد البدء بالدعوى بأسرع وقت ممكن. لذا، سنحتاج إلى اسم محاميك ورقم هاتفه"

تود وحوافزه ونواياه ومكان وجوده؛ كانت كلّ تلك الأمور تجول في ذهنها منذ ليلة مجيئه لتناول العشاء؛ الليلة التي أرسيا فيها بداية جديدة. ونظراً إلى الطريقة التي جرت بها الأمور، لا يمكنها أن تتمنى لَمّ شمل أكثر روعة، وتجديداً لعلاقتهما أكثر إرضاء. كانت محقة بدعوته، ومحقة بإجراء الخطوة الأولى. غير أنه لم يعجبها بعد ذلك أنه نهض وغادر، لكنها تعرف حقاً أنه لا يوجد شيء جدير بالاهتمام يحدث بين عشية وضحاها، وأن الأمور تلتئم بطريقتها الخاصة وبوقتها الخاص. ربما سيتواعدان لمدة من الزمن قبل أن يعود إلى المنزل؛ هذا ما كانت تفكر فيه. وفكرت في أنه يمكنها أن تكيّف نفسها مع ذلك، لكنها لم تفهم سبب عدم اتصاله.

كانت لا تزال ممسكة بالهاتف، وتتحرّك إلى غرفة المعيشة حيث الشمس تومض على الأثاث وتُبرز الألوان في السجادة.

قالت: "آسفة يا دافني، أنا لا أفهمك جيداً. لماذا لا تطلبين من هاري الاتصال بزوجي وبحث القضية معه؟! أنا واثقة بأن هذا سيكون الحل الأفضل"

عندها، صرخت دافني وكأنها صُدمت ثم قالت: "أوه، سيدة غيلبرت! أنا آسفة جداً، ظننت أنك تعرفين"

لا بد أنها قد ارتكبت هفوة من نوعٍ ما. لكن، بدلاً من أن تراجع دافني نفسها وربما تستشير مديرها، تشبّثت بموقفها، وحاولت تقديم تفسير كانت جودي ترفض سماعه، وإسداء نصيحة لا تريد جودي قبولها.

وأنهت كلامها قائلة: "لو كنت مكانك يا سيدة غيلبرت، لاستعنت بمحامي طلاق جيد حقاً"

ما دفع جودي إلى الضغط على زر إنهاء المكالمة.

وبعد إزالتها فطورها عن الطاولة، سحبت ملفّي مريضي الجمعة، وقرأت ملحوظاتها. الأولى هي سندريلا؛ وهي فتاة بسيطة تفتقر إلى احترام الذات، وتعمل مدقّقة في صحيفة يومية محلية، وشكواها المستمرة هي أن الحياة لا تفيها حقها. عادة، تكون جودي استباقية في تحديد الخيارات، لذا كانت تشجعها على قطع خطوات صغيرة قد تكون لها تأثيرات استثنائية، وتقول لها إنه بمقدورها مثلاً الالتحاق بدورة دراسية، أو الاشتراك في نادٍ رياضي، أو القيام بعدد من الأشياء لتحسين مظهرها؛ مثل الحصول على عدستين لاصقتين، أو تصفيف شعرها بنحو ملائم. فإذا أراد أي كان التخلّص من الروتين الفكري فمن الأسهل غالباً تغيير شيء خارجي، وترك التغييرات الداخلية تلحق به. فعندما تبذل جهداً نيابة عن ذاتك، فعلى الأغلب ستميل الظروف باتجاهك على نحو مفيد. وجودي تصدّق هذا، وقد رأته يحدث؛ وهذا ما حفزها في النهاية على اتخاذ المبادرة بدعوة تود إلى العشاء.

مريضها الثاني - الابن المبذر - شاب يمتلك ودائع ائتمانية، ويدفع والداه ديونه روتينياً. ولأنه يافع ولا يزال يتلمّس طريقه، ولم يكتشف بعد إمكانياته أو حدوده، ولأن والديه يقللان من ثقته بنفسه، تقدم له جودي دعماً غير مشروط. فهو يحتاج إلى أن يكتشف الأمور بنفسه، وإذا وقفت إلى جانب والديه فسيتقوقع ببساطة على نفسه.

لم تتلقَ المكالمة التي كانت تتوقعها من تود تقريباً منذ حديثها مع دافني حتى وقت متأخر من الأصيل. كانت تشعر بانعدام ثقتها فيه

الآن، ولا تعرف بالتحديد ما تفكّر فيه، لكنها حتى الآن لا تزال تتعلّق بالأمل - بنوعٍ من وعدٍ بالمستقبل - وتستعيد رباطة جأشها بسرعة.

قال لها: "أنت تعرفين وضعي، فأنا أكافح للحفاظ على توازني الآن"

"أنا محتارة، وينبغي أن تشرح لي سبب احتياجي إلى محامٍ"

"لماذا يحتاج أي شخص إلى محامٍ؟ أنت تحتاجين إلى محامٍ ليرعى مصالحك. أصغي إلي يا جودي، لا ينبغي أن يكون هذا الأمر شخصياً، أو أن يقف عائقاً بيننا. دعي المحامين يتوليان الأمر كي نبقى صديقين"

تعطّل تقديرها الذهني مثل آلة حاسبة متضررة، وقد فشلت في تخمين الأمور على نحو صحيح، وهي الآن مرتبكة. "صديقان؟! أهذا ما نحن عليه الآن؟ من الأفضل أن تشرح لي هذا الأمر لأنني لا أفهمه"

"جودي، جودي، ينبغي أن تسترخي. نحن نحب بعضنا، ولدينا تاريخ مشترك، لكن الأمور تغيرت؛ وهذا كل شيء. تطوّر الناس ومضيهم قدماً يفيدهم، وهذا ما كنت تقولينه لي دائماً"

"لا بأس، الناس يتطوّرون. إذاً، إن كانت الحال كذلك، فما الذي كنت تفعله هنا تلك الليلة؟ ماذا كان ذلك؟"

"هل كنت تفضّلين ألا يرى أحدنا الآخر؟ كيف يكون هذا منطقياً؟! أشتاق إليك، وسأود رؤيتك أحياناً"

"ستود رؤيتي أحياناً"

"طبعاً سأرغب في هذا، ألا ينتابك الشعور نفسه؟"

16

هو

كانت ناتاشا مشغولة بخطط الزفاف الذي يقترب موعده بسرعة. وكل ليلة تجلس فيها إلى مائدة العشاء كانت تتكلم بإسهاب عن الزهور، وقائمة الطعام، وترتيب الطاولات، والموسيقى، والعهود، والخدمات، وقالب الحلوى... إلى أن يرغب في سد فمها. لقد اصطحبته لشراء بذلة، وبدا ذلك على الأقل مرضياً. وعندما جرّها في المتجر، دُهش بالتفصيل الأنيق والمنظر اليافع الذي منحته إياه، ولم ينظر إلى رقعة السعر، بل انتظر في الخارج في حين دفعت ثمنها بالبطاقة الائتمانية التي منحها إياها. كان الزفاف يكلفه ثروة، والأهم من كل شيء آخر هو أنها كانت تطالبه بشهر عسل في ريو؛ وهذا ليس وقتاً ملائماً بالنسبة إليه لتبذير المال.

الأمر الوحيد الذي يلقى موافقته هو قرارها عقد قرانهما في دار العبادة. وقد تكلمت عن ذلك مراراً وتكراراً، وتوثّق من دفعها بالاتجاه المناسب. لا يعني هذا أنه رجل ملتزم جداً من الناحية الدينية، ولكنه ليس ملحداً أيضاً. والتقاليد لها مكانتها بالنسبة إليه، والزواج برأيه يجب أن يتمّ في دار العبادة؛ لأنه بالمقام الأول فعلٌ يدل على الالتزام.

كانت قائمة المدعوين تتضمن عدداً كبيراً من العمات والأعمام والأقارب من جانب ناتاشا، في حين تضم مجموعة تود عدداً قليلاً من الأصدقاء؛ هاري، وكليف، وبعض الرجال، وزوجاهم طبعاً. والسحابة التي كانت تخيّم على التحضيرات هي دين الذي بقي ثابتاً على قراره في رفض الحضور، ولا يزال يرفض التكلم مع تود، وبالكاد تبادل بضع كلمات مع ناتاشا. وآخر شيء قاله لها هو أنه سيفضّل الموت على رؤيتها وهي تتزوج شخصاً مثل تود غيلبرت؛ ممّا جعلها تبكي. ينبغي أن يكون دين متعقّلاً، وإذا كان يتحلّى بأي منطق فينبغي له أن يشعر بالسعادة من أجل ابنته، فهي ستكون بخير؛ امرأة موسرة تعيش حياة رغيدة. هل سيفضّل حقاً أن تتزوج شاباً أغرّ لا يستطيع إعالتها؟ هناك أشياء كثيرة يود قولها لدين، فقط إن منحه الفرصة.

بدأ يتساءل عن الوقت الذي ستستقر فيه حياته مع ناتاشا وتصبح أكثر ثباتاً وانتظاماً؛ أكثر شبهاً بما عاشه مع جودي. إذ تتصرّف ناتاشا بطرائق غير متوقعة، وهي بالتأكيد ليست متّقدة وقانعة - كما يُفترض أن تكون النساء الحوامل - وإنما هي على العكس من ذلك تماماً؛ فقد تحوّلت إلى مخلوق يشبه الأفعى، ولا يمكنه توقّع ما يعكّر صفوها أو متى ستوجّه ضربتها. ورغم هذا، كان يبذل قصارى جهده ليكون متفهّماً ولطيفاً؛ فهي تتعرّض لضغط كبير مع نهاية فصل الخريف، وبسبب اقتراب موعد الزفاف ومشكلتها مع أبيها، وربما كان الضغط بسبب زيادة وزنها؛ رغم أن الحمل لم يظهر بعد، وربما يكون هذا أيضاً سبب الطفح الجلدي الذي ظهر على جبينها. على الأقل، لم تفقد الاهتمام بالعلاقة الحميمة، وقد ظن أن

هذا سيحدث بناء على ما أخبره إياه أصدقاؤه الذين أُرغم بعضهم - وهم رجال لم يخونوا قطّ - على اللجوء إلى دور التدليك والعروض الخاصة بالراشدين فقط. كان يعتبر نفسه محظوظاً لأن ناتاشا تريده مثلما كان الأمر سابقاً. لكن الغريب هو أن الأمور قد تغيّرت؛ فناتاشا الآن بالنسبة إليه شخص عادي، في حين أن العلاقة مع جودي في الليلة التي ذهب فيها لتناول العشاء تميّزت بأنها ممتعة. لقد كاد ينسى سكون جودي الغريب، والطريقة التي تفقد فيها عيناها التركيز، وتتحركان جانبياً حين يكون معها. وكان قد اعتاد أن يجد ذلك مزعجاً أثناء علاقتهما السابقة. لكنه في تلك الليلة، ولسبب ما، بدا مثيراً، وأدرك أن الحياة يمكنها أن تفاجئ المرء ببعض المنعطفات.

يمكنه أن يشتاق إلى جودي إذا سمح لنفسه بهذا. فالأنماط اليومية هي التي تصنع الزواج؛ أي العادات التي يتوافق عليها الزوجان، والتي تصبح نوعاً من التناغم الخلفي في حياتيهما. مع ناتاشا، ينبغي أن تستقر الأمور على إيقاع يمكنه السير وفقاً له. لكنه لا يستطيع أن يكون عاطفياً الآن، فالقانون يقول إنه لا يدين بشيء لجودي، وإنها ليست أكثر من حبيبة سابقة قد انتهت رحلتها المجانية معه الآن، وينبغي لها أن تشكره على كرمه معها أثناء الأعوام التي أمضياها معاً. هذا ما قاله هاري الذي يريد أن يرسل لها أمراً بالإخلاء؛ ممّا سيمنحهما ملاذاً قانونياً إن احتاجا إليه. وما يتمناه - وكذلك هاري - هو أن تتحلّى جودي بالمنطق وترحل من دون إثارة جلبة. لكنها إذا قرّرت أن تكون عنيدة بهذا الشأن، فسيطالبان بتنفيذ أمر الإخلاء؛ ممّا يعني أنه بمقدورهما جعل الشرطة تخرجها قسراً. وهو يأمل ألا يصل الأمر إلى هذا الحد، لكنه منوط بها برمّته.

خطرت بباله أشياء كثيرة، وآخر ما أراده هو الفزع الصحي. فحين ذهب إلى عيادة للأسنان لإجراء تنظيف روتيني، خرج منها ظاناً أنه على عتبة الموت. أياً تكن الكليات التي يرتادها مختصو الأسنان، فيبدو واضحاً أنهم لا يتعلّمون فيها أي لباقة أو دبلوماسية.

قالت: "إنها *أذيّة*، وتبدو مثل *سُمّنة*" ونخزت البثرة بإصبعها المغلّفة بقفاز، ثم سألته: "هل أجريت اختبار نقص المناعة المكتسب مؤخراً؟"

تفاجأ كثيراً، وجعله الأمر يضحك بصوتٍ عالٍ. لكن، بوجود إصبعها في فمه، خرجت الضحكة مثل احتجاج.

قالت بسرعة: "لا حاجة إلى الخوف، فقد لا يكون هذا شيئاً يدعو إلى القلق على الإطلاق. ربما يتطوّر هذا النوع من الأشياء لعدّة أسباب، ولكنّه مرتبط غالباً - وأنا مرغمة على إبلاغك هذا الأمر - بضعف نظام المناعة، ومن الأفضل أن تتوثق من الأمر وألا تخاطر

سُمّنة؛ اسم عصفور - طائر غير مؤذٍ - وهذا لا يقلقه، وإنما كلمة *أذيّة* هي ما أزعجه. رنين كلمة *أذيّة* مع نقص المناعة المكتسب والإيدز واضح في ذهنه؛ لأنه شاهد وجودي أحياناً في أثناء العام السابق إعادة *فيلادلفيا*، وقد أدّى ظهور أذيّة واحدة على جبين أندرو بيكيت - الذي لعب دوره توم هانكس - إلى هلاكه بسرعة.

لم يكن الفيروس قد أثار قلقه على الإطلاق من قبل على مستوى شخصيّ. فعندما ظهر في الأخبار للمرة الأولى في بداية الثمانينيات، كان مراهقاً مولعاً بالعلاقات، ويقيم الكثير منها من دون حماية؛ لأن العلاقة على نحو متكرر في خلفية شاحنة لا تكون ملائمة لاتخاذ الحيطة والحذر. لكن قلقه الوحيد في ذلك الوقت كان خطر

الحمل، في حين أن نقص المناعة المكتسب لم يكن شيئاً ينبغي لـــه أن يفكر فيه إن لم يكن غير سويّ؛ أو هذا ما كانت تقولـــه القصـــة. وبطريقة ما، لم يتخطّ ذلك النوع من التفكير.

لم تكن مختصة صحة الأسنان تلك طبيبة، وإنما كانت تنظر فعلاً داخل أفواه كثيرة. وقد يكون تعلّم تحديد حالات شذوذ معينـــة – حتى تلك التي لا علاقة لها بالأسنان – جزءاً مـــن تدريبـــها العـــام. وعندما عاد إلى مكتبه، أوصد على نفسه الباب في الحمّام، وقلـــب باطن خدّه إلى الخارج ليرى بنفسه البقعة البيضاء مـــن الفطريـــات البيضاء وهي تتفسّخ وتتحول إلى غشاء مخاطي؛ مثل كتلة صغيرة من المعجون لملء الشقوق. لا يستطيع الآن إبعاد لسانه عنها. ورغم هذا، لا بد أنه سيتبين له على الأرجح أنه إنذار زائف؛ فالنساء اللواتي قام بعلاقات معهن ويمثّلن الخطر الأكبر عليه محترفات، ولن يقتربن منه ما لم يكن يستخدم وسيلة حماية، وتلك تتمزّق أحياناً، هذا صـــحيح، لكن لا سبب يدعوه إلى القلق؛ فهذه مجرد فطريـــات. وبالمحصـــلة، اكتشف أنه بمقدوره إبعاد الأمر عن ذهنه عدة ساعات، خاصة أثناء النهار حين يكون مشغولاً؛ رغم أنه عندما كان يستيقظ أحيانـــاً في الليل فإن كل ما يفكّر فيه هو الموت؛ موته طبعاً، وأيضاً موت أولئك الذين حوله، وحقيقة أنه يوماً ما في المستقبل غير البعيد سيلقى كـــل شخص عرفه حتفه ويرحل عن الدنيا، إلى جانب كـــل الأشـــخاص الذين لا يعرفهم، لتُستبدل بهم مجموعة غرباء سيستولون على كل ما يتركونه خلفهم: الأبنية والمهن؛ أبنيته ومهنته. وعندما يصل إلى هذه النقطة، يكون الشيء الوحيد الذي يريحه هو التفكير في طفله الذي لم يولد بعد.

17

هي

عزيزتي الآنسة بريت،

أنا المستشار القانوني لتود جيريمي غيلبرت؛ المالك الوحيد والشرعي – كما تعرفين من دون شك – للعقار 201 شمالي الطريق الساحلي الغربي ("العقار")، حيث تقطنين حالياً.

يطلب مني موكّلي إبلاغك أن سكنك في العقار قد انتهى بموجب هذه الوثيقة، ويطلب منك المبنى في مدة أقصاها 30 يوماً من تاريخ إرسال هذه الرسالة. وبحلول هذا الموعد، ينبغي لك أن تغادري وتسلّمي العقار خالياً من كل القاطنين والمقتنيات الشخصية.

امتثالك في هذه المسألة سيمنع أي دعوى إخلاء أخرى ضدك. وفي حال عدم الامتثال، لن يتردّد موكّلي في اتخاذ كل الإجراءات المتوافرة بموجب القانون.

مع فائق التقدير

هارولد سي. لوغروت

لوغروت وغيبونز

مكتب محاماة

ستفكّر في الأعوام القادمة في هذه الرسالة على أنها نقطة التحوّل الجذري في مزاجها؛ لأنها أنهت بهدوء الفتاة التي كانت عليها، وأخرجت نسخة محدّثة عنها؛ متحرّرة من الوهم عن نفسها. وعندما تنظر إلى الخلف فسترى التحوّل فورياً عملياً؛ مثل رؤية حلم أو الاستيقاظ من آخر، لكنها ستكون مخطئة بشأن هذا. فالحقيقة هي أن التغيير حدث تدريجياً؛ بمرور الأيام والأسابيع التالية، ومر بمراحل؛ أولها الإنكار، وهو شيء غير إرادي، ولا يمكنها التلاعب به أو السيطرة عليه، وإنما هو مجرد رد فعل، ونموذج عفوي من الدفاع يحميها من خسارة كارثية. إذ يحدث التغيير بالطريقة التي تحوم بها الطيور من دون أن تحطّ على شيء؛ مثل أفكار متطفّلة، أو تدليك يتم باستعمال أداة كهربائية تخضع لتشويش بكهرباء ساكنة، أو إصابتك بعيار ناري ومتابعتك المشي بالاتجاه الذي كنت تقصده.

كان رجل ذو ضفيرة قد أوصل التبليغ إليها. إذ اقترب منها في الردهة حين خرجت مع الكلب، بناءً على معلومة من البواب بالتأكيد. كان يوم أحد ماطراً، فأغلقت مظلتها وهزّت رأسها، وانتظرت أن يتكلم.

"هل أنت آنسة جودي بريت؟"

"نعم"

أخذت المغلّف الذي قدّمه لها، وسمعته يقول الكلمات التالية:

"اعتبري هذه خدمة لك"

قرأت التبليغ مرتين أثناء وجودها في المصعد. وعندما أصبحت في الداخل، تركت الورقة مع البريد في الردهة وتابعت طريقها إلى

المطبخ، حيث شغّلت آلة تحضير القهــوة. الآن، في انتظــار تقطّــر القهوة، راحت تأكل حلوة من العلبة وتعطي الكلــب واحــدة، ثم انتقلت إلى مكتبها وأبعدت بعض الملفات، وتوثّقت مــن بريــدها الصوتي لتجد أن هناك امرأة قد اتصلت بها بشأن ابنتــها البدينــة، فاتصلت بها، وشرحت لها أنها لا تعالج اضطرابات الأكل، وزوّدتهــا ببعض الأرقام من قائمة تحتفظ بها في درج طاولتها. نســيت أمــر قهوتها، وراحت تنتقل من غرفة إلى أخرى مرتبة الأثاث، وملتقطــة نُسالة عن السجادات. ثم جلبت قطعة قماش ووسائل تنظيف برائحــة الليمون وبدأت بمسح الغبار والتلميع. وحين عــادت أفكارهــا إلى الرسالة، سجّلت استجابة من نوعٍ ما؛ مستوى من الانزعاج جعلها تلقي قطعة القماش التي كانت تمسكها وترفع سماعة الهاتف.

قالت: "إذاً، ما معنى الرسالة الموجهة من هاري؟"

فقال: "جودي، كنت أنوي الاتصال بك"

"كان ينبغي أن تتصل بــي، كيف تسمح بحدوث هذا؟"

"هل أرسل لك هاري رسالة؟"

"سلّمني إياها شخص ما في الردهة"

"وماذا كتب فيها؟"

"بحق الله تود! كُتب أنه ينبغي لي أن أنتقل"

فقال: "يا إلهي، تلك غلطة، لم يكن يُفترض أن يحدث هذا"

"طبعاً هذه غلطة؛ وهي غلطة مزعجة جداً"

"اسمعي يا جودي. وفقاً لما أعرفه، كان هاري ســينتظر حــتى أتكلم معك"

"تتكلم معي بشأن ماذا؟"

"أتمنى لو أنني لم أضطر إلى فعل هذا، حقاً. لكنك تدركين بالتأكيد أنه لا خيار آخر لدي. لا يمكنني *تحمّل* تكلفة الشقة، وهذا لا يبدو صائباً. أرجو أن تتفهمي

"لا يمكنك أن تكون جاداً!"

"لكنني لم أقصد أن أفاجئك بالرسالة"

"ما الذي يجري هنا يا تود؟ أي لعبة تلعبها؟"

"اسمعيني يا جودي، أريدك أن تعرفي أنني لن أثير أي مشكلة بشأن الأثاث، وكل ما تريدينه سيكون لك. خذيه كله إن أردت، وأنا أريدك أن تحصلي عليه"

"تود، ما خطبك؟ ينبغي أن تتعقّل، فأنا لن *أنتقل*، وأنت لا *تريد* مني أن أنتقل. فكّر في الأمر، فكّر في حياتنا معاً"

"جودي، حاولي أن تتحلّي بالمنطق، لقد تغيّرت الأمور

ضغطت على زر إنهاء المكالمة، ووضعت الهاتف جانباً، وابتعدت عنه. ما الذي يعنيه بقوله إنه لا خيار لديه؟ يبدو لها فقط أن تود يجعل ظروفه مأساوية، ويتنصّل من المسؤولية، ويتظاهر أنه لا يدير حياته وإنما هناك قوة خارجة عن نطاق سيطرته هي التي تتحكم به؛ فهذه هي الطريقة التي يعتمدها في تبرير سلوكه السيئ. إنها تعرف طبعاً أنه يريد شراء مبنى مكاتب آخر، فقد تكلم عن هذا طوال أعوام، وسيكون مشروعه الكبير التالي، وربما الأخير الذي سيكفيه في ما تبقى من حياته. لن يكون المبنى الذي ينوي شراءه من أربعة طوابق بأجنحة رثّة مؤجرة لشركات ناشئة صغيرة ومقاولين مكافحين، وإنما هو يفكّر في شي أكبر وأكثر فخامة -- في مبنى على الخريطة -- ويظن أنه بمقدوره تحقيقه إن باع الشقة. شقتهما تقع على الواجهة المائية،

وهي مميزة بإطلالتها الرائعة على البحيرة، غرفها الفسيحة، وخزانتها الجدارية الكبيرة في غرفة النوم الرئيسة، وسطوح المناضد الرخامية والصقيلة في المطبخ، والأدوات الفولاذية، وآلة تحضير القهوة مدمجة. إنه لا يبالي أبداً بالأنثى البيضاء متوسطة العمر والكلب الذهبي اليافع اللذين يعيشان هنا، وسيرحلان خلال وقت قصير جداً.

وعندما اتصل بها دين لاحقاً خلال اليوم، شعرت بتهوّرٍ كافٍ يحثها على الرد على المكالمة.

فقالت: "دين، آسفة لأنني لم أرد على مكالماتك. أنا واثقة بأنك تعرف ما يجري"

فقال: "أعرف فعلاً ما يجري. أعرف تماماً ما يحدث"

"أعرف أن هذا قاسٍ عليك يا دين، وقد كنت أفكّر فيك"

"حسناً، وأنا كنت أُفكّر فيك أيضاً، وأقول لنفسي باستمرار إنني لست الوحيد المنزعج من هذا، وإنك قد تلقيت ضربة موجعة أيضاً. حسناً، تعرفين ما أعنيه؛ فهذا الأمر ليس ساراً جداً لك أيضاً"

"لا، ليس ساراً جداً"

"أعرف، أعرف، هذا ما كنت أفكّر فيه. لذا، أردت الاتصال بك، وإبلاغك أنني أتعاطف معك، وأنك لست وحدك. أنتِ وأنا معاً، نحن في المركب ذاته"

"هذا لطف منك يا دين؛ أعني أنك تفكر فيَّ، في حين أنه ينبغي لك أن تعتني بنفسك"

فقال: "لا، لا. أردت حقاً أن نتواصل؛ فأنت الشخص الذي ينبغي لي أن أتكلم معه. حسناً، كما تعرفين، حاولت التكلم مع ابنتي، وأنا مسرور فقط لأن أمها ليست هنا لتراها وهي تهدر حياتها سدى"

فقالت جودي: "أنا واثقة بأن أمها كانت ستنزعج كثيراً بسبب هذا"

"كانت ناتاشا فتاة طيبة دائماً، والمهم أنها ليست مضطرة إلى فعل هذا، ولا أظن أنها تفهم أنه بمقدورها الانسحاب. ما تحتاج إليه فعلاً شخصٌ يمكنه أن يتكلم معها منطقياً؛ امرأة كما تعرفين، فهي لا تصغي إلي. إنها بحاجة إلى شخص عرف أمها؛ شخص مثلك. أظن أنه بمقدورك التأثير فيها حقاً"

"أنت تمتدحني يا دين"

"ألم تسمعي أنها قد قرّبت موعد الزفاف؟ إنه في الأحد الثاني من كانون الأول. يا للهول! إنها تريد أن أزفّها، هل تصدّقين هذا؟ أفضّل أن أراها تقلى في الزيت"

"أعرف أنك لا تعني هذا"

"هل تكلمت مع تود بشأن هذا؟ لماذا تظنين أنه يتصل بي باستمرار؟ ما الذي لدينا لنقوله لبعضنا بعضاً؟ ثلاثون عاماً من الصداقة ويذروها هباء منثوراً. أقول لك إنه بمقدوره إلغاء الأمر كله غداً ولن يُحدث هذا الأمر ذرة فرق. فات الأوان، وقد تجاوز الخط، وأنا واثق بأن الشعور نفسه ينتابك"

دين متكلم مفوّه، ويستطيع إجراء الحديث من دونها؛ وهذه صفة مميزة بالنسبة إلى بائع من دون شك. اجعل هدفك شارد الذهن، ولا تفسح له مجالاً للتفكير باستقلالية.

"اسمعي يا جودي، اسمحي لي بأن اشتري لك شراباً، أو أدعوك إلى الغداء. ينبغي أن نتضامن معاً، ونتشاطر العبء، ونُظهر الدعم لبعضنا. ما رأيك بأن آتي لاصطحابك غداً؟ يمكننا أن نذهب إلى مطعم صيني

لم يكن يريد أن يواسيها فقط، وإنما لديه برنامج لهـــا. غريـــب كيف أنه يظن أنها – من بين كل الناس – يمكنها أن تؤثر في ناتاشا. في الواقع، هذا أمر لطيف، وليس شيئاً يمكنها أن تحمله ضده، لكـــن تناول الغداء معه سيكون غلطة.

18

هو

هو في البورش يقود شمالاً في ميتشيغان، متجهاً نحو وسط إيلينوي. فقد أصبحت القاعة الرياضية ملتجأ له من نوعٍ ما، والمحطة الوحيدة التي يُسمح له بالتوقف فيها في طريق عودته إلى المنزل من العمل، وقد اعتاد قضاء ساعات أطول فيها لتحسين رشاقته؛ حتى إن لم يكن مزاجه ملائماً لذلك، وحتى حين يكون بأمسّ الحاجة إلى الشراب، مثلما هي حاله الآن. لقد أقلقته محادثته مع جودي، ولم يفهم مشكلتها. فهل تظن أنه سيعيلها في ما تبقى من حياته، في حين يعاني هو وأسرته؟ إنه لا يحاول التشدّد معها، وقد عرض عليها الحصول على كل محتويات الشقة. لكن، هل لديها أي فكرة عن تكلفة ذلك؟

فكر في الاتصال بها، لكنه تلقى مكالمة من هاري بدلاً من ذلك، فقال: "ماذا كنت تظن أنك فاعل بإرسالك تلك الرسالة إلى جودي؟ كنت سأتكلم معها أولاً، وقد ناقشنا هذا الأمر

فأجاب هاري: "لا بد أنها دافني، سأتكلم معها"

قال تود: "هذا صحيح، ألقِ اللوم على مساعدتك. ما أقصده هو أن جودي منزعجة الآن وترفض الفكرة برمّتها. تباً لك يا هاري. ألا تظن أنني أعاني من المشاكل ما فيه الكفاية؟"

"لدي نبأ لك يا تود؛ كانت ستنزعج بغض النظر عن طريقة اكتشافها ذلك"

"لن نعرف أبداً الآن، أليس كذلك يا هاري؟"

"ركّز على هدفك في ذهنك. المهم هو القيام بهذا، وليس هناك متسع من الوقت"

هاري محق على الأرجح في أن طريقة معرفتها بالأمر ليست مهمة. لكن إشعار الإخلاء بدا بالنسبة له قاسياً على نحو غير ضروري، وجعله يبدو شريراً ومتحجر القلب وقاسياً. بالرغم من هذا، جرى ما جرى، وربما يكون هذا للأفضل؛ لأنه يريدها فعلاً أن تخرج من هناك. إذ إن ناتاشا تسأله كل يوم إن كانت جودي قد غادرت، وعمّا يخطط لفعله إن لم ترحل. وآخر ما يريده هو مشهد بشع توصد فيه جودي الباب على نفسها، ورجال الشرطة يخلعون الباب ويُخرجونها من المبنى بالقوة؛ مما يجعلها لا تصفح عنه أبداً.

ربما تحتاج فقط إلى الوقت لتتكيّف؛ فجودي عملية، وإذا منحها أسبوعاً أو اثنين فستجد لنفسها شقة صغيرة ومريحة لتستأجرها، حيث يمكنها أن تستقر وتشعر بأنها في بيتها. لن تكون في أي مكان في وسط المدينة؛ نظراً إلى دخلها، وستضطر للانتقال إلى ضاحية، إلى مكان مثل سكوكي أو إيفانستون، أو على الأقل حتى تطوّر مهنتها وتبدأ باستقبال المرضى بدوام كامل. سيفيدها أن تعامل مهنتها بجدّية أكبر، وأن تعامل *نفسها* بجدّية أكبر، وربما ستحظى حتى بعمل حقيقي، وتجعل تعليمها أكثر نفعاً، وستبلي حسناً في العالم المتحد، وستجني أموالاً جيدة.

أمل أن تسمح له بزيارتها في أي مكان تستقر فيه، وأن يستمر هذا دائماً. ففي لحظات غريبة، حين يترك نفسه على سجيتها،

يشتاق إليها كثيراً، يشتاق إلى طهيها وتعقّلها وسهولة حياتهما معاً. ربما كان للفصل تأثير في شعوره بالحنين. فالخريف قد يكون رائعاً وإنما هو مخيف أيضاً؛ بسبب الظلال الطويلة، والرياح النشطة، والأوراق المتناثرة، والصقيع الوشيك. إنه لا يريد أن يخذل ناتاشا، لكن العودة إلى المنزل لم تعد كما كانت، والفوضى هي أقل الأسباب أهمية، إذ يبدو أنها تزدهر على الهرج والمرج؛ فالجيران يضعون أطفالهم عندها، وهناك أشخاص يأتون لتناول العشاء، بالإضافة إلى الضوضاء الصادرة عن التلفاز حتى حين تدرس. وسيصبح الأمر أسوأ حين يولد الطفل.

رفع درجة الحرارة في البورش، ووجّه تدفق الهواء نحو النافذة الأمامية للحؤول دون انعدام الرؤية بوضوح بفعل الضباب. وكان المذياع يبث إرسال محطة إخبارية. وصوت المذيع متملّق ورخيم ومريح أياً تكن الكلمات التي ينطق بها؛ لا بد أنها تقارير عن كوارث اليوم. تجاوزت الساعة الخامسة بقليل فقط ولكن الليل خيّم بسرعة. وستكون الأيام القصيرة قاسية إن كنت تعيش في الريف، لكن المدينة تنتج ضوءها الخاص؛ سراباً ساطعاً بكل ألوان قوس القزح، وإذا شوهد من الفضاء الخارجي فسيبدو مثل قبة متوهجة؛ مجال قوة المدينة الضخمة حيث يعيش. قاد على هذه الشوارع طوال حياته، وعلى امتداد كل الأرصفة، وقرب كل بناء معروف له في المدينة. وفي أعوام شبابه اعتاد التفكير في أنه يمتلكها، وأن المدينة له؛ بشوارعها، وأبنيتها، ومولدات الكهرباء فيها، ونظام تنقية المياه، وحتى المجاري؛ أي البنى التحتية كلها. وحتى الآن، عندما يكون في الشارع أو يمشي إلى بلاكي أو كراون بلازا، ينتابه شعور بأنه المسؤول.

كم يحب التجول في الأرجاء بسيارته، مصغياً إلى الموسيقى، وناظراً إلى الأحياء، ومراقباً الحياة في الشارع. فحين تكون في سيارتك تشعر أنك في عالمك الخاص وفي العالم عموماً؛ في كليهما في الوقت عينه. ويعجبه تناول الوجبات الخفيفة في سيارته أيضاً، ويحتفظ عادة بشراب السوس أو الفول السوداني المملّح في صندوق لوحة القيادة. هذا ليس مختلفاً جداً - وينبغي له الاعتراف بذلك - عن حب أبيه لحجز نفسه في القبو مع قارورته ومذياعه الصغير. فهو أيضاً لديه عرشه؛ مقعده المبجّل (وفي حال الرجل العجوز لا-ز-بوي متداعٍ) الذي يضعه في مركز العالم، فيجلس هناك مثل ملك مهيب. أحياناً حين يكون في سيارته يراوده شعور بأنه مثل أبيه، فيفهمه قليلاً؛ بالطريقة التي اعتاد أن يومئ بها لنفسه مثلاً، إيماءة بالكاد يمكن إدراكها ولا تتعلق بشيء خاص. إذ يفعل تود هذا أحياناً أيضاً، ويومئ برأسه لتيارات الهواء أو مد حركة السير وجزرها.

19

هي

جلست في مكتب باربرا فيلبس؛ المحامية التي أوصت بها صديقتها ألين. باربرا صغيرة القد وكبيرة في السن؛ ربما في منتصف العقد السابع من عمرها، ذات شعر مخضّب بالحناء، وحاجبين محددين بالقلم، ورسغين نحيلين، وترتخي بذلتها الرسمية على جسدها النحيل، لكنها تجلس أو تقف وقامتها مشدودة مثل عمود. ووفقاً لألين، حصلت باربرا على إجازتها في الحقوق حين كان هذا لا يزال نادراً بالنسبة إلى المرأة. وقد كرّست حياتها المهنية لتحويل زوجات تعيسات يعشن عالة على غيرهن إلى طليقات متحرّرات ينطلقن قدماً إلى الأمام؛ أخوية مطلّقات ناجحات.

تقع مكاتب باربرا في الطابق الأعلى من برج لوب. وهي مزوّدة بأثاث باوهاوس، ولوحات زيتية ضخمة تشهد بإنفاقها أموالاً عليها، كما تشهد بسلطة المرأة التي بنت ممارستها لمهنتها عليها. لقد أجلست جودي على كرسي واسلي، وطرحت عليها بعض الأسئلة التمهيدية. والآن، فيما كانت تستخدم رسالة الإخلاء الموجهة إلى جودي كمروحة لها، راحت تشرح بصبر أن جودي كانت حمقاء لعدم زواجها من تود حين سنحت لها الفرصة؛ لأنه في مثل هذا

الوضع لا يحق لها إطلاقاً أن تطالب بمنزلها.

"من دون عقد زواج لا حق لك في أي شيء يملكه، وأنت الآن تحت رحمته يا عزيزتي. لن نجد قاضياً يُصدر حكماً ضده؛ فالزواج العرفي غير موجود في هذه الولاية"

شعرت جودي أن باربرا قد فشلت نوعاً ما في استيعاب وضعها.

فاحتجت قائلة: "لقد كنت زوجة له لمدة عشرين عاماً، وكل ما لدينا بنيناه معاً. لا يمكنه *إرغامي* على الإخلاء. إذا رفضت، فماذا عساه يفعل؟"

هزّت باربرا رأسها وأجابت: "لا حق قانوني لك بالوجود هناك. وإذا اخترت تجاهل القانون، فستجعلين الأمور أسوأ بالنسبة إليك في النهاية. السيناريو الأكثر ترجيحاً هو أن تُطردي إلى الشارع مع الثياب التي تحملينها فقط، وسيحدث الأمر أمام جيرانك، وأنا لا أوصيك بهذا"

فقالت جودي: "لقد أنشأت له بيتاً، وطهوت له طعامه، ورتّبت المنزل، واعتنيت به. ولا يستطيع طردي الآن لأنه يعتبرني غير ملائمة"

"بلى يستطيع. وحسبما يبدو، سيفعل ذلك"

حاولت جودي فهم هذا؛ إذ إنه لم يبدُ لها منطقياً، وفشل في التوافق مع تصوّرها عن العدالة، لكنها أدركت ما قصدته باربرا، فقالت: "لا بأس، فهمت. إنها شقته"

فقالت باربرا: "صحيح، إنها شقته"

قالت جودي: "لكن، ينبغي له أن يعيلني"

فسألتها باربرا: "لماذا؟"

"لأنه يفعل هذا دائماً، وهذا اتفاقنا"

فقالت باربرا: "على العكس. فبموجب قانون إيلينوي، أنتِ لست مخوّلة بالحصول على أي نوعٍ من التعويض. لكن عند الأخذ بالحسبان كل الظروف، موقفك ليس مريعاً؛ إذ لديك ذاك الإذن الشفهي بأخذ كل غرض تريدينه. وإذا كان صادقاً في هذا، فستتفادين نزاعاً بشأن الأغراض المنزلية، وستتفادين ألم فقدانك ممتلكاتك. إذاً، ستحافظين على كرامتك ومقتنياتك"

فكرت جودي بالأمر في طريقها إلى المنزل، ولكنها لم ترَ الوضع كما صورته المحامية. فكيف تُصان كرامتها بالسماح له بطردها مع مقتنياها أو من دوها؟ إهم يتآمرون عليها: تود، وهاري، وحتى باربرا فيلبس هذه التي يُفترض بها أن تكون إلى جانبها. ما يفعلونه قد يكون قانونياً، لكنه ليس إنسانياً أبداً.

عندما وصلت إلى المنزل، خلعت معطفها وحذاءها، واستلقت على الأريكة. ورغم أها غير معتادة على النوم في مثل هذا الوقت، إلا أها شعرت بأها مثل صخرة تغرق في مياه موحلة. وعندما فتحت عينيها مجدداً، كانت السماء خارج النوافذ قد فقدت لوها وتركت الغرفة في ظلمة جزئية، فنهضت، وخلعت بزّة فالينتينو، وقدّمت للكلب عشاءه. وفيما كانت تراقبه وهو يأكل، لم يسعها إلا أن تتمنى لو أها تتمتع بنصف شهيته. وقفت أمام الثلاجة المفتوحة بتردّد، ونظرت إلى محتوياها. وفي النهاية، أخرجت زجاجة من الشراب، وسكبت كمية صغيرة. ورغم أهـا لا تتناول الشراب بمفردها عادة، إلاّ أن هذه مناسبة خاصة، وتتطلّب احتفالاً من نوع

ما. وهي دائماً امرأة تتولّى مسؤولية حياتها؛ شخص يتدبّر أموره جيداً. لكنها اليوم تتداعى، ويتبين لها أن كل ما يتطلّبه الأمر هو دفعة صغيرة؛ ركلة رقيقة، وأن وضعها غير مستقر إلى الحد الذي كانت تعتقده. فبعد مرور عقدين من التصديق بأن طريقة حياتها آمنة، ها قد اتضح لها الآن أنها كانت تتعلّق بشعرة. فمنذ انتقالها للعيش مع تود كانت حالها جيدة؛ مثل وهم، وليست هناك طريقة أخرى للتفكير في الأمر. لقد بنت حياتها على أرضٍ غير مستقرة، والشخص الذي ظنّت أنه هي لم يكن له وجود قطّ.

تجرّعت شرابها وسكبت المزيد. ثلاثون يوماً؛ هذا ما مُنحت إياه. لديها ثلاثون يوماً لتنزع نفسها من وقتها الحاضر، كما تُنزع الشظية من لحم حي. هذا ما آل إليه الأمر؛ فقد اختُزلت إلى حالة جسم غريب في بيئتها الحميمة.

إنها تعرف نساء قد اختبرن أمراً مماثلاً، ولا تمثّل أي منهن بأي حال نموذجاً يحتذى؛ فأولئك النساء - اللواتي يتضمّن صديقتها ألين - لم يكتسبن أي درجة من الحكمة أو الفضل، أو ينجحن في استعادة أعوامهن الضائعة. ورغم هذا، فأحوالهن أفضل مما ستكون عليه حالها؛ فعلى الأقل ستحتفظ معظمهن بمنازلهن.

سيخوض مختصو أدلر نقاشاً محموماً بشأن هذا؛ أي الفوضى التي جعلت الأمور تؤول إليها. وهم ماهرون في اكتشاف الخطأ في طريقة حياة المريض؛ المنطق الخاص السخيف والافتراضات الرعناء. فرغم كل تلك الامتيازات والفرص التي كانت متاحة لها، ها هي تصل إلى حائط مسدود. ويمكن أن يحدث هذا؛ لأنها افترضت جدلاً أن الحياة ستعاملها بإنصاف، وأن لا حاجة إلى النظر قدماً أو الحذر.

كان ذلك نموذج غرور، وهي تدرك ذلك الآن، ولو أن جيرارد هارتمان قد لاحظ هذا آنذاك حين كانت مريضته، لصحح مسارها في الوقت الملائم. فعلاً، يبدو من المرجح تماماً أنه ربما كان جيرارد سيتمكن من إنقاذها من نفسها لو أنها سمحت له بذلك، ولو أنها تابعت العمل معه؛ فقد كان يعرف عمله، ويمتلك حاسة سادسة بشأنها تجعله يمضي قدماً؛ رغم حقيقة أنها لم تبدُ حينها أنها تعاني أي مشاكل، ولم تكن - برأيها الخاص على الأقل - بحاجة إلى خدماته.

وغني عن القول أن جلساتها مع جيرارد لم تكن مضيعة للوقت. فعندما تطرّقا إلى علاقتها مع رايان رأت أنها عقدة ينبغي حلّها، والكشف عنها لم يكن مؤلماً إلى حدٍّ كبير. كان جيرارد يجيد ما يفعله فعلاً؛ إذ كان ماهراً ومُطّلعاً، ويتمتع ببصيرة استثنائية، فضلاً عن كونه أكثر الباحثين لطفاً ودماثة.

جيرارد: بشأن نوبات غضب رايان، ذكرت كوابيس وجروحاً ألحقها بنفسه. ما كانت المشكلة تحديداً؟

جودي: كان يستيقظ في بعض الليالي وهو يصرخ، ويستمر في الصراخ والركل ولا يهدأ. وفي أوقات أخرى، كان يعض نفسه حتى ينزف دماً، فيجرح ذراعه أو كفه.

جيرارد: هل أُخذ إلى الطبيب من أجل هذه المشكلة؟

جودي: لا بد أنهما قد أخذاه إلى الطبيب؛ هذا مؤكد.

جيرارد: هل تعرفين إن كان هناك أي نوع من التشخيص أو العلاج؟

جودي: لم تُشخّص حالته قطّ بأنه يعاني اضطراباً ذهنياً؛ إن كان هذا ما تعنيه. فقد كانت مجرد مرحلة، وقد تجاوزها في نهاية المطاف.

جيرارد: متى كان رايان يتصرّف هكذا؟ وكيف تعامل والداك مع الأمر؟

جودي: أنا من تعامل مع الأمر؛ فتلك كانت *مهمتي*.

جيرارد: كيف أصبحت تلك *مهمتك*؟

جودي: أصبحت مهمتي لأن والديَّ جعلا الأمور أسوأ فقط. فأبي يريد انضباطاً كاملاً، وأمي - كما تعرف - كانت تقف هناك وتفرك يديها بيأس.

جيرارد: هل طلب منك والداك التدخّل، أم إن تلك كانت فكرتك؟

جودي: أظن أنها كانت فكرتي في البداية، ثم بعد مرور بعض الوقت افترضا فقط أنني سأتعامل معه.

جيرارد: وكيف جعلك هذا الأمر تشعرين؟

جودي: أوه، بدا شيئاً رائعاً. فقد هدأ رايان، وهدأت أمي، واسترخى أبي، وعاد كل شيء إلى طبيعته.

جيرارد: وافتراضهما أنك ستعالجين الوضع، وأن تلك مهمتك، كيف جعلك تشعرين؟

جودي: أظن أنني سأقول إن شعوراً رائعاً غمرني. فقد كنت مجرد طفلة، وقد حظيت بكل تلك السلطة والمسؤولية. أظن أن هذا منحني نفوذاً، وكان له بالتأكيد تأثير في صورتي الذاتية، ثم في النهاية طبعاً

أثّر في اختياري لمهنتي. أعني حقيقة أنني كنت الشخص الوحيد الذي تمكن من جعل رايان أفضل حالاً.

جيرارد: ذكرت المسؤولية، كيف شعرت بشأن تولّي مسؤولية شقيقك؟ فقد كنت مجرد طفلة آنذاك كما قلت.

جودي: أحببت رايان كثيراً، وكانت مساعدتي إياه مكسباً لي. لم أفكّر في الأمر مرتين.

جيرارد: هل انتقل ذلك الإحساس بالمسؤولية عن رايان معك إلى حياتك كراشدة؟

جودي: هل تسألني إن كنت أشعر بالمسؤولية عن رايان الراشد الآن؟ رايان الذي ليس طرفاً في علاقة حقيقية، ولا يمارس عملاً ذا مغزى، ولا يتكلم مع معظم أفراد أسرته؟ في الواقع، رايان الذي يهزأ كثيراً بمهمات الحياة الأساسية لدى أدلر؟ هل أشعر بالمسؤولية عن رايان ذاك؟

جيرارد: نعم.

جودي: لم أتوقع أن تطرح عليّ هذا السؤال. حسناً، ربما أفعل، بالتأكيد. طبعاً أشعر بمسؤولية تجاهه؛ على مستوى معين كما أفترض.

جيرارد: لماذا تظنين أنك تشعرين هكذا؟

جودي: ألن تفعل ذلك لو كنت مكاني؟ أعني، ألن يفعل أي شخص ذلك في تلك الظروف؟

جيرارد: كيف تصفين *تلك* الظروف؟

جودي: لا بأس، ربما ما أشعر به ليس المسؤولية تحديداً، وإنما فلنقل القلق. فأنا أودُّ أن أتمكّن من مساعدته، لكن لا يمكنني هذا؛ فهو لن يسمح لي بذلك.

جيرارد: وما سبب قلقك برأيك؟

جودي: أريده أن يكون سعيداً، وأن يكون ناجحاً. وعندما يصبح رجلاً عجوزاً وينظر إلى الوراء، إلى حياته، أريده أن يشعر أنه اتخذ خيارات جيدة، ولم يهدر فرصه هباءً، وأنه كان لديه هدف من نوعٍ ما حقّقه وأنجز شيئاً.

جيرارد: لنتكلم عن *هدفك*؛ الهدف من قلقك.

جودي: ماذا تعني؟

جيرارد: ماذا سيحدث إن توقفت عن القلق على رايان؟

جودي: هل تظن أن قلقي مشكلة؟

جيرارد: برأيك، ما الغاية التي يحققها قلقك؟

جودي: هل يحتاج القلق إلى غاية؟

جيرارد: هل تظنين أن قلقك بشأن رايان يفيده؟

جودي: لا بأس، أصبت، فهمت، أدرك قصدك الآن. طبعاً هذا لا *يفيده*، وإنما *يفيدني* أنا. فما دمت أقلق بشأنه، فبإمكاني أن أشعر أنني على الأقل أبذل جهداً، ولم أتخلَّ عنه.

جيرارد: هل تظنين أن هذا ما ستشعرين به إن لم تقلقي؟ أعني أن تشعري بأنك قد تخلّيت عنه؟

جودي: على الأرجح، نعم.

جيرارد: وبمَ ستشعرين أيضاً؟

جودي: أظن أنني سأشعر بأنني قد حطّمت عروتنا، ولن أحس بأي رابط بيننا. لأن الحقيقة – فكّر في الأمر – أنني لا أراه أو أتواصل معه إلا نادراً. إذاً، كيف نكون مرتبطين إذا لم أقلق؟

جيرارد: إذاً، عندما تقلقين بشأن رايان فأنت تشعرين بأن هناك عروة تربط بينكما. وإذا توقفت عن القلق، وفقدت ذلك الشعور بالعروة، فما الذي سيحدث آنذاك؟

جودي: سأقلق بشأن فقدان العروة، وأظن أن هذا يبدو سخيفاً.

جيرارد: لا، ليس سخيفاً. لكن، قد تكون هناك طرائق أفضل من القلق لإبقاء عروتك مع رايان مفعمة بالحيوية.

جودي: على سبيل المثال؟

جيرارد: أودُّ منك التفكير في هذا. لنقل إنه واجبك المنزلي.

20

هو

اتصلت به ناتاشا حين كان في طريقه إلى القاعة الرياضية، وأرادت منه أن يعود إلى المنزل بحلول السابعة، وأن يحضر زجاجة من الشراب لأجل العشاء؛ وتلك هي طبيعة ناتاشا. لم تجعله جودي ينجز المهمات في آخر لحظة مطلقاً. ولا يعني هذا أنه يمانع إحضار الشراب، وإنما ما أزعجه هو طريقة طلبها منه ذلك؛ كأنه شيء متوقع، وكأنها تتولّى زمام المسؤولية. سيود أن يعرف ما قد حلّ بمبدأ *الأخذ والعطاء*، فهي لا تحافظ على المنزل نظيفاً أو حتى تطهو العشاء، ومنذ لحظة دخوله عبر الباب تجعله يعمل في المطبخ.

انعطف ليخرج من ميتشيغان إلى آدمز، وعاد أدراجه إلى متجر الشراب في برنترز رو. وجد المكان مكتظاً، وهناك حشد من الناس المصطفين عند أمين الصندوق. وبحلول وقت خروجه من هناك اكتشف أن وقت تدريبه قد مدّ، فقرّر تناول الشراب بدلاً من ذلك؛ إذ مضى وقت طويل منذ أن جلس في مقهى وتناول شراباً. في البداية، لم يمانع كثيراً مراقبتها له. ونظراً إلى أنها بنصف عمره وجد الأمر مطمئناً. لكن هذا النوع من السلوك لا يمكن أن يستمر إلى أجلٍ غير محدد، والأمور مختلفة الآن؛ فهي حامل ولا تذهب إلى أي مكان.

سيتوقف لجولة سريعة وليكن ما يكون. وعلى الأقل، سيعود إلى المنزل في الوقت الملائم لتناول العشاء. ستشمُّ رائحة أنفاسه وستثير شجاراً. لكن لن يكون الأمر سيئاً كما جرى حين عاد عند الثالثة بعد منتصف الليل بعد زيارته جودي. لم تصدّق ناتاشا أنه قد أمضى كل ذلك الوقت مع هاري؛ رغم أن طريقة سرده القصة بدت في ذهنه معقولة تماماً: "بقينا في المقهى حتى أغلق أبوابه، ثم ذهبنا إلى مطعم يفتح طوال الليل لتناول اللحم المقدّد والبيض

غير أنها قالت له: "كنت مع جودي"

وفي النهاية، أرغمته على الاعتراف. لكنه قال إنه رأى جودي لوقت قصير فقط كما زعم، وقبل لقائه هاري، وليس بعد ذلك. برّر ذلك على الأقل الثياب التي جلبها معه. ولم يكن سيشعر بضرورة إخفائه الأمر عنها - كما أضاف - لو لم تكن مهووسة بالسيطرة.

وصل إلى *دريك* وجلس إلى إحدى الطاولات، وشعر بأنه عاد إلى بيته. كان يحب الخشب والجلد اللامعين، والصفوف المتألقة من الكؤوس، ودندنة الأصوات، والتدافع للتحرّك بحرية، وأول كأس من الشراب التي وضعها صديقه النادل أمامه. ضبط الهوائي الخاص به على الترحيب والتحيات حوله، والإحساس بالتحرّر والعتق الذي ينتاب الشخص حين ينتهي من العمل ويجلس لتناول كأس من الشراب، والأيونات والنشاط الجنسي المتدفّق، وموجات الكلام والضحك، والآمال والتوقّعات المرتفعة.

جالساً على كرسيه بعد غياب طويل، استسلم لإخلاص هش؛ لوقار هذا الملتجأ المضياف بتجهيزاته وطقوسه الطريفة، وأدوات الخلط فيه، والأقداح، والفلوت، والكؤوس، والبصل المخلّل،

والصُحيفات الورقية المميزة، وغمغمة المحتشدين فيه... يجعلـه هـذا المكان يفكّر في دار العبادة التي اعتاد الذهاب إليها مع أمه التي ربّته ليكون كاثوليكياً، أو حاولت هذا؛ فهو لم يستطع إطلاقاً توجيه تفكيره في ذاك الاتجاه، وإنما كان مفتوناً منذ البداية بسحر الأحداث: المواكب المهيبة، والثياب الملوّنة، ومبخّرات الدخان، والإنشاد والغناء. وأحب حقيقة وجود شيء يتغير بطبيعته. وكما كان الأمر في دار العبادة، فهو يشعر بالأمان هنا أيضاً. وهو هنا للحصول عليه؛ فنحن جميعاً وسائط لحقائقنا الأساسية الخاصة، وكل ما نملكه في الحياة حقاً هو القوة التي تحرّكنا في أيامنا؛ قوتنا الفطرية غير المصقولة أو المكتسبة بالثقافة والحاضرة دائماً. فاعلية الحياة هي الشبح المبجّل في كل منا.

كان شعوره بالاستقلالية قوياً داخله في أيام شبابه وطفولته؛ حين تعلّم تمييز نفسه عن والديه، وحين تحرّر واكتشف العالم الكبير، وحين شعر ببهجة التواجد في ذلك العالم، وحين وجد موطئ قدم في العمل، وشعر بقوته وعتقه من اللوم، وحين قابل جودي لأول مرة وعرف معها جوهر الصلة الحميمة. إنه عاشق في حب العالم. وعندما يكون بحال جيدة، يرد العالم بأبهى صوره. هكذا يحب أن يعيش كل لحظة من حياته، ويرغب في أن تنكشف كلها، وأن ينظر إلى عين الغموض السافرة، ويكون مشاركاً وطرفاً، وليس مراقباً أو رحّالة أو نادماً.

لا يرى بعض الناس الأمر بهذه الطريقة، وجودي واحدة منهم؛ لكنْ لا يمكنك أن تعيش حياتك بقوانين شخص آخر. وجودي معجبة به رغم هذا؛ فهي معجبة بنجاحه، وقدرته على تحقيق

طموحه، والسير في حقل أحلامه. وهو يحب أن يُعجب جودي؛ فإعجابها به قد رفع معنوياته وشجّعه بمرور الأعوام، وأصبح بفضل ذلك منضبطاً قليلاً، بما فيه الكفاية لضبط إيقاعه وإبقائه ثابتاً على مساره. كان بمقدوره أن يسلك طريقه من دونها، لكنه معها حظي بهذا الزيت النفيس لتروسه؛ فليس كل الرجال محبوبين هكذا. وحتى إن حب أمه له بدا عُرضة للخطر؛ إذ ابتُلي بذنبها، وحتى إنه انحرف قليلاً بسبب إخلاصها لأبيه.

رافقته جودي في حياته لوقت طويل؛ في أيام عاشها، وكلمات نطقها، ومشاعر انتابته، وتاريخ متراكم، ومقدار من المعنى. حياته مع جودي كنز مُدّخر؛ موجود في رزمة ومخزّن في تجويف صدره، وليس خطأها أنها لا تستطيع إنقاذه من نفسه. ما يخشاه الآن هو أن يُفتح الثقب الأسود مجدداً، ويشعر أحياناً بأنه يجذبه إليه. لذا، يجب أن يكون انتهازياً ويستغل الفرصة حين تسنح له؛ في عتمة المقهى بعد الظهر، أو في ليلة ماطرة يكون فيها الرصيف نهراً من الصور المنعكسة... والحب بالمحصلة كلٌ لا يتجزّأ، وحب شخص ما كثيراً لا يعني حب شخص آخر أقل، والإخلاص ليس بناء وإنما هو شيء تحمله داخلك.

نزع سترته وألقاها فوق ظهر مقعده. ستنقضي ربما نصف ساعة قبل أن تشعر ناتاشا بالقلق، وساعة بعد ذلك قبل أن يحين موعد العشاء. طلب شطيرة لحم مع كأسه الثانية، وابتلعها في ثلاث لقمات أو أربع، لكنه تمهّل بتناول الشراب. إنه لا يُسرف في احتساء الشراب مثل أبيه. وحتى عندما يتناول أكثر مما ينبغي، فهو يعتبر ذلك مكافأة صغيرة له بعد يوم من العمل؛ مكافأة كسبها واستحقها؛ فهو

معيل جيد ويهتم بعمله، بخلاف أبيه أيضاً. كان الرجل العجوز مزعجاً حقاً؛ وما أثبت ذلك حقيقةُ أن أحداً لم يحضر جنازته. على الأقل، عاشت أمه بضعة أعوام جيدة بعد وفاته.

متذكراً ناتاشا، ربت على الهاتف في جيبه. فإن اتصلت فسيحاول طمأنتها، فقد ازدادت الشجارات بينهما مؤخراً، وقلّت المتعة واللطف القديمان. إنها غير مستقرة أساساً، وتلك مشكلتها، وينبغي أن تتلقّى درساً من جودي التي لم تحاول قط إدارة حياته أو إثارة نزاع معه.

وبحلول وقت اتصالها كان يُنهي شطيرته الثانية. وقبل أن يرد على مكالمتها تناول آخر لقمة مع جرعة من الشراب.

قالت له: "يبدو أنك في المقهى

"توقفت لتناول كأس من الشراب في طريقي إلى المنزل"

"ألم تذهب إلى القاعة الرياضية؟"

"لم أحظَ بوقت كافٍ"

"هل أنت في المقهى منذ أن غادرت العمل؟"

فقال لها: "تعرفين كم أحبك"

غير أنها أجابت: "ليس هذا بيت القصيد"

"أظن أنه بيت القصيد. أنتِ جميلة وأحبك وهذا هو المهم"

"لو أنك تحبني لجئت إلى هنا. سنستقبل ضيوفاً إلى العشاء، هل نسيت؟" صوتها يكاد يزعق.

فقال لها: "حاولي أن تهدئي، أنا أتناول كأساً من الشراب فحسب"

فسألته: "هل يوجد أحد معك؟"

فأجاب: "لا، أنا بمفردي"
"أفترض أنك نسيت جلب الشراب"
"لا، إطلاقاً"
"هل أحضرت زجاجة الشراب؟"
"نعم، أحضرها"
"أريد منك المجيء إلى المنزل الآن"
"حسناً، إذا أردت مني المجيء إلى المنزل، فسآتي"
"لا تنهِ الاتصال، سأنتظر على الهاتف في حين تدفع فاتورتك. هل دفعت فاتورتك؟"
"لا، لكنني سأدفعها إن كان هذا ما تريدينه"
"أريدك أن تدفع حسابك، وسأنتظرك"
"أنا أفعل هذا الآن، أدفع فاتورتي"
وأشار إلى النادل، وأخرج محفظته.
فقالت له: "أخبرني ما إن تنهي دفع فاتورتك"
أنهى الدفع وشرب ما بقي في كأسه، ثم قال: "لا بأس. لقد دفعت فاتورتي، وسأغادر المقهى
"هل وقفت الآن؟"
"نعم، أنا واقف" ونهض عن كرسيه. "وأمشي إلى الباب"
فقالت له: "كنت تتكلم مع شخص ما"
"كنت أتكلم مع النادل"
"ماذا قلت؟"
"أخبرته أن يحتفظ بالفكّة"
"هل غادرت المقهى الآن؟"

"نعم، لقد غادرت، وسأنهي المكالمة الآن"

"أريد منك أن تأتي إلى المنزل حالاً"

"سأنهي المكالمة الآن"

21

هي

لم تغادر الشقة طيلة ثمانية أيام. ورغم أنها لم تكن تظن أن ذلك ممكناً، إلا أن كل احتياجاتها تمّت تلبيتها بسهولة. ومن أجل ضرورياتها اليومية – البقالة، ومستحضرات التزيين، والأقراص المدمجة، وأشياء مماثلة – كانت تتسوّق إلكترونياً. وكان البواب يُحضر لها بريدها، ويأتي شخص ما لإخراج الكلب في نزهة ثلاث مرات في اليوم؛ صباحاً، وبعد الظهر، ومساء، ومعظم ما تحتاج إليه موجود في متناول يدها؛ لأنها تحب شراء كميات كبيرة وتخزين الأشياء. ورغم هذا، إن قضاءها كل دقيقة من وقتها في المنزل يقرع ناقوساً. ومع فقدانها النشاط في العالم الأوسع الذي تعتمد عليه عادة لتحفيزها، وجدت أن الحياة العادية تتمتع بصفة حالمة. وكان لديها إدراك لتلاشي الحقيقة. ثم إن عدم انشغالها بأعمال كافية جعل أيام الخريف المضغوطة أصلاً أقصر من قبل، لذا ليست هناك إلا حدود قليلة، وانتشر ضعف الإحساس بالوقت عبر أماكن وأحداث، ونحت ساعات ضوء النهار إلى الاختفاء بعد مرور وقت قصير. وكانت الشمس تشرق وتغرب، من دون أن تحصل أشياء كافية بين ذينك الوقتين. ومن جهة أخرى، كانت لياليها طويلة على نحو لا يمكن تفسيره؛ رغم خوائها التام.

وفي عزلتها، بدأت تتوهّم أحداثاً مستقبلية ممكنة في عقلها؛ سيناريوهات يزداد خوفها منها كلما أمعنت التفكير فيها. كانت تتوقّع غارة من النوع الذي تراه في الأفلام الحربية، وسفّاحين يرتدون زياً موحداً يخترقون الباب ويسحبونها ليلاً. كما تخيّلت فعل خيانة من أحد الأشخاص الذين تفتح الباب لهم عادة: أحد المرضى، أو البواب، أو الفتى الذي يسلّم البقالة. وكانت تفهم في لحظات من الهدوء أن هذا القلق غير عقلاني، وأنهم إذا كانوا سيأتون من أجلها فسيفعلون هذا في النهار، وسيُدخلهم تود باستخدام مفتاحه. لكن شعورها بالخوف كان يزداد ليلاً. وبين المغيب والفجر لم يكن هناك وقت تحس فيه بالأمان.

الشيء الوحيد الذي ينبغي أن تحصل عليه هو أقراص منوّمة، فالمهدّئات لا تُجدي نفعاً معها. ومن أجل الحصول على وصفة، ينبغي لها أن ترى طبيباً. لقد فكّرت بشأن تجربة مصدر إنترنت، لكن شراء الأدوية إلكترونياً سيكون مثل ابتياعها من الشارع. لم يكن الأرق مشكلة تعاني منها في الماضي مطلقاً، لكنه أخيراً أصبح سيئاً جداً؛ ممّا جعل عينيها تطرفان ورؤيتها تتشوّش. وتمنّت الآن لو أنها احتفظت بزجاجة الإسزوبيكلون الخاصة بناتاشا؛ إذ إن جعل تود يتناولها لم يحقق شيئاً.

انقضت أوقات كانت تغفو فيها، لكنها كانت تحلم حينها؛ فيكون كل شيء مضطرباً ومشوّشاً. وعندما كانت تستيقظ كانت تشعر بأنها أسوأ من قبل. ومن دون حبّة منوّم جيدة تجعلها تفقد وعيها من الأفضل لها ألا تنام إطلاقاً. وقد اعتادت الجلوس إلى حاسوبها حتى ساعات الفجر الباكرة وهي تلعب ألعاب الورق، أو تحمل بطانيتها إلى الأريكة حيث تشاهد الأفلام. وكانت قد اعتادت

سابقاً على القراءة حتى تنام، لكنها تفتقر في هذه الأيام إلى التركيز الكافي الذي يسمح لها بالقراءة. وأفادها إبقاء كأس من الشراب بجانبها، وارتشافها منها مع انقضاء الساعات ببطء. كما أحبت طعم الشراب اللاذع؛ ممّا جعلها تشعر مثل دمية قماشية فقدت حشوها.

لكنها بحلول الصباح تكون مرهقة وشبه فاقدة للتركيز. ولتجهّز نفسها لمرضاها، كانت تقضي وقتاً طويلاً في الاغتسال، وتشرب الكثير من القهوة، وتتبع ذلك باستخدام غسول الفم ليسترين. فمع تهديد أمنها، من المهم جداً ألا ينفر منها مرضاها. وكانت تبذل قصارى جهدها للحفاظ على المظاهر، لكن مشاكلها انبثقت على وجهها ليراها الجميع؛ فالامتقاع المخيف صار أسوأ من قبل، والجفنان منتفخان، وهناك هالتان سوداوان حول عينيها، واللحم مترهّل؛ وكلها علامات عالمية تشير إلى تدهور الحال. ورغم ترقيتها صداقتها مع التبرّج، إلا أن حُمرة الخدود ومساحيق التجميل لا يمكنها أن تفعل الكثير. لم ينبس أيٌّ من مرضاها بكلمة في ما يتعلّق بحالتها، إلا أنهم بالتأكيد يتساءلون. ومع تشتّت تركيزها، لا يكون من السهل عليها متابعة ما يقولونه في الجلسات. والأهم من ذلك كله أنها أصبحت مزاجية وحادة الطباع. وفي معظم الأيام، ومع معظم المرضى، كانت تصل إلى حافة فقدانها رباطة جأشها في منتصف الجلسة.

ما تفعله الآن هو الوقوف بجانب النافذة، والنظر نحو الخارج إلى المشهد الظاهر أمامها. رأت السماء مرقّطة بالغيوم التي تجثم منخفضة فوق البحيرة، وتمطر رذاذاً مثل حيوان ضخم يُريح نفسه. وجعلها تساقط الماء المتقطّع ولونه الطيني تفكّر في مجارٍ تغلي. هذه ليس غلطتها، لا شيء ممّا حصل غلطها؛ فقد بذلت قصارى جهدها

لإنجاح الأمر مع تود، وتحلّت بالتسامح والتفهّم والصفح. لم تكن جشعة أو متملّكة، ولم تشبه النساء اللواتي يظهرن في برنامج د. *فيل*، ويتداعين حين يضلّ أزواجهن الطريق بعيداً عنهن. ياه! تتعرّض نساء في كل أنحاء العالم إلى أمور أسوأ منذ قرون، ورفاق الروح فكرة لطيفة لكنها نادراً ما تنجح بالممارسة، ومستشارو الزواج مثل د. فيل يرفعون الآمال عالياً، ويعلّمون نساء أن يتوقّعن الكثير، ويضعون حداً للاستياء. غير أننا نعيش بمفردنا في ذواتنا الفوضوية، وتمتلكنا معتقداتنا المتأصّلة، ورغباتنا السخيفة، وتناقضاتنا التي لا تنتهي. وسواءٌ أحببنا هذا أم لا، ينبغي أن نتحمّل هذا، ونتقبله لدى بعضنا بعضاً. *هل تريدين أن يكون رجلك رجلاً، أو ترغبين في تحويله إلى هرّة؟ لا تظني أنه بمقدورك الحصول على الأمرين معاً*. وهي لم ترتكب ذلك الخطأ مع تود، ومنحته مساحة كبيرة، ولم يكن لديه ما يشتكي منه. لذا، إن ما حصل بالتأكيد ليس غلطتها.

اليوم هو الأربعاء، وتأتي كلارا للتنظيف في هذا اليوم. وهي امرأة متزوجة لديها أبناء مراهقون، وتعمل بالتنظيف بدوام جزئي لزيادة دخل أسرها. وصلت كلارا عند الساعة الواحدة، وأمضت أربع ساعات وهي تفرك وتلمّع وتكنس وتغير الملاءات وتهتم بالغسيل. وأسلوبها هو العمل في كل الغرف معاً، ممّا يعني أن تفاديها مستحيل تقريباً. لذا، كانت جودي تحاول دائماً أن تكون في الخارج حين تصل كلارا. على الأقل، هذا ما اعتادت عليه قبل أن تصبح في هذه الورطة. واليوم، دخلت كلارا المنزل كالمعتاد، وكاد يُغمى عليها من شدة الفزع حين وجدت جودي في المطبخ. فهذه هي المرة الأولى التي يقع فيها بصر إحداهما على الأخرى منذ شهور.

سألتها: "ماذا تفعلين هنا يا سيدة غيلبرت؟ هل أنت مريضة؟" كانت تتوخّى الحرص في انتقاء كلماتها. ورغم أن إنكليزيتها جيدة، إلا أنها تتكلم بلهجة هنغارية قوية.

أجابتها جودي: "أنا بخير، شكراً لك. أرجوك تابعي العمل كما لو أنني غير موجودة، وسأحاول الابتعاد عن طريقك"

في هذه اللحظة، كلارا غائبة مؤقتاً؛ لأن جودي أرسلتها لتنفيذ عدّة مهمات، وأعطتها عدة شيكات لتودعها في المصرف، وطلبت منها سحب بعض المال وشراء زجاجة شراب. يمكنها أن تطلب من إحدى صديقاتها المساعدة بهذه الأعمال، لكن ذلك سيتطلّب تقديم تفسيرات. وحتى الآن، لا تعرف صديقاتها بشأن التطوّرات الأخيرة في حياتها، ولا حاجة إلى أن يعرفن ذلك، ولا ينبغي لهن أن يعرفن مثلاً أنها ليست كما كانت تظن نفسها؛ الغصنَ القوي الذي ينحني أمام الريح ولا ينكسر؛ المرأةَ التي تتجنّب الإحراج بالضحك وقد امتهنت مساعدة الآخرين ليكونوا أكثر مرونة؛ مثلها. في الماضي، اتصفت دائماً بأنها منفتحة مع صديقاتها، لكن ذلك حصل أثناء وجودها في القمة. وجودي غير القادرة على التغلب على مشاكلها شخص ينبغي ألا يروه. بالإضافة إلى هذا، لا يمكنها أن تُقرَّ إلا بالكاد - حتى لنفسها - بالشيء المروّع والقاسي الذي يحدث لها. وهي لا تفكّر في معظم الوقت إلا في تجاوز العقبة التالية في يومها؛ أي المرضى، وقائمة التسوّق، ونظرة الاستفسار البادية على وجه البواب حين يسلّمها البريد، والمفاضلة التي تجريها بين تناول وجبة ملائمة وعدم تناول أي شيء على الإطلاق.

لم يكن إخفاء الأمر عن صديقاتها أمراً صعباً. والوحيدة التي سبّبت لها مشكلة هي أليسون التي جعلت مهمتها الاتصال بها كل

يوم. أليسون صديقة جيدة. وفي هذه الأيام، ينبغي أن تقول إنها أفضل صديقة، وبالتأكيد الشخص الوحيد الذي يحاول أن يكون موجوداً من أجلها. اهتمام أليسون محبّب، ولا أحد يمكنه تقديرها أكثر مما تفعل جودي. ولكن، ينبغي لها الآن أن تحافظ على تركيزها، وتدّخر طاقتها، وتكرّس نفسها من أجل إبقاء بيتها قائماً.

بعد عودة كلارا مع زجاجة الشراب والمال ووصل المصرف، أوصدت جودي الباب على نفسها في غرفتها، وانتظرت الضوء الوامض بشكل متقطّع في هاتفها. كانت تدرك أن هناك أشخاصاً يتصلون بها، لكنها كانت تنظر إلى الاتصالات التي تتلقاها هذه الأيام بعين الريبة؛ وكأنها ترى كلباً ينبح. كانت كل يوم أو اثنين تراجع قائمة المكالمات الفائتة، وتصغي إلى رسائل منتقاة؛ وبعضها من تود، ولكنه ليس تود الذي تعرفه وتحبه. فتود الآن مختلف. واليوم، اتصل بها تود المختلف من هاتفه الخلوي باكراً في الصباح. حاولت الاستماع إلى الرسالة التي تركها لها، لكنها وجدت صعوبة في سماعها مع قيام كلارا بتنظيف المكان؛ فقد شغّلت المكنسة الكهربائية التي راحت تصطدم بباب مكتب جودي أثناء عملها على العتبة والألواح. وضعت جودي يداً فوق أذنها الثانية، وحاولت جاهدة اكتشاف ما قاله. قال شيئاً ما عن كابوس، وبدا مذهولاً. لكنها لم تستطع فهم جوهر الأمر مع كل الضجيج الصادر من الخارج. وبأي حال، لم تتحلَّ بالصبر الكافي لتفكر في الأمر أقل من ثانية، وسرعان ما ضغطت على زر المحي.

22

هو

كان في سيارته يقود جنوباً في شارع كلارك، متجهاً إلى والغرينز عند كلارك وليك من أجل وصفة حبوب ذات شكل معيّن مضادة للفطور. وقد ثُبتت كرة قطنية في مكانها بواسطة شريط لاصق، وغطّت الثقب في منحنى ذراعه حيث اخترقت الإبرة جلده. لقد ترك خلفه في مكتب الطبيب قارورة من دمه. وكانت تلك العيّنة من دمه ستُحلّل من أجل عدد كبير من الأمراض المنقولة جنسياً، ومن بينها الزهري، وداء المتدثّرات، والسيلان، إضافة إلى نقص المناعة المكتسب. رفض د. روبن التعليق على احتمال أن يكون فيروس نقص المناعة البشري سبب الأذيّة، التي يظن تود أنها أكبر الآن عما كانت عليه من قبل، وقال: "لننتظر نتائج التحليل" اعتبر تود قوله هذا دلالة سيئة. ولديه الآن أيام قبل معرفة النتيجة؛ أيام مليئة بالقلق والهواجس التي ينبغي أن يبقيها لنفسه. وطبعاً لا يمكنه أن يقول شيئاً لناتاشا. ماذا سيحدث إن شعرت بهذا الأمر؟ المفارقة أنه ليس لديها سبب لشكوكها؛ فهو لم ينظر تقريباً إلى أي امرأة أخرى منذ أن صار معها.

احتاج الطبيب إلى محاولتين حتى نجح في إدخال الإبرة في الوريد. لكن تود لم يشعر بشيء تقريباً. فهو لم يكن يفكر بشأن

الإبرة، بل كان مشغولاً بأفكار نقص المناعة المكتسب؛ الفيروس الذي ظهر في الصورة مثل كرة مشوّهة، تومض وتتوهّج على نحو مريع؛ صورة مستلهمة من أشكال موجودة على الإنترنت. لا يسعه إلا أن يتساءل عن العقول الشريرة التي استطاعت ابتكار تلك الصور. فبقطر يبلغ أربعة أجزاء من المليون من البوصة، يُعتبر الفيروس خارج نطاق البصر، وصغيراً جداً ليضم أشكالاً خضراء وزهرية وبرتقالية. وحتى تتمكن من مشاهدته، ستحتاج إلى مجاهر رولز-رويس؛ من النوع الذي يمكنه تكبير شيء ما إلى أضعاف حجمه الأصلي بحوالى نصف مليون مرة. إلى حدٍّ معين، ولأنه ضئيل جداً، فالفيروس غير ضار. وهو لا يمثّل تهديداً إلا حين يكون بأعداد ضخمة جداً. وكما هي الحال مع النمل أو النحل، يحتاج تحوّله إلى عبء إلى فيلق منها. لكن هذا الفيروس ما إن يصبح داخلك حتى يُنشئ منزلاً له، ويتكاثر بهدوء مستخدماً جسدك كمصنع؛ فيستنفد مواردك الطبيعية للاستنساخ، وإنشاء قاعدة سلطته، وتلويث دمك، وتحويلك إلى خيال علمي. أما أنت فتمشي في الأرجاء غافلاً عما يحدث داخلك، وكأن شيئاً لا يحدث؛ إلى أن تكتشف يوماً ما عند طبيب الأسنان أن حياتك تكاد تنتهي.

لم يعد هذا الفيروس قاتلاً بالضرورة الآن، ويمكن إبقاؤه تحت السيطرة بتناول مجموعة مضادات، لكنه لا يزال يمثّل احتمالاً مرعباً. كما تكلف الأدوية ثروة، وهناك تأثيرات جانبية ينبغي التعامل معها، وينتهي الأمر بك خاضعاً للأطباء، فضلاً عن تثبيطه حياتك الجنسية؛ *حياته* الجنسية. ما الذي ستقوله ناتاشا إن بدأ باستعمال الحماية، خاصة الآن وهي حامل؟ كيف يمكنه أن يفسّر لها أنه قد عرضها

للخطر، وليس هي فقط وإنما الطفل أيضاً؟ حتى إذا انتهى الأمر على خير وتبين أنها والطفل بأمان، فهناك احتمال بألا تتكلم معه مجدداً. ثم إن هناك جودي أيضاً، وينبغي إبلاغها.

وبحلول وقت حصوله على نتائجه سيكون زفافه بعد عدّة أيام فقط. أولاً النتائج، ومن ثم الزفاف؛ بتعاقب سريع. والحقيقة هي أنه يفزع منهما كليهما تماماً. والشعور الذي ينتابه بشأن الحدثين القادمين هو أن الأمور قد خرجت عن سيطرته، وهو لا يعرف من المسؤول عن حياته في هذه الأيام؛ لكن بالتأكيد ليس هو. لقد بدأ يرى نفسه شاهداً تقريباً، واقفاً على الخط الجانبي في حين يحدّد كل شخص آخر مصيره.

عندما اجتاز النهر اصطدمت إطاراته بالحاجز على الجسر، وأصبح الطنين الثابت للمحرك اهتزازاً وصريراً، فتوقف أمام الضوء الأحمر عند واكر، ومدّ يده إلى منفرجه وبدأ يحك ذلك الموضع. تباً لكل هذا. كان ينبغي له أن يسأل الطبيب بشأن هذا أيضاً؛ فهو يشعر بأنه يعاني من طفح جلدي، ولكنْ ليست هناك علامات من أي نوع تشير إلى ذلك؛ فليست هناك بثور أو أورام أو آثار أو احمرار أو تغير في اللون. فقد ظهر هذا الطفح فجأة من العدم، وهو يشعر كما لو أن جيشاً من أم أربع وأربعين يعدو بأرجل مكسوة بالزغب على ذلك الموضع. وكلما حكّ ازدادت معاناته أكثر؛ لكن يستحيل عليه أن يتوقف عن الحك. وعندما تجاوز التقاطع ويده على المقود، بدأ يتأرجح إلى الأمام والخلف وهو يحكّ، فسلكت السيارة طريقاً متعرجة، واستدار المشاة ليحدّقوا به؛ وبعضهم يبتسمون. ولم يكن صعباً بالنسبة إليه تخمين ما يفكرون فيه.

يمكنه أن يكون وناتاشا مثاليين معاً لو أنها لا تضغط عليه باستمرار، وتحاول فرض إرادتها عليه؛ مثل الحمل في هذا الوقت، والطريقة التي تتولّى بها أمور الزفاف. فهي تدعو كل يوم المزيد من الأشخاص، أو تضيف شيئاً إلى قائمة الطعام أو ترتيب الطاولات. لماذا تريد أوراق الهليون في حين أن لديها خضاراً مشكّلة؟! كما أنها أنفقت ثروة على تنسيق الزهور، فلماذا تريد الآن تمثالاً جليدياً؟ وقد أضافت بالأمس وصيفتين أخريين؛ ممّا جعل المجموع ثماني وصيفات، ولا أحد يعرف إن كانت ستتوقف عند هذا الحد. وقد حصلت كل وصيفة على فستان وباقة زهور وحذاء، وهو من سيدفع أيضاً من أجل تصفيف شعرهن وتبرّجهن. كان ينبغي أن يتولى زمام الأمور منذ البداية، ويطبّق بعض القواعد الأساسية، ويضع بعض الحدود.

وهو ليس رجلاً عنيفاً، ولا يشبه أباه، ولن يكون مثله أبداً. وطوال السنوات التي أمضاها مع جودي لم يرفع صوته إلا نادراً. لكن، ينبغي أن تعلم ناتاشا أنه لا يمكنها أن تأمره، ولن تقوده امرأة؛ سواء أكانت هي أو أي واحدة أخرى. ناتاشا متسلّطة وغير ناضجة وتفتقر إلى الحصافة. ولم تكن هناك حاجة إلى ذهابها بسرعة إلى أبيها حين تشاجرا؛ وكأن علاقته مع دين لم تكن سيئة بما فيه الكفاية، والحقيقة أنه بالكاد وضع يده عليها، فصفعة على الأذن لا يمكن أن تدعى إساءة معاملة، ولم تكن سبب سقوطها، وإنما جعلتها تفقد توازنها للحظة؛ لكن ذلك جرى فقط بسبب المباغتة. وفي الواقع، كانت هي من اعتدى *عليه*، لكنها دُهشت حين ردَّ على سلوكها ذاك بضربها. بأي حال، بعد أن استعادت توازنها استدارت لتغادر الغرفة، *ولكنّها آنذاك* تعثرت وسقطت. نعم، كانت حادثة مؤسفة،

لكنها بعد ثوانٍ بدأت تحرّف القصة؛ وكل هذا لأنه طلب منها كبح جماح نفسها قليلاً. كل ما قاله لها هو: "تعرفين أنني أحبك، لكنك غير منطقية" لم يقل لها ما هو أكثر من ذلك، ورغم هذا اعتبرت نبرة صوته غير مقبولة.

"لا يمكنني/لا أدعو نصف وصيفاتي"

"لا ينبغي أن تدعي مثل هذا العدد في المقام الأول"

"قلت لي إنه بمقدوري الحصول على كل ما أريده"

"ناتاشا، حبيبتي، أنتِ تُلبسين وصيفاتك من أرماني"

"ليس كلهن؛ فثياب اثنتين منهن من فيرا وانغ"

"لا بأس، حسناً، احصلي على وصيفات كما تريدين، اجلبي عشر وصيفات، أو عشرين. ولكن، فقط لتكن الميزانية أقل من ثلاثين ألفاً، وأظن أن هذا منصف"

"أوه، رائع! تريد منا أن نتسوق من تارغت، أو ربما ينبغي أن نذهب إلى غودويل

"ألا ينبغي أن يدفع أبوك لهذا؟ ألا يدفع أب العروس عادة من أجل الزفاف؟"

"لا تفعل هذا يا تود، لا تتكلم عن هذا"

"لَمَ لا؟ لماذا ينبغي أن أدفع بدلاً من أبيك المتهرّب من مسؤوليته؟ هذا شيء لم نناقشه مطلقاً"

"أنت مستحيل الآن، ولا أعرف حتى لماذا أتكلم معك"

"لا بد أن لديه مليوناً على الأقل يخفيه في مكان ما. وهو يمتلك منزله، فعلام ينفق أمواله؟"

"اترك أبي خارج الموضوع؛ فأنت تعرف أنه يكرهك"

"يكرهني لدرجة أنه يمتنع عن الإسهام في تكاليف الزفاف"
"ظننت أنك تريد هذا الزفاف، وظننت أنه مهم بالنسبة إليك"
"هذا ليس زفافاً، وإنما ثورة تسوّق"
"ربما أنت لا تريد أن نتزوج"
"أنت تتصرّفين مثل طفلة"
"حقاً؟ حسناً، من كان يعرف أنك بخيل إلى هذا الحد"
جرى هذا الحديث أثناء تناول العشاء، وكان معظم الطعام لا يزال على طبقيهما. فجأة، غادرت الطاولة، وأغلقت باب غرفة النوم وراءها بعنف. عندها، نهض ولحق بها لأنه لم يفهم سبب تصرّفها على هذا النحو. وقال: "لماذا لا تتوقفين عن التصرف هكذا؟" كانت مستلقية على السرير ووجهها نحو الأسفل. وعندما قال هذا، وثبت واندفعت نحوه مثل هرّة تكشف عن أسنانها وأظفارها.
فضربها آنذاك.

لا يساعده بالتأكيد أن النوم يجافيه، وأنه يستيقظ ليلة بعد أخرى والكابوس اللعين نفسه يراوده. هذا جديد تماماً بالنسبة إليه، فهو لم يرَ كوابيس مطلقاً، ولم يحلم إلا نادراً. وقد كانت جودي تقول إن الجميع يحلمون، لكنه عندما يستيقظ في الصباح فهو لا يتذكر شيئاً عادة. وهذا الكابوس يغني عن كل الكوابيس، وسيثير إعجاب جودي. وليس هذا فقط، وإنما سيكون بمقدورها مساعدته، وستجرّب معه؛ فهي تعمل مع مرضاها على أحلامهم، ولديها طريقة في جعلها منطقية. ينبغي له حقاً أن يتكلم معها بشأن هذا وأشياء أخرى؛ مثل فقدان السيطرة الذي يشعر به، والقلق بشأن صحته ومستقبله، فهناك أشياء كثيرة تجري، وهي تحدث بسرعة كبيرة.

يرى نفسه في الكابوس وهو يجري على بساط سيّار في القاعة الرياضية، ويكون يوماً اعتيادياً يقوم فيه بتدريب اعتيادي. لكن رغم هذا، ينتابه إحساس باقتراب أجله. ثم يتغير المشهد فجأة. إذ تختفي القاعة الرياضية، ويتلاشى البساط السيّار، وهو هناك لا يزال يجري مثل الأرنب بغزر؛ لكنه معلّق الآن فوق فراغ، وقدماه تتحرّكان في الجو، وذراعاه تدوران مثل طاحونتين. تُبقيه الحركة الدائمة بطريقة ما محلّقاً، ويتابع على هذه الحال مسعوراً لإنقاذ نفسه، لكن عضلاته تتعب شيئاً فشيئاً، وقوته تضعف، ويعرف أنه لا يستطيع الاستمرار لوقت طويل جداً، وأن الأمر مسألة وقت فقط قبل أن يسقط مثل حجر.

23

هي

عندما تتذكر لاحقاً ما جرى ستودُّ القول إن ما حصل كان من فعل أليسون. لكنها تعرف أنها لو لم تكن قد لعبت دورها لما حدث ذلك. كان الأمر أكثر من مجرد توافق مع أليسون؛ ففي الواقع، لقد تملّقت صديقتها، وهي تكره نفسها كثيراً بسبب ذلك؛ كما جرى في الصف الثامن حين كرهت نفسها لكونها محبوبة المعلّمة. ورغم هذا، ينبغي لها أن تسمح بحصول ذلك؛ لأنها مرغمة عليه. فهي تعيش في عزلة، ووضعها هشٌّ، كما أنها مرهقة وتشرب كثيراً ولا تأكل، وهي تحاول أن تتمالك نفسها لكنها في الواقع تتداعى.

كانت طريقة أليسون في التكلم عن الأمر مرتجلة جداً، ولم تُقرع أجراس إنذار جودي مطلقاً؛ وكأنها عملية إصلاح أساسية في المنزل مثل إيقاف تسرّب الماء، أو جراحة ثانوية مثل استئصال الزائدة الدودية المزعجة. استدعِ سبّاكاً، أو جد جرّاحاً، وجهّز المال فتُحلّ المشكلة. بدا ذلك سهلاً، أو جعلته أليسون يبدو كذلك. وعندما فهمت جودي أخيراً أن ذلك كان عرضاً شعرت بالارتياح؛ إلى درجة أنها فقدت رباطة جأشها تقريباً وبكت. كانت تلك هي اللحظة المثالية لفتح بوابات الفيضان وتدفق كل الحزن والأسى منها.

لكن الدموع نادراً ما كانت تقع ضمن نطـــاق جـــودي الحيـــوي الشخصي، رغم أن فائدة البكاء معروفة لها - تحرير المشاعر المكبوتة، وتحريك المياه الراكدة - لكن، بانقضاء الأعوام وجدت نفسها أقـــل قدرة على إخراجها، وأصبحت أكثر اعتياداً على الهشاشة التي ترافق التحمّل. وسيأتي يوم - حسبما تتخيّل - تظهر فيه تشقّقات رفيعة في جلدها، وتتفرّع وتتشعّب حتى تشبه الآنية المتفسّخة على رف الموقد.

وهي سعيدة الآن لأن أليسون قد اخترقت السد الذي بنته حول نفسها. فبعد مدة طويلة من عدم الطهي أو الأكل، انتابها شعور جيد حين دخلت المطبخ وحضرت العشاء لكلتيهما، وشُـــغلت بمهمـــات روتينية مثل التشريح والتقطيع، وعملية تحويل يقطينـــة ضـــخمة إلى نماذج منزلية أليفة: كتلة شرائط، وكومة مكعّبات. يقـــدّم المطـــبخ إرضاءً بسيطاً من مقاسات دقيقة ونتائج متوقّعة. وتتضمن الدقة أيضاً كيمياء؛ وهذا شيء تعلّمته من أبيها الصيدلاني. وبمعايير الطبخ، إنهـــا كيمياء استعمال الحرارة أو خفق شيء أو سحقه في جُرن. إذ يصبح القاسي والصلد مطواعاً وهشّاً، وينتهي الأمر بسائل لزج بأن يتحوّل إلى كتلة رغوة، فيما تطلق حفنة من بذور جافة عطراً غريبـــاً وغـــير متوقع.

وصلت أليسون بكل تبرّجها، منتعلة حذاء ذا كعـــبين عـــاليين مدببين. ورغم أنه مجرد عشاء منزلي إلا أن رائحة عطرة كانت تفوح منها، فيما ترنّ أساورها الفضية بصخب حين ترفع ذراعيها لتســـوّي شعرها. لم ترَ جودي أليسون بأي شكل آخر مطلقاً؛ إذ تبدو دائمـــاً وكأن لديها حفلة أو موعداً ستذهب إليه لاحقاً. وهـــي تســـتطيع تحويل أي شيء إلى مناسبة.

قبلت كأس الشراب، وعبّرت عن مدى قلقها قائلة: "لا يمكنك أن *تفعلي* هذا بـــي. آخر مرة رأيتك فيها – في حال نسيت – حين غادرنا المطعم، لم يكن بمقدورك حتى أن تقفي بسهولة. هل سيقتلك أن ترفعي سمّاعة الهاتف وتتصلي؟"

كان التوبيخ لطيفاً، وجعل جودي تبتسم. أخذتا كأسيهما إلى غرفة المعيشة، حيث بانوراما السماء رمادية وباهتة طيلة النهار، وقد تحوّلت إلى أزرق داكن جداً. تحرّكت جـــودي في الغرفـــة مشـــعلة المصابيح، وزادت لهيب الشعلة في الموقد، ثم استقرت بجانب أليسون على الأريكة. وعلى الطاولة الصغيرة أمامهما طبق خبز قد وضـــعته جودي هناك سابقاً، يحتوي على شرائح خبز فرنسي محمّصة وعليها زيتون لذيذ المذاق.

لم تكن أليسون تعرف شيئاً عن معضلة جودي الحالية؛ فآخر ما ناقشتاه كان حمل ناتاشا واحتمال زواجها من تود. لذا، لا تعـــرف أليسون أن موعد الزفاف قد حُدّد– وفقاً لدين – ولم تســـمع عـــن إشعار الإخلاء، أو تدرك أن جودي قد حبست نفسها في جحرهـــا مثل أرنب، ولم تعرف بما قالته باربرا فيلبس، أو حـــتى أن جـــودي ذهبت لرؤية محامية. لقد احتفظت جودي بتلك الأمور لنفسها؛ ظناً منها أن أليسون، الأكثر تساهلاً بين صديقاتها، لن تـــدعم قرارهـــا بحماية منزلها وبعدم مغادرته أبداً.

لكنها كانت مخطئة بشأن أليسون التي شاهدت نظـــراً لطبيعـــة عملها الكثير من الظلم؛ بدءاً بمستبدّين صغار كانت تـــراهم يوميـــاً (فتيات يضطررن إلى الرقص أمام هواء متدفق مـــن مكيفـــات...) ووصولاً إلى إساءة استعمال السلطة (فتيات يسلّين أصدقاء المـــدير،

وفتيات يقدّمن خدمات خاصة لرجال القانون)... وهي لا تنظر إلى مثل هذه القضايا من وجهة نظر فلسفية، ولا توافق على لعب اللعبة أو الانسياق مع التيار أو السير على درب عدم المقاومة. إذ تمتلك أليسون تاريخاً من التعاطف مع المظلومين، ومعالجة مشاكل أشخاص آخرين. وهي ليست عضواً في لجنة أمن أهلية، وتدرك أنها ينبغي ألا تثير الفوضى أو تلفت الانتباه إلى نفسها في مجال عملها. ويتمثّل أسلوب أليسون في تجنّب مشكلة ما، أو تقديم شراب، أو إجراء اتصال مجهول مع زوجة رجل أو أمه. وهي معروفة أيضاً باستغلالها سلوكاً غير لائق قام به شرطي، وتجريده من سلاحه ذاك. لقد سمعت جودي أن أليسون يمكنها أن تُخرج الأسلحة الأكبر أيضاً، لكنها حتى هذه الليلة لم تكن قد كوّنت في ذهنها صورة عمّا قد يعنيه هذا.

انتقلنا من الأريكة إلى الطاولة، وشرعنا في تناول الطعام البحري. وكانت أليسون تتكلم عن السلوك السيئ لحبيب كريستال السابق، وأمر التقييد الذي تحاول الحصول عليه، وتابعت الكلام واصفة نزاعاً جرى بين فتاتين – براندي وسوكي – وأخبرتها أن حدة النزاع قد تصاعدت إلى حد جعلهما تمزّقان ثياب بعضهما بعضاً. كانت جودي تصغي بتهذيب، لكن لم يسعها إلا أن تشرد؛ والسبب طبعاً هو أن أليسون تركّز على مشاكل أشخاص آخرين في حين أنها – جودي – تعاني مأزقاً فظيعاً، وتتشوق الآن إلى الانفتاح على صديقتها، وإخبارها كل شيء، لكنها لا تزال تراوغ. ستضحك أليسون عليها حين تعلم باختبائها بتلك الطريقة، وجعلها الأمر أصعب مما ينبغي أن يكون عليه، في حين أن ذلك لا يُحدث أي فرق في النهاية.

آنذاك، بعد العشاء – بعد أن دفعتا كرسييهما إلى الخلف، ووضعتا ساقاً فوق الأخرى، وبدأتا باحتساء القهوة – فاجأتها أليسون بالقول: "هل سيتزوج تود تلك الفتاة؟"

وحينها فهمت جودي الطبيعة التي جُبلت عليها أليسون؛ فعندما سردت القصة بكل تفاصيلها المذّلة – خاصة الجزء المتعلق بانغلاقها على نفسها على نحو مثير للشفقة – كانت أليسون تومئ وتوافق، وهي لا تستطيع في الواقع أن تكون أكثر اتفاقاً أو دعماً.

وقالت لها: "أنت تقومين بالصواب. لا يمكنك أن تتركيه يفلت بفعلته"

فأجابت جودي: "ولكنه *سيفلت* بها؛ فليس هناك شيء أستطيع فعله لردعه"

فقالت أليسون: "هذا خطأ، وبإمكاننا أن نحل هذه المشكلة؟"

"نحن يمكننا أن نحل *هذه* المشكلة!"

"من دون شك"

فقالت جودي: "ها ها، سيكون هذا لطيفاً"

فقالت أليسون: "تظنين أنني أمزح"

"أنت لا تمزحين. لكن، أيعقل هذا؟ حتى المحامية لم تستطع مساعدتي"

فقالت أليسون: "هذا ممكن. أنت بحاجة فقط إلى بعض الوقت لترتيب الأمور

فقالت جودي: "لا بأس

عندها، سألتها أليسون: "ما الوقت المتسع لنا؟"

فقالت جودي: "لا أفهمك"

"هل نعرف متى سيتزوجان؟ لأنه عندما يحدث ذلك، فستنفد خياراتك تقريباً"

"أتريدين معرفة تاريخ الزفاف؟"

"ألم يخبرك صديقك دين؟"

"السبت الثاني من كانون الأول"

"وما هو اليوم؟ لا بأس، أظن أنه يمكننا أن نأمل القيام بشيء. الشيء الوحيد الذي ينبغي أن نتوثق منه هو وجود وصية. فما دمت لا تزالين المستفيدة...

"حسناً، أنا كذلك وفقاً لما أعرفه. أعني، ربما يكون قد غيّر وصيته" لم تكن قد فكّرت إطلاقاً في وصية تود، وأدركت أنه سيعدّلها بالتأكيد لمصلحة زوجته وابنه؛ إن لم يكن قد فعل هذا حقاً. وهذه صفعة على الوجه من نوعٍ جديد.

فقالت أليسون: "ربما لم يغيّرها بعد، وهناك احتمال بأنه لم يفعل. فهو سيتزوج، وسيفكّر أن لا حاجة إلى إزعاجه نفسه؛ ففي الثانية التي سيتزوج فيها ستكون أي وصية لاغية وباطلة" طوت أليسون منديلها ولفّته مجدداً، ثم راحت تمهّده وتقلبه وتجعله على شكل مستطيل ثم مربع. وتابعت أليسون كلامها: "القانون لا يمنحك شيئاً، وسيجعلك تقفزين عبر حلقات حتى تفقدي كل شيء، بما في ذلك احترامك لذاتك، وقد رأيت هذا يحدث مليون مرة. انسي أمر القانون، سأجري مكالمة واحدة وستستعيدين بعدها حياتك" رمت جودي منديلها جانباً، ثم ركّزت اهتمامها على الأغراض على الطاولة؛ المملحة، الشمعدان، كأس الماء، كوب القهوة، وراحت تصفّها مثل الجنود.

ثم نهضت وأحضرت زجاجة الشراب الموجودة على المائدة، وقالت: "هذا شراب رائع حقاً" وبحرص، وبحركات مركّزة ومقتصدة، سكبت الشراب وأعطت صديقتها كأساً.

اندلعت ثورة داخلها؛ وكأن التفوّق على تجربة حياة أمر ممكن في سياق الحديث. ومثل أفعى تسلخ جلدها وجدت نفسها تمزّق اعتراضها عديم الفائدة، وبراءتها المثيرة للشجن، وإحساسها بالاستسلام عُقب دعابة قانونية. تكمن اللذة في أنه لا يوجد وقت معين لتتخذ قراراً. فلا يُطلب منها مثلاً أن تقرّر التغلّب على تحفّظاتها، أو إرغام نفسها على إظهار غضب كافٍ، أو القيام بالفعل بدم بارد، أو التكيف مع العواقب. ضائعة في الصحراء، ستشربين الماء الملوث الذي تقدّمه صديقتك. وإذا هدّد هذا حياتك، فستضعين نفسك بين ذراعي الجرّاح، ولن تأخذي المحاسن والمساوئ بالحسبان؛ فالخيارات قد نفدت، والنجاة هي الشيء الوحيد المهم الآن.

قالت أليسون: "ريني مضمون. ورغم أنه زوج نتن إلا أنه يمتلك رولودكس جيداً، ويدين لي بخدمة. ويمكنه أن يستفيد من المال طبعاً، لكن لا تقلقي، سيعرض عليك سعراً منصفاً"

افتتنت جودي بهذا العالم البديل الذي اختفت فيه مشاكلها بسهولة؛ ليس المشكلة المباشرة وهي الاحتفاظ ببيتها فقط، وإنما المتاعب المحتملة أيضاً: مشكلة وضع ناتاشا في مكانها، ومشكلة أيام لا تنتهي بالنسبة إليها، في حين يستمر تود بالأكل والنوم وإقامة العلاقات في جزء آخر من البلدة. العالم من دون تود ليس مجرد مفهوم مختلف، وإنما هو نوع جديد من المفاهيم؛ نوع يمد حتى الآن درباً عصبية جديدة داخلها، مثل الدودة. لكن المفاجأة الحقيقية

بالنسبة إليها كانت أليسون. فقد أحبتها دائماً، لكنها أدركت الآن أنها فشلت في منحها مكانة ملائمة. وها هي تنظر إليها في هذه اللحظة بعينين *جديدتين*.

قالت أليسون: "ينبغي أن تدفعي نقداً. لكن، انسي أمر سحب المال من المصرف أو الحصول على سلفة نقدية من بطاقتك الائتمانية. إذ يمكن ملاحقة الإجراءات من هذا النوع. وإذا اكتشفوا أنك قمت بسحب مبلغ كبير، فسينقضّون عليك مثل قطيع من الذئاب"

فهمت جودي أن أليسون عنت بالضمير "هم" الشرطةَ، والقاضي، وهيئة المحلّفين، والمدّعي العام؛ أي كل مجتمع تطبيق القانون. فقالت: "بأي حال، لا أملك الكثير في المصرف"

"سيكون لديك الكثير. لكن، لماذا لا تبيعين شيئاً؟ مجوهراتك مثلاً، أو بعض حليّك" وجال بصرهما على أغراض متنوعة في الغرفة: التماثيل البيروفية الذهبية، ونقش ماتيس الحجري، واللوحة المنمنمة في إطارها المذهّب. "ولا تبيعها عبر وكيل، وإنما ابحثي عن مشترين عبر الإنترنت" ثم رفعت يد جودي ونظرت إلى الحجر في خاتمها وتابعت: "بيعي أشياء صغيرة يمكن حملها، وأصرّي على حصولك على المال نقداً. ينبغي أن تتحرّكي بسرعة، وتحصلي على مبلغٍ كافٍ يغطي تكاليف رحلة في أثناء ذلك. إذ يجب أن تكوني بعيداً حين تحين اللحظة"

24

هو

كان الوقت صباحاً، وهو جالس إلى مكتبه، وغلاف شطيرته في علبة المهملات عند قدمه اليسرى، بالإضافة إلى الكوب الكرتوني الذي شرب منه أول جرعات قهوته في اليوم، في حين لا يزال يتناول فنجان قهوته الثاني. ورغم الكافيين، شعر بتراخٍ، وبالكاد كان مستيقظاً. ولكنه كان منتبهاً تماماً للحيوان الصغير المثار في أحشائه. كان يساعد نفسه بتناول الحبوب المنوّمة الخاصة بناتاشا، لكنها لم تؤثر في هذا الوجود المؤرق والمزعج الذي يبدو أنه لا يرتاح أبداً، ويمنعه من النوم بعمق أو لوقت طويل. هذا شعور جديد-قديم بالنسبة إليه؛ إحساس نكد داخله. وفي أحد الأوقات، ليس منذ أمدٍ بعيد، صدّق بسذاجة أن ناتاشا قد تبدّد قلقه إلى الأبد؛ وكأن حبهما نموذج افتتان يمكنه أن يبقيه بأمان دائماً.

سمع ستيفاني تدخل ونظر إلى ساعة يده. ورغم أنها فسّرت فكرة أوقات العمل على نحو غير دقيق دائماً، إلا أنها مؤخراً لم تزعج نفسها حتى بتقديم الأعذار. شعر بالامتعاض من الجرأة على طيبته وكرمه، وأدرك أنه يجب عليه أن يتكلم معها، ويوجز وجهة نظره بشأن دقة المواعيد. وفي عالم أفضل ربما، كان سيوجّه إليها إنذاراً.

المشكلة أنها قد تتركه، فجفاؤها يكاد يكون فظاً؛ بسبب إخلاصها لجودي.

استطاع سماعها وهي تتحرك في الخارج، فتغسل أكواباً في المغسلة، وتستمع إلى بريدها الصوتي، وتجري اتصالاً. ووصل عطرها برائحة الكرز إلى منخريه، وتبعه بعد قليل الشذا الأقوى للقهوة التي تحضّرها. تعيش ستيفاني التي تضع كوباً في متناول يدها دائماً، من دون أي اعتبار للاستراحة من القهوة، وتستهلك كل أسبوع كيسين أو ربما ثلاثة من مزيج ستاربكس الممتاز الذي يكلّفه بالتأكيد عشرة دولارات للرطل؛ على اعتبار أنها تشتريه للمكتب، مع إغفالها حقيقة أنه يشرب حصته اليومية الكاملة من القهوة قبل أن تصل في الصباح، ما يتيح فقط لفاليري المحاسبة من مكتب 202، وكيفن من المطبعة في القبو أن ينضما إليها في احتساء القهوة؛ وهذا شيء يسرّهما القيام به بانتظام. ينبغي أن يقتطع جزءاً من راتبها؛ ليس من أجل القهوة فقط، وإنما بسبب الوقت الذي تقضيه في تبادل الأقاويل مع مستأجريه أيضاً.

عقد العزم على مواجهتها. لكنها حين ظهرت عند بابه وهي تحمل كوب القهوة في يد، والملفات ودفتر الملحوظات في الأخرى، ألقى نظرة واحدة على تعبير وجهها الفظ وقرّر ألا يختبر حظه. وبالإضافة إلى هذا، لفتت انتباهه الكنزة التي ترتديها، إذ لم يكن قد رآها من قبل، وتكشف الفتحة في الأعلى عنقها أكثر من المعتاد، فيما يبرز صدرها بوضوح تحت النسيج الرقيق. قد تجعله المشاعر الملحّة التي يثيرها وجود ستيفاني اليومي في حياته محتاراً ومخفقاً أحياناً، وهو يتخيّل باستمرار أشياء عنها؛ أكثر مما يفعل بشأن أي امرأة أخرى.

قالت له حين اجتازت الغرفة وجلست قبالته على الطرف الآخر من مكتبه: "لا أعرف لماذا تشرب ذلك الهراء من الدكان في حين أن القهوة في مكتبنا رائعة. ماذا تدفع ثمناً لهذا؟ دولاراً ونصف الدولار، أو دولارين للكوب؟ هذا يكوّن مبلغاً في النهاية، كما تعرف"

اندفع الدم إلى رأسه، لكنه كبح لسانه وترك الأمر يمر. سألته: "هل أتابع صرف مستحقات بطاقات جودي الائتمانية؟"

"طبعاً. لا شيء قد تغير

"كم عددها؟"

"ست بطاقات أو سبع إذا أخذت بالحسبان سيتغو التي تستخدمينها أنتِ أيضاً. أريد منك إغلاق حسابات كل بطاقاتها. سدّدي مستحقاتها كاملة وألغيها"

"سيتغو أيضاً؟"

"نعم، أي شيء يمكنها أن تستخدمه. توثقي من حصولك عليها كلها"

ترددت، وقلمها متوازن على الورقة.

فقال: "ماذا؟"

"آمل أن تحذرها مسبقاً بشأن هذا"

"ستكتشف ذلك قريباً"

أخفضت ستيفاني نظرها إلى دفتر ملحوظاتها ولم تنبس بكلمة، لكنه شعر باستنكارها الذي عبّرت عنه بوضوح بوضعية كتفيها وإمالتها رأسها. هذا مؤسف جداً؛ فرفضها لا يؤثر فيه كما ترغب، وعلى ستيفاني أن تعتني بشؤونها الخاصة. فهو ينبغي له أن يكون

صارماً مع جودي، ويُظهر لها أن أيام عيشها عالة على غيرها قد انتهت، وأنه لا يعبث وسيفعل ما ينبغي فعله.

وعندما انتهى الاجتماع وبدأت بجمع ملفاتها، قال لها: "آمل أن يكون بديهياً أن ما يجري في هذا المكتب سري جداً"

انتظر رداً منها لكنه لم يحصل عليه.

وعندما غادرت ستيفاني وأغلقت الباب خلفها، نهض وتحرك في أرجاء الغرفة، وشدّ قبضتيه وهو يمشي بطريقة غريبة، وبذل قصارى جهده لكبح رغبة لا يمكنه مقاومتها تقريباً؛ كبح انهار في أقل من دقيقة، مفسحاً المجال لنوبة حك مسعورة وهستيرية. يبدو الأمر كما لو أن أقطاباً إلكترونية ملصقة بأعضائه أو كما لو أن هناك سلكاً كهربائياً يئز في سرواله. وحتى أثناء ألمه شعر بالخجل؛ إذ لم يتمكن من الحفاظ على هدوئه، أو إبعاد يديه عن ساقيه؛ وكأنه رجل عجوز متسخ ونكد المزاج. هذا ليس أسوأ ما في الأمر، فالأسوأ هو أن نوبته ممزوجة بإحساسه بالذعر. فماذا سيحصل إن لم تنته هذه المشكلة مطلقاً؟ ماذا سيحصل إن لم يستمر هذا الحكاك فقط وإنما أصبح أسوأ، وانتشر إلى درجة تمنعه من التفكير أو الأكل أو النوم؛ من دون أن يتمكن من فعل أي شيء سوى الحك؟ ماذا إن اضطر للذهاب إلى المستشفى؟ وحتى آنذاك، ما الذي بإمكانهم فعله له باستثناء تضميد يديه، أو تثبيته بحزام إلى السرير، أو إدخاله غيبوبة اصطناعية؟

المكوّن الآخر لرعبه هو تفكيره في أن هذه المشكلة الصحية لا يمكنها أن تحدث إلا في حال وجود حالة أعمق؛ مثل إصابته بنقص المناعة المكتسب بالتأكيد. يجب عليه أن يواجه المرض ببسالة؛ لأنه قد

يتوثق من أنه التفسير المعقول والوحيد لأذيّته. وعندما يفشل نظام المناعة، فالأمر شبيه بأنابيب تجف - هناك حدّ للتشحيم والتزييت، وتبدأ أشياء بالنموّ في أماكن معتمة ورطبة - وظهور فطور مثلاً. وفي علم الأحياء، الفطريات مملكة بحد ذاتها؛ إنها أرض موثّقة من العطَن والنَّخر، مكان خمائر وعفن وبويغات وكل أنواع الأشياء التي تنمو في الظلمة، حكاية خيالية فسدت. *في مملكة الفطر، عاشت سابقاً بثرة رخوة صغيرة تدعى سُمّنة جعلت لنفسها موطناً في فم.*

توجّه نحو درج مكتبه، حيث توجد الأقراص مُعَينة الشكل المضادة للفطور، وأخرج واحد من العلبة، ووضعه في فمه، وأبقاه عند تجويف خده. لكنه كان يعرف مسبقاً أنه مسكّن مؤقت في أفضل حال، وأنه لن يعكس الظروف التي مكّنت السيدة سُمّنة من إنشاء عُشّها في المقام الأول، وأنها لن تُدخل روحاً قتالية إلى أغشيته المخاطية، أو تعزز نظام مناعته، أو توقف الحكّة الرهيبة. هل هذا جزاؤه على ما يفعله بجودي؟ لو كان شخصاً متديناً وملتزماً بالطريق القويم، لذهب إلى دار العبادة للتضرع وطلب الصفح، ولأنه آسف أيضاً، حقاً. لكن، كيف سيمضي حينها قدماً بحياته؟ وما التغييرات التي يمكنه أن يُجريها لتصويب الأمور؟ فلا يمكنه ترك ناتاشا الآن؛ ليس وهي حامل. والإبقاء على منزلين ليس ضمن إمكانياته. إنه يحاول عيش الحياة بأفضل طريقة ممكنة، ويريد فعل الصواب. ونعم، لقد اقترف أخطاء، لكنْ لا يمكن القول إنه ليس شخصاً جيداً، أو إنه من دون ضمير، أو لا يحاول بذل قصارى جهده. فهو رجل كريم، تباً، ولكنه ليس ثرياً كما يبدو أن الجميع يظنون. وهو رجل طيب القلب أيضاً؛ رجل لا يحمل أحقاداً أو يقتل الحشرات، رجل ينفق

المال على مراحيض تخفّف استهلاك الماء رغم أن صناعات كبيرة في هذا البلد تهدر مياهاً أكثر مما ستوفره مراحيضه على مدى العمر.

أبطأ خطواته، وتوقف مؤقتاً، ثم شبك ذراعيه معاً، وحبس أنفاسه، وانتظر وتحمّل. الخدعة أنك إذا خدشت موضع الحكة فستختفي الحكّة؛ أليس هذا ما ينبغي أن يحدث عادة؟ لكن هذه ليست حكّة عادية؛ وبتحمّله فقط سيتخلّص منها وسيعبر الجسر إلى السلامة والسكينة. لقد خفت الحكة الآن، وتحوّلت إلى رعشة واهنة؛ إلى تذبذب لأداة وترية يتلاشى شيئاً فشيئاً، إلى اهتزاز ورَقَة، أو قرقرة هرّة. لكن الخدعة ظهرت مجدداً بقوة؛ فكرة أنها مجرد حكة صغيرة تحتاج إلى الخدش، والرغبة في الحك غامرة. ها هو يجلس على ركبتيه الآن، مطأطئاً رأسه، والدموع تسيل على البلاط الغرانيتي، متضرعاً إلى الله ليمنحه الإرادة كي يتحمّل. ثم فجأة ومن دون شكليات انتهت، واختفت كما بدأت؛ اختفت تماماً وعلى حين غرّة.

وقف وهو يشعر بأنه مثل شبح، ومرّر يده عبر شعره، واستنشق الهواء إلى صدره، ثم جال في الغرفة، وعاد إلى مكتبه، ورفع سمّاعة الهاتف ليتصل بناتاشا.

إنه مستعد للإقرار بأن وزر كل الانحدار الذي انزلقا إليه يقع على عاتقه. وهو يريد أن يسترخي ويلقي نظرة أوسع. فما يهمه هذه الأيام هو ابنه؛ ابنه الحاضر دائماً بشكل بطن أمه المنتفخ ومزاجها المتقلّب. لكن ما ينبغي أن يبقيه في ذهنه هو ابنه الإنسان؛ الشخص الفريد ذو الأصابع والقدمين وسائر الأعضاء (وإن يكن مجهرياً)، كما رأى بأم عينيه في الصورة المحبّبة بالأبيض والأسود في عيادة الطب الإشعاعي. كان سيرضى بابنة – هذا ليس وقت شد الشعر – لكن

الحقيقة هي أنه سيُرزق بابن، وابنه هو المستقبل؛ إنـــه الـــزخم الآتي، والمفارقة أن ولادته ستنهي الشجار والفوضى؛ ابنه الذي سيجعلهما حين يولد يجثُوان على ركبهما.

ستكون ناتاشا مختلفة بوجود طفل تعتني به، وسيتحوّل تركيزها منه إلى الطفل الذي يحتاج إلى رعاية؛ وهو يتطلع قدماً إلى هذا. لكنْ في الوقت عينه، أقل ما يمكنه فعله هو بذل جهد ليكون أكثر تسامحاً وليناً؛ لأنها أساساً عاجزة عن مساعدة ذاتها. الحقيقة أنها تفور ببحـــر من الهرمونات الخارجة عن نطاق السيطرة، ممّا يدفعها إلى القتال من أجل العش الأفضل، وحقوق حصرية بمعيل ذكر. وما تعانيـــه قـــد يكون نموذجاً من خبلٍ مؤقت، لكنّ آخر شيء يريده هو أن يخذلها أو يعترض سبيلها؛ نظراً إلى أن غايتها هي غايته أيضاً. وهو لا يُبـــدي نضجاً في توكيده على حقوقه بأنه وكيل حر التصرّف. إنه يـــدرك ذلك الآن، وما ينبغي فعله هو أن يبلغها أنه يحبها ويطلب منها العودة إلى المنزل.

25

هي

كان إيجاد مشترين إلكترونياً أسهل مما ظنّت. إذ توجد سوق مزدهرة هناك للأغراض التي تريد بيعها. وفي الواقع، يصطف الناس عملياً من أجل فرصة لقائها في المعهد الفني أو حدائق الكريستال، ويعدّون نقودهم مقابل سلعها. ومن أجل إدارة عملها اضطرت إلى ترك بيتها من دون ترتيب، لكن ينبغي لها أن تفعل هذا. وكما تبيّن لها، استمتعت بالخروج كثيراً، وشعرت بسرور بالغ بفضل الريح الجليدية التي جعلت عينيها تدمعان، ورائحة الأكل المنبعثة من مطابخ المطاعم، ومنظر الغرباء المتجولين في الساحات العامة؛ متشوقين مثلها إلى أي نوع من التواصل الحسّي.

في البداية، واجهت مشكلة في ما يتعلق بالتوثيق؛ إذ تضمنت رسائل إلكترونية أرسلها بعض الأشخاص رداً على إعلاناتها تعليقات مثل: *أحب الخاتم، لكن كيف أعرف أنه أصلي؟ واللوحة قد تكون مزيفة. ماذا إن حصلت مشكلة بسبب ذلك؟ هل يمكنني الحصول على رقمك؟* لكن، تبيّن لها أن هناك أشخاصاً كُثراً لا يهتمون إطلاقاً. ربّما هم صاغة، أو تجار، أو خبراء من نوعٍ أو آخر؛ وهي لا تعرف من هم حقاً لأنها لا تسأل.

كانت مشاركتها عنوان بريدها الإلكتروني، ولقاؤها زبائنها وجهاً لوجه مخاطرتين لا يمكن تفاديهما. لذا، عوّضت عن ذلك بارتدائها سترة قديمة، واعتمارها قلنسوة صوفية تخص تود؛ فأكمل التنكّر الجزئي إحساسها بالإثارة. راحت تبحث عن رجل ذي شارب مقوّس، أو جلست على مقعد خشبي بجانب النوافير التي كانت على شكل قنطرة عالية؛ مراقبة امرأة ترتدي قفازين جلديين أحمرين. ظنّت أنها فردٌ يلعب دوراً؛ شخصية على مسرح. التمثيل وسيلة تسلية، وكل ما عليها فعله هو جمع مالها، ولا ينبغي لها أن تفكر في ما ستفعله بالمال. ولدى عودتها إلى المنزل، كانت تضع المال في المخبأ المتضخّم في حقيبة لويس فويتون الجلدية السوداء – وهي هدية من تود لم تستخدمها مطلقاً – سعيدة بالطريقة التي يزداد فيها.

توقعت أن تطلب أليسون عربوناً، لكنها أعطتها المبلغ كله مسبقاً؛ فهذا ما تفضله أليسون، وهي أفضل صديقاتها الآن. بأي حال، لا أهمية للمال أبداً. لم تخطر الأغراض التي باعتها على بالها إطلاقاً. وفي مرحلة ما، فقدت تعلّقها بها، وأصبحت مملّة بالنسبة إليها بحد ذاتها، وتكمن أهميتها فقط في قوتها الشرائية. حتى إنها فقدت تقديرها للحقيبة؛ باستثناء أنها حاوية لأموالها. وبعد أن دفعت المال إلى أليسون، تخلّصت منها من دون أن تفكر في الأمر مجدداً.

إنها تعرف الآن كيف تحصل على النقود، وخفّ قلقها بشأن المستقبل القريب. وكان هذا التطوّر في الوقت الملائم كما اتضح لها لاحقاً؛ فبعد يوم من عقد الصفقة مع أليسون، اتصلت بها ستيفاني لتقول لها: "أردت إبلاغك يا سيدة غيلبرت – ظننت أنك يجب أن تعرفي – أنه يُلغي بطاقاتك الائتمانية"

فقالت جودي: "فهمت. حسناً إذاً، هل يفعل ذلك حقاً؟"

"نعم، كلها" كان صوت ستيفاني خافتاً، ونبرتها ملحّة. وكانت تتحدّث بالطريقة نفسها التي يتكلم بها الأشخاص حين يتشاطرون الأسرار. "ظننت أنه يجب عليّ أن أحذرك - كما تعرفين - كي لا يباغتك الأمر. أرجو ألا تخبريه أنني اتصلت بك"

وعلى نحو غير متوقع، وجدت جودي الأمر ممتعاً. إذ لا يمكن أن يخطر لتود أن هناك اثنتين يمكنهما أن تشاركا في هذه اللعبة. بأي حال، لديها بطاقتها الائتمانية الخاصة، تلك التي استخدمتها أساساً لشراء الهدايا له بمرور الأعوام، مثل حقيبة لويس فيتون؛ رغم أنها لم تكن من بين هباتها الأكثر سخاء. ففي أحد الأعوام، اشترت له بمناسبة ذكرى ميلاده حصاناً ودروساً في ركوب الخيل. كانت تلك مجرد فكرة خطرت لها، إذ ظنّت أن ذلك سيمنحه استراحة من وطأة العمل، وسيُخرجه لاستنشاق بعض الهواء الطلق والتمرّن. وقد أبدى اهتماماً بالأمر في البداية، لكن ذلك لم يستمر طبعاً.

وعندما وضعت السمّاعة أدّت رقصة ابتهاج صغيرة، لكن مزاجها تعكّر أخيراً. وفي النهاية، بقيت مع تفاهة البطاقات الائتمانية الملغاة، إلى جانب أهمية الخطة التي حاكتها؛ أي الحادثة المستقبلية السيئة التي حضرت لها ودفعت من أجلها. كانت هناك أصوات داخلها تطلب منها إعادة التفكير في الأمر في حين أنه لا يزال هناك متسع من الوقت لتغيّر رأيها. لكن، غمرها إحساس بمصير ينكشف أمامها، ونفورٌ من العودة إلى الوراء. وأدركت في مؤخر ذهنها أنها قد تجاوزت الخط، وأنه ينبغي لها أن تطلب المساعدة. وفكرت في جيرارد؛ يمكنها أن تذهب إليه. لكنها أبعدت التفكير فيه عن ذهنها؛

فجيرارد متقاعد من دون شك، ويعيش في فلوريـدا أو المكسـيك. وبالإضافة إلى هذا، ما الذي يمكنه فعله من أجلها الآن؟ كان ينبغـي لها أن تتابع العمل معه حين سنحت لها الفرصة، وتسمح للعلاج بأن يأخذ مجراه ويصل إلى خاتمته الطبيعية.

كان بارعاً في عمله، ولم يكن هناك أي شك في هذا مطلقـاً؛ فقد فتح جيرارد عينيها بشأن رايان، وجعلها تدرك الحقيقة، وأنهـى عادتها بالنزاع مع الحقائق. وبسبب جيرارد فقط تقبّلت في النهاية أن رايان سيعيش حياته الخاصة بطريقته الخاصة، وأن خياراتـه شـأن خاص به، وأن ما تريـده منـه – أي الأمـان المـادي، والتقـدّم الشخصي – طموحات مشروعة؛ ولكنها ليسـت طموحاتـه، وأن هواجسها بشأنه قائمة على أحكام، وأن الحكم على الآخرين يلحق بهم الضرر عمداً. احترام الاختلافات – كما أدركـت – يتجـاوز ببساطة التسامح، ويعني التخلّي عن وجهات نظر محـددة سـابقاً، وافتراضك أنك محق بالضرورة في حين أن آخرين مخطئون بالضرورة، وأن العالم سيكون مكاناً أفضل إن فكّر الجميع كما تفعل هي.

ينبغي أن يُنسب الفضل إليها؛ فقد أسبغ جيرارد بمديحه عليهـا، وأطرى على تلقائيتها وفطنتها، وأثنى عليها لتحدّيها نفسها وإجرائها تغييرات. كان هذا تقدّماً غير متوقع، فقبل ذهابها إلى جيرارد لم تكن قد ظنّت أنها تعاني من مشكلة؛ لأن رايان كان المشكلة في ذهنها.

وبعد هذا الإنجاز الذي حققاه معاً، تابع جيرارد وجودي بطاقة متجدّدة، وتكلما بنحو متواصل عن طفولتها، وعن شعورها نظراً إلى كونها الفتاة الوحيدة بين صبيين، وعن حقيقة أن والديها لم يتوقعـا منها الكثير، وعن طريقة تحدّيها لهما بالتفوّق في المدرسـة وإثباتهـا

نفسها على أنها مهنية ومدبّرة منزل في آن واحد. وبدا من غير الممكن إنكار امتلاكها نزعة تنافسية. تحدّثنا عن السمات التي اكتسبتها من كلٍّ من والديها. فقد اكتسبت من أمها حب الحياة المنزلية، ومن أبيها اهتماماً شديداً بالطريقة والتفاصيل. كانت منتج أصول أسرة أكثر مما قد افترضت.

كانت جلساتها مسلّية وحتى ممتعة، لكنها بعد مرور الوقت بدأت تشك في أن أفكارها بشأن علاقتها مع رايان مُقرّر لها أن تكون النموذج الأمثل لعملها مع جيرارد، وأنه لم يعد هناك شيء مهم ينبغي إنجازه. ووفقاً لهذا، شعرت بالضجر لاحقاً وببعض السأم، وعبّرت لجيرارد عن شعورها بأنه يهدر وقته، وبدأت تخاف في قرارة نفسها من أن تكون سطحية، ومفتقرة على نحو مأساوي إلى أي عمق أو جوهر حقيقي. ووصل الأمر إلى حد أنها تمنّت تقريباً أن تكون قد عانت من طفولة رهيبة، وأب متعسّف، وأم فاقدة رشدها. وقد آثرت في بعض الأيام أن يكون لها تاريخ في الاكتئاب أو القلق، أو اضطراب الأكل، أو عدم احترام الذات، أو تقلّبات مزاجية، أو نوبات فزع. حتى إنها تمنت لو أنها كانت تتأتئ أو تغسل يديها مرغمة؛ لكنها لم تكن حتى تماطل في هذا. وبمرور الأسابيع، أصبحت حالة جمودها موضوع مزاح. فعندما كانت تصل إلى جلستها كانت تقول: "دكتور، أحب حياتي وأنا سعيدة. ماذا ينبغي أن أفعل؟" فيردّ جيرارد: "لا تقلقي، أعرف العلاج"

ثم حان وقت نقطة التحوّل.

لم يكن ذلك يوماً يُبشّر بالخير، وإنما كان يوماً بالكاد يحمل أي أمل بإحراز تقدّم. خارج العيادة، كان الوقت ربيعاً والأشجار

مزهرة. لكن في الداخل، كانت جودي ترتدي سترة صوفية فوق كنزتها لاتقاء هواء المكيف، فيما جيرارد منزعج قليلاً، ويفتقر إلى تركيزه المعتاد. قفزا من موضوع إلى آخر، عاجزين عن طرح أي شيء مثير للاهتمام، ومع اقتراب الجلسة من نهايتها كانا مرهقين. ظنّت أن الأمر قد انتهى، وأن الوقت قد حان لتعود إلى المنزل، ثم في محاولة أخيرة شجاعة، استفسر جيرارد عن أحلامها.

جودي: إنه الضجيج الأبيض المعتاد فقط.

جيرارد: عرّفي الضجيج الأبيض.

جودي: أنت تعرف ما يعنيه هذا. (وانزعجت من طرحه هذا السؤال في حين أنها تستخدم التعبير طوال الوقت).

جيرارد: مهلاً، أعطيني مثالاً.

جودي: أوه، حسناً؛ مثل أنني موجودة في حفلة، وأتحدث إلى أشخاص لا أعرفهم. ألمح نفسي في المرآة، وألاحظ أنني شبه عارية، لكنني لا أشعر بشيء حيال ذلك بأي طريقة أو أخرى. ثم أجد نفسي في منزل والديَّ، وأنا أبحث عن شيء ما لكنني لا أتذكر ما هو، وحتى في الحلم لا يبدو مهماً. هذا ما أعنيه بالضجيج الأبيض.

جيرارد: (صمت).

جودي: آسفة، لقد كنت أبذل جهداً.

جيرارد: أعرف هذا.

جودي: (صمت).

جيرارد: هكذا إذاً.

جودي: أظن هذا.

جيرارد: (صمت).

جودي: مهلاً، رأيت حلماً عن داريل.

جيرارد: رأيت حلماً عن داريل؟

جودي: لقد نسيته حتى هذه اللحظة.

جيرارد: أخبريني عنه.

جودي: جاء داريل لزيارتي، وعندما وصل كنت أدوّن حلماً؛ حلم داريل. كان حلماً عن حلم داريل، لكنني أنا من حلم به بدلاً منه. لدي دفتر ملحوظات كامل عن أحلام داريل؛ وهي تعود إلى طفولته. كنت أحلم بها عوضاً عنه وأسجّلها.

جيرارد: تابعي.

جودي: هذا هو الموضوع. سألته إن كان يتذكر أياً من أحلامه، لكنه لم يكن مهتماً أو يرغب في التكلم عنها، ثم غادر.

جيرارد: ما كان شعورك أثناء حدوث هذا؟

جودي: الفزع. كنت أشعر بالفزع.

جيرارد: ما الذي أفزعك؟

جودي: كل شيء. الحلم بكامله كان مروّعاً.

جيرارد: لكنك نسيت الحلم لاحقاً. وعندما سألتك عن أحلامك منذ قليل، قلت إنه لم يكن هناك شيء باستثناء ضجيج أبيض فقط.

جودي: أظن أنني أبعدته عن ذهني.

جيرارد: هل انتابك أي شعور آخر غير الفزع؟

جودي: لا شيء. لا، فزعت فقط. يمكنني القول إنني خفت.

جيرارد: هل خفت من شيء ما على نحو خاص؟

جودي: لقد خفت نيابة عن داريل كما أظن. بدا لي أنني قد وضعته على جهاز الإنعاش، لكنه كان شاحباً ومنفصلاً تماماً عنه. كان هناك شيء مخيف بهذا الشأن، وهو أنه لا يشارك في حلمه؛ كما لو أنه غائب أو غير موجود.

جيرارد: وهل كنت تفعلين هذا بدلاً عنه؟

جودي: نعم.

جيرارد: وكنت تفعلين هذا لأنكِ...؟

جودي: لأنني أحبه.

جيرارد: في الحلم، هل شعرت بأنك تحبينه؟

جودي: نعم، أحببته.

جيرارد: إذاً، في الحلم شعرت بالخوف، وشعرت أيضاً بالحب تجاهه.

جودي: نعم.

صمتا لحظة، ثم نظر جيرارد إلى ساعة يده وقال: "لنعد إلى هذا الموضوع في الأسبوع القادم. أود أن تدوّني الحلم بأفضل تفصيل ممكن، وأن تحضري ما دوّنته معك في الجلسة القادمة. هذا فرضك المنزلي"

نهضت لتغادر، وخلعت سترتها الصوفية ووضعتها في حقيبتها، ثم أمسكت معطفها من على المشجب، وشكرت جيرارد أثناء

خروجها. مشت إلى المصعد، وضغطت على زر النزول. وفي أثناء انتظارها، نظرت إلى بابي المصعد، ثم إلى قدميها في جزمة دوك مارتن، وبعد ذلك إلى الزخرفة على السجادة؛ وهي عبارة عن تصميم هندسي بالأزرق والبرتقالي على نطاق ضيق، في حين أن اللون السائد هو *البيج*. شعرت بريح قارسة وواضحة؛ وكأن أحشاءها تضاريس قاحلة، وفكّرت في النزول على الأدراج، لكنها شعرت بأنها عالقة هناك؛ وكأن السجادة ونعلي جزمتها قد انصهرت معاً في طُعم جلدي. وعرفت - حتى أثناء وقوفها هناك - أنها لن ترجع، وأن الأوقات البسيطة وغير المعقّدة من اللحظات الجميلة قد انتهت بالنسبة إليها. لن يكون هناك المزيد من الجلوس مع جيرارد والتساؤل عمّا تتكلم عنه، أو المزيد من المزاح عن طفولتها المثالية، فقد استعادت الحلم والذكرى معه بنحو محتّم؛ مثل مجموعة علب قصديرية مربوطة إلى مؤخر سيارة زفاف. ولم يعد بإمكانها عكس العملية؛ أي إغلاق ذهنها على الصور مجدداً ودمجها في نسج النسيان.

لقد خرجت الذاكرة من مدفنها بخير، وعادت إليها سليمة وغير ملوّثة وكاملة الأبعاد؛ إنها جزء من تاريخها الحي، ومكتملة مع قوى نظائر عميقة - أذواق، وروائح، وأحاسيس - وحقيقية. بأي حال، كانت ذاكرة غير مرئية تتدثر بالظلمة، ممّا جعلها تظن أن الأحداث التي تذكرها قد جرت في الليل؛ إما هذا أو أنها حين كانت فتاة قد أغمضت عينيها عمداً، وقرّرت منذ البداية إسدال الستار على المعطيات الحسّية العدوانية. في البداية، كان الانفجار الداخلي مؤلماً ومباغتاً تماماً، لكنها لاحقاً تعلّمت خدعة الاستسلام. وقد فهمت أن تلك طريقتها في فك الاشتباك، وتذكرة خلاصها. بدا أملها الوحيد

آنذاك أن تكون قد شاركت في ما جرى، ولعبت دوراً فيــــه. ففـــي تلك الحال، ربما يمكنها أن تحبه ولن يتغير شيء. لكن عمرها لم يكن يتخطّى السادسة، في حين أن داريل كان في الثانية عشرة، و لم تفهم كيف يمكن أن تكون تلك غلطتها.

26

هو

عادت ناتاشا إلى المنزل مجدداً، لكنها لم تصفح عنه. وبطرائق عديدة، عادت المياه إلى مجاريها - فهما يجلسان إلى مائدة العشاء معاً، وهي تدرس بينما هو ينظّف، ويأتي زائرون ويذهبون - وإنما أصبحت تغيّر ثيابها في غرفة النوم، وتغفو قبل أن يأتي إلى السرير، وتفرض عليه حظراً صارماً؛ ممّا يرهق إرادته الطيبة. كما استمرت في استنفاد صبره بحديث متواصل عن قطع الزينة وترتيبات الجلوس، فضلاً عن عربات الأطفال ومواقف السيارات، ولا شيء ممّا تحدّثت عنه كان يتعلق بحب أحدهما للآخر أو حب ابنهما؛ الذي أصبح اسمه موضوع تخمين ونزاع شديدين، ويشمل جميع أصدقائها وكل جيرانها. ولن ترضى باختيار اسم له إلاّ بعد أن تقرأ كل مُدخل في النصف الخاص بالصبيان في مجلد موسوعي بعنوان *قرنٌ من أسماء الأطفال في بلدان ناطقة بالإنكليزية*. كما رفضت القبول بأن أسماء مثل هرشل وروسكو لا تستحق النقاش، وأبقت كلاً من اسمَي كلارنس وأمبروز في قائمة صغيرة راحت تتوسّع باستمرار. وألصقت أسماء مميزة مثل تشونسي ومونتغمري وغيرهما على مرآة الحمّام، وراحت تعيد ترتيبها مع تغيّر أولوية أحدها. وقالت له بسطحية: "لا يمكنك الاعتراض على اسم ما فقط لأنه لا يُعجبك"

وفي إحدى الأمسيات، وصل الأمر إلى درجة أن - بعد انتهاء العشاء، وفيما كانت الشقة مثل خزانة حارّة جداً تزدحم فيها روائح خانقة وضيوف غير مرغوب فيهم - كل ما تمكن من التفكير فيه هو إلقاء نفسه من النافذة. سيكوّن من المفيد بالنسبة إليه الآن وجود شخص يستطيع التحدّث إليه كما اعتاد أن يفعل مع جودي. لكن جودي لن تتكلم معه الآن، ويقتصر الأمر في علاقته مع أصدقائه على التظاهر بالشجاعة. وبأي حال، لقد اختُصر الوقت الذي يمضيه معهم. "إذا أردت رؤيتهم يا تود، فلماذا لا تدعوهم إلى العشاء؟"

إنه يفتقد إلى العودة إلى المنزل ليلاً، وإخراجه الكلب في نزهة بجانب الماء؛ فالقيام بهذه المهمة كان يخلّصه من هموم النهار، ويساعده في الاسترخاء استعداداً للنوم. ففي جوف الليل، حين يكون النعاس والصمت مطبقين على المدينة، كان يمشي على الشاطئ ويشعر بأنه وحيد في البرّية، ويصغي إلى أنفاس المياه وشخيرها وتنهدها، ويذهل بالسماء وطيّاتها غير المتناهية المتدفقة مثل شلال نحو الأفق. وفي الليالي الصافية، كان يستطيع رؤية الدب الأكبر والنجم القطبي. كما اعتاد أن يعرف أبراج النجوم من الجوزاء إلى ذات الكرسي والفرس الأعظم والكثير غيرها. وعندما يغيب القمر وتكون الظلمة حالكة، كان يبحث عن درب التبّانة. فقد حلم حين كان صبياً ببحر من النجوم التي يقف في وسطها؛ ليس على متن سفينة فضائية، وإنما وهو يطفو على ظهره بحرية عبر كثافتها؛ فيما مليار تريليون نقطة صغيرة من الضوء تطقطق وتفرقع على جسده مثل نار باردة.

لقد انبثقت تأملات سارّة كثيرة وإنما طواها النسيان كلها. والصوت الذي يسمعه بصمت مطبق هو الهسيس، فيفكر في أنه

ضغط جوي. تخيّل أثناء طفولته أن كل شيء، كل شيء على الإطلاق يُصدر صوتاً؛ فقط إن استطاع سماعه. ففي الخريف يتبدّل لون الأوراق، ويختلف صوت تحوّلها إلى الأصفر عن صوت تحوّلها إلى الأحمر، وتتمايز أصوات الثلوج المتساقطة في الشتاء، والبراعم المتكوّنة على الأشجار في الربيع، والسُحب التي تُساق، والطيور الصغيرة التي تركّز على طيرانها فيما ظلالها تتحرّك على الأرض تحتها. إنه يحب أن يكون منسجماً مع الأشياء كما هي، وأن يتحرّك عبر العالم بتناغم مع موسيقاه. وعندما يُفلح الأمر، بإمكانه أن يفعل ما يريده ويصبح ما يرغب فيه. وهو يدرك أن بعض الناس يسمّون هذا حظاً.

لا فائدة ترجى بعد الآن من تناوله الشراب في ساعات المساء فقط. لذا، بدأ يسعى إلى ثقوب مائية في وقت الغداء، واكتشف مقهى في متنزه هومبولدت؛ مكاناً نائياً يرتاده متمرّسون يحتسون الشراب الرخيص ويلعبون دومينو وبلياردو على طاولة بالية في الخلف؛ مؤسسة بقي الهواء ساكناً فيها منذ عام 1980 وفقاً لرائحتها. أحب المكان كثيراً؛ لأن لا أحد يعرفه سيأتي إليه، وحيث يقضي إسباني عجوز يعتمر قبعة مجعدة – المالك – أيامه على كرسي عند صندوق المحاسبة، في حين تتولّى أعمال السكب والخدمة نادلة واحدة. عندما دخل المقهى أول مرة في الأسبوع الماضي، ظنَّ أنه سيتناول شراباً بسرعة ويغادر، لكنه تخلّى عن تلك الخطة في اللحظة التي رآها فيها. ومنذ ذلك الوقت، صار يقصده كل يوم، ويجلس إلى المائدة بجانب خزانة الفونوغراف، مواجهاً الغرفة وظهره إلى الجدار.

كان اليوم يركّز على اقتفاء أثر حركاتها سراً، وإنما بدقة جهاز لتحديد المواقع. وصار يعرف موقعها في أي لحظة، ودربها،

وسرعتها، وجدول محطّات توقفها. وعندما تتجوّل في الغرفة تكون صماء وعمياء عن كل الاهتمام الذي تحظى به منه، لكن الإشارات التي ترسلها كانت تطنُّ في رأسه مثل الجرس.

جعله مظهرها - فهي هزيلة، وذات شعر سبط ووجنتين غائرتين - يفكر في طفلة تعاني من سوء التغذية. جذعها طويل، وصدرها مستوٍ، وعظام وركيها ناتئة، وبطنها مقعّر، وقدماها مثل لوحي خشب وإنما ضيقتان، وحاجباها غير مشذبين. في الساعات التي كان يقضيها هناك، كانا يتبادلان عدداً من الكلمات. ورغم أنها تبدو متوسطية إلا أنها تتكلم من دون لهجة واضحة، وصوتها خالٍ من أي نبرة، وكلماتها تخرج معاً؛ وكأنها تفتقر إلى الطاقة لتلفظها، وهي لا تنظر إليه أبداً.

قال وهو ينتظر أن تسجّل طلبه: "اخبريني باسمك" تعمّد أن يسألها عن اسمها، وتمهّل في الإفصاح عن اسمه؛ تحفّزه عدم مبالاتها. لكنه لم يعد غريباً الآن، وإنما صار زبوناً دائماً، وقد اعتادت عليه. وعندما يتعلق الأمر بالنساء فهو يمتلك حُكماً صائباً.

أجابت: "إيلونا" وتلكأ بصرها قليلاً على وجهه؛ ربما لأول مرة على الإطلاق.

أراد أن يخبرها أنها مثيرة وفاتنة، ودلّ كل ما يتعلق بها على أنها لا تعرف هذا. شعر بعبء الوقت المهدور؛ إلحاح لا يُحتسب ولكنه يحفزه رغم ذلك. ما يودُّ أن يفعله هو أن يكون بمفرده معها. وما يمكنه فعله حقاً هو أن يسألها عن الوقت الذي تنهي فيه عملها، وأن يصطحبها إلى مطعم جيد، ويؤثر فيها بإنفاقه بعض النقود بسخاء. كل النساء يحببن المال، وستستسلم أي امرأة لك إن أنفقت مالاً

عليها بما فيه الكفاية. ومهما كان ما تقوله الكتب، فإن المال هو الذي يجعل مزاج أي امرأة جيداً.

راحت تنقل ثقلها إلى قدمها اليمنى، وتدفع وركها إلى الخارج، وعيناها ثابتتان على شيء ما في مقدمة الغرفة.

قال: "أريد كأساً من شرابي المعتاد" هذا عملياً هو الشيء الوحيد الذي قاله لها، وبدأت بالسير مبتعدة عنه.

ناداها: "إيلونا"

فاستدارت وعادت إليه.

كان يتصبّب عرقاً، ويشعر بحرارة لاسعة تنتشر عبر صدره وتجعل جبيه لامعاً، وقال: "عندما كنت في العاشرة، شاهدت أبي وهو يكسر ذراع أمي. أمسك ذراعها اليسرى خلف ظهرها، ولواها حتى طقطقت، قائلاً لها: حتى يكون *بمقدورك أن تعملي*. وعندما فعل ذلك، كان ينظر إلي مباشرة. ولن أنسى أبداً التعبير الذي بدا على وجهه؛ وكأنه يُريني شيئاً ما، يقدِّم لي إيضاحاً، يعلّمني

راقبها فيما كان يتكلم، ومسح جبينه بردنه.

"أقسمت ألا أكون مثله أبداً. وقد احترمت النساء دائماً في حياتي. لا أقول إنني لا أرتكب الأخطاء، لكنني أحببت النساء كثيراً. وعندما أصبحت كبيراً بما فيه الكفاية، أخرجت أمي من هناك، واعتنيت بها إلى يوم وفاتها"

كره نفسه بسبب هذا الخطاب؛ فهذا ليس إلا طلباً جباناً للتعاطف، ومكيدة مخزية. هذه ليست أول مرة يخبر فيها امرأة بهذه القصة أو نسخة منها. ولا يعني هذا أنها زائفة أساساً، فهناك حقيقة عاطفية فيها بأي حال. وقبل أن ينهي روايته، اقتربت منه نصف

خطوة، وشعَّ ضوء من عينيها، وبدا من الصعب بالنسبة إليه معرفة إن كان قد أثار تعاطفها أو اشمئزازها. لكنها لم تُحضر له بعد أول كأس من الشراب اليوم، وسيكون هذا لمصلحته. فهو ليس مجرّد رجل يحتسي الكثير من الشراب ويتقيأ ما في أحشائه على الأرضية، وتخفّف بعض الثرثرة التي لا طائل منها حزنه القديم والمتقيّح، وليس رجلاً واعياً فقط، وإنما هو متميز عن أي رجل آخر ستلتقيه في هذا المقهى. وهو يعتمد على رصانته - بالإضافة إلى حذائه الجلدي، وقَصَّة شعره الجميلة، وساعة رولكس ميلغوس التي تتلألأ على رسغه الأيسر - لتحقيق هدفه.

قال لها: "لا أعرف لماذا أخبرك هذا"

ومجدداً، استدارت مبتعدة، غير أنه ناداها مرة أخرى.

أخبرها: "أحاول جاهداً أن أحظى بانتباهك، لكنني آسف. وأنا واثق أنكِ تسمعين قصصاً مثيرة للشفقة طوال اليوم، وتستحقين شيئاً أفضل بكثير؛ رجلاً يمكنه أن ينسى نفسه ويركّز عليك، ويدلّلك، ويجلب لك زهوراً وهدايا، ويدلك قدميك حين تعودين من العمل. يا عزيزتي، *أنتِ تقفين طوال اليوم على قدميك، وهما متقرّحتان حقاً الآن*. أنت بحاجة إلى رجل يهتم بأمر الفاشلين الذين يحاولون التحرّش بك في العمل. *لا تقلقي*، ينبغي *أن تخبري بوريس إن تحرّش بك أحدهم، وهو سيشدُّ ذاك الرجل من شعره*"

ضحكت على نحو مفاجئ، وأفسح تحفّظها المعتاد مجالاً لإشراقة سارّة. وبعد ذلك، سلكت الأمور بينهما مجرى مختلفاً تماماً. وبحلول وقت استعداده للمغادرة، وافقت على لقائه لتناول الغداء في يوم عطلتها؛ أي قبل يومين من حصوله على نتائج تحليله، وخمسة أيام من

زفافه. كان سيفضّل أكثر أن يصطحبها إلى العشاء. لكن الآن على الأقل، وبسبب القيود المفروضة على حريته، العشاء مستحيل. عندما يولد ابنه، سيعمل على إجراء بعض التغييرات في المنزل، وسيضع بعض القواعد الأساسية، وسيُعيد حياته إلى طبيعتها. فالتسلّل خلسة ليس أسلوبه أو طريقة حياته. ويجب أن يعود الرجل المتميز مجدداً، كما كان حين عاش مع جودي.

إنه ليس على طبيعته بعدّة طرائق؛ كما حدث حين تفاجأ بمشاهد من طفولته. أمه تحضّر الحلوى في صباح السبت، وتقف بجانب قدرٍ تحتوي على الزبدة الحارّة، وتقلي مجموعة بعد أخرى، في حين يجلس إلى الطاولة ويأكل تلك التي بردت. ولإسعاد أمه، كان يتناول أكثر مما يريد، ويتابع الأكل بعد أن يشبع، وحتى حين يشعر بأنه على وشك التقيؤ. أثار تفكيره في هذه الذكرى مشاعر مختلطة لديه؛ كما تفعل كل ذكرياته عن أمه؛ بطريقة استلقائها بجانبه وقت النوم، وملامستها جبينه إلى أن يغطّ في النوم، وطريقة لعقها إبهامها لتمسح بقعة من شيء ما عن وجنته؛ حتى بعد أن كبر، ولمستها الحنون الملوّثة برائحة الثوم على يديها، وحبه لهذا وكرهه له في الوقت عينه. انزعج لأن مثل هذه المشاعر قد فاضت أخيراً في ذهنه؛ وكأن باباً كان مغلقاً سابقاً قد فُتح. فهو لا يهتم بهذه الذكريات التافهة التي لا تعني شيئاً عادة، ومن ضمن مخاوفه البغيضة الأخرى خوفُه من أن يصبح رقيقاً، ويفقد تميّزه.

27

هي

في أي وقت من السنة، يُقام عدد من المؤتمرات التي تثير اهتمام علماء النفس في مدن مختلفة في أرجاء العالم؛ وهذا ما خطر ببالها فوراً حين اقترحت عليها أليسون أن تغادر البلدة. فطيلة سنوات ممارستها المهنة لم تكن قد حضرت إلا مناسبة واحدة فقط؛ مؤتمراً عن التواصل أُقيم قبل بضعة أعوام في جنيف. وهي تتذكر كم كان ممتعاً، كما تتذكر سهولة الحديث إلى الناس، وإحساسها بالزمالة، والمتحدّثين المثيرين للاهتمام الذين جاءوا من كل أصقاع الأرض، ومتعة الذهاب لتناول العشاء مع أشخاص تعرّفت عليهم حديثاً في مدينة أجنبية. حينها، عادت إلى مرضاها بطاقة متجددة، وأجرت تعديلات على طريقة تفاعلها معهم، وبدأت تلاحظ على نحو أفضل لغة أجسادهم واختيارهم كلماهم، وتقليدها لهم كطريقة لإنشاء علاقة.

منذ وقت طويل، أضمرت النية لتكرار تجربة المؤتمر، لكنها لم تفعل ذلك. وكان إخلاصها لتود أحد الأسباب. إذ كانت تفكر: من الذي سيعتني به أثناء غيابها؟ لكن ذلك كان مجرد اهتمام سطحي. أما الأساسات فمظلمة من دون شك؛ فهناك الاستئثار والارتياب، وترددها في منحه حرية أكبر من تلك التي يتمتع بها أصلاً؛ أي كل

العواطف المألوفة. ورغم أنها بقيت على الأغلب تحت مستوى الإدراك اليومي، إلا أنها لعبت بالتأكيد دوراً في إبقائها بالمنزل.

أما الآن، فقد اقتصر خيارها بين "التحكّم بالغضب" في مدينة وينشستر التاريخية جنوبي إنكلترا، و"المشاعر، والضغط، وتقدم العمر في جاسكوفيل المشمسة في فلوريدا. وكانت أكثر اهتماماً بمعالجة الغضب الذي لم تحظ قط بالفرصة لدراسته. وبعد حضورها ذلك المؤتمر، وقراءتها المزيد في ما يتعلق بذلك الموضوع، ستعمل مع مرضى يحتاجون إلى المساعدة في هذا المجال. لكنها بعد أن اطلعت على الطقس في ذينك المكانين، وتحدّثت إلى وكيل سفرها عن الأسعار، اختارت "المشاعر، والضغط، وتقدم العمر"، معزّية نفسها بمناظر أشجار النخيل والنسيم الاستوائي.

وهكذا، وجدت نفسها فجأة في غرفة في فندق في جاكسونفيل، تستيقظ على الطنين المتواصل للهاتف على الطاولة بجانب سريرها، فيما الحجرة مظلمة، ومن دون وجود أي ضوء في أي مكان؛ ولا حتى بجانب الستائر أو تحت الباب. انقلبت إلى جانبها لتنظر إلى الساعة الرقمية بأعدادها الخضراء، ورأت أن الساعة لم تبلغ السادسة بعد، وأن الشروق بعد ساعة على الأقل.

منذ وصولها قبل أمس امتنعت عن التفكير في سبب وجودها في هذا المكان، أو في ما يمكن أن يجري في المنزل؛ فالنسيان سهل في عالم المؤتمر غير المعقّد أو المتكلّف؛ عالم تفسح فيه الحياة الحقيقية المجال لعوامل إلهاء وتسلية لا تنتهي. كانت قاعات المحاضرات منارة بضوء طبيعي دافئ، وتُفتح أبوابها على حدائق تحتوي على شجيرات مزهرة. وحين تخطو إلى الخارج وترفع وجهها إلى الشمس تشمّ شذا المحيط.

أقصى ما يجب عليها فعله هو الجلوس براحة على كرسي مبطّن، والإصغاء إلى محاضرات مثيرة للاهتمام، والانضمام إلى الحشد في المطعم لتناول الغداء، والتأنّق لتناول العشاء في البلدة. لم يكن هناك ما يجمعها بأي شخصٍ هنا، وخلفيتها وظروفها خارج نطاق الرادار، وكل ما يعرفه الجميع هو أنها قد تكون جاءت من الفضاء الخارجي أو تجسّدت من الهواء الرقيق.

رنين الهاتف لم يكن ينتمي إلى هذه الصورة، فأغمضت عينيها، وانتظرت أن يتوقف. وعندما أطبق الصمت مجدداً على الغرفة، زفرت نَفَساً بطيئاً ومتأنياً يشبه تنهيدة، وأوصت نفسها بالعودة إلى النوم؛ لكن النوم العميق راوغها الآن، وتخللت الأحلام نومها، وكانت مليئة بمشاهد غريبة ومزعجة؛ بأشخاص، وأضواء ساطعة، وشخص يجري. لم تنقضِ أكثر من بضع دقائق قبل أن يبدأ الهاتف بالرنين مجدداً، وسبر صوته المُلحّ البطيء غور أحلامها مثل شخص ينشج فاستيقظت تماماً. طرفت عيناها من غير داعٍ في الظلام، ثم نهضت من السرير وتلمّست طريقها إلى الحمّام.

لاحقاً، أثناء تناولها الفطور في مطعم الفندق مع مجموعة من الزملاء، اقترب منها شخص من الخلف ولامس كتفها؛ واحدة من منظّمي المؤتمر؛ امرأة ودود ثابرت على تعريف الجميع بنفسها، وأحياناً أكثر من مرة.

قالت: "هناك مكالمة لك، ويمكنك أن تتحدّثي في الردهة"

28

هو

كان ذهنه في الأيام الثلاثة والنصف الماضية مشغولاً بأفكار عن شكل إيلونا ومظهرها؛ كما لو أنها قطع معدنية في حقل مغناطيسي. كانت الأيام الثلاثة والنصف الماضية - أي الجمعة والسبت والأحد وصباح الاثنين - أياماً لم يقل فيها لناتاشا إنه يحبها، واصطحبها إلى التسوّق بمزاج سيئ، ورفض مساعدتها في الأعمال المنزلية، وشرب خلالها اثنتي عشرة قارورة شراب. في تلك الأيام القليلة، وصلت إيلونا إلى قمة الإغراء في خياله الخصب، وأضحت بؤرة إسقاطات غريبة، وقد اكتسبت مكانة نظير أنثوي؛ مثيلته بكل طريقة ممكنة، إيجابية لسلبيته وسلبية لإيجابيته، وصارت كقطعة من لوحة تصوّر حياته برمّتها. يستطيع حتى هو إدراك مسؤولية تأملاته، لكنه في اللحظات المشرقة فقط يبعدها عن ذهنه بحزم.

المطعم في ساوث ديربورن حيث وافقت إيلونا على لقائه حميمي وأنيق. ويتوقع أن ينظرا إلى عيني الآخر فيما هي ترفع كأسها إلى شفتيها، ويتخيّلها تمضغ لقيمات صغيرة من لحم غالي الثمن. لم تتذوق قطّ محاراً طازجاً، ولا فكرة لديها عن تأثير احتساء زجاجة من الشراب الجيد حقاً، وستُصبح نهمة ومدمنة على كل ما يقدّمه

لها. وعندما خرج من مكتبه واستدار نحو موقف السيارات مشى متباهياً، ولم يخطر بباله أنها قد تصدّه، وأن لديها على الأرجح رجلاً في حياتها، وأنها ربما أدركت حقيقة نواياه، وعادت إلى رشدها وغيّرت رأيها. وعلى العكس من ذلك، كانت تراوده فكرة أنه يتجه نحو لقاء حياته؛ الموعد الذي سيقلب كل شيء رأساً على عقب. ورغم أنها لا تعرف ذلك بعد، إلاّ أنها ستكون المرأة المميزة التي ستنقذه من الفوضى التي أغرق نفسه فيها على نحو بائس. إيلونا – النحيلة، الغامضة، الحذرة مثل هرّة، الساذجة مثل طفلة، التي لا تدرك جمالها وقوتها – هي الحل لكل مشاكله. خشخش بمفاتيح سيارته، وضحك بصوتٍ عالٍ، ثم زفر في الهواء الشتوي فخرج من فمه ما يشبه السحابة. راح يعدُّ الدقائق الآن، ويجعل من تحرّكاته رقصة متأنية. ركب سيارته وشغّل المحرك، ثم حرّك المسّاحتين وانتظر أن تزيلا الجليد، وبعد ذلك قاد إلى حافة الرصيف، وهو يشتم حركة السير المقتربة، وتوثّق من نظافة أسنانه في المرآة الداخلية، ثم وضع نظارته وألقى حبّة نعناع في فمه.

شعر بأنه بخير على نحو رائع، أفضل مما كان عليه خلال أسابيع؛ فقد اختفت أذيّته تقريباً، وخفّت نوبات الحكّة، وانخفض قلقه بشأن نتائج تحليله. كان خائفاً حقاً في البداية، وخرج عن طوره يوماً أو اثنين، لكنه استعاد رباطة جأشه الآن. ضغط زر تشغيل المذياع فسمع المقاطع الافتتاحية "للحن غير مقيّد"، ولم يستطع مقاومة أمواج بحر الحنين الذي تثيره الموسيقى الحزينة في نفسه. تذكر فتاة عرفها في المدرسة الثانوية، وشم مجدداً شذا شعرها، والرائحة النفّاذة للجل الرخيص الذي استعملته. ربما هي من يحن إليها، من يعرف؟ أدرك أن

هناك حدوداً تتلاشى وتختفي؛ الحدود التي تفصل الماضي عن الحاضر، تلك التي تميّز ناتاشا عن جودي وعن الفتاة في المدرسة الثانوية. ثم انتهت الأغنية ووجد نفسه في سيارته يقود شمالاً نحو روزفلت.

التزم السير على المسلك بجانب الرصيف، وضغط على المكابح عند الإشارة الحمراء. كانت السيارة التي تسير أمامه من نوع فيراري. وهي انسيابية ومنخفضة على الأرض، ومثيرة ومغرية، وقد تملّكته رغبة متقدة بامتلاك السيارة عينها؛ رغبة حماسية بأن ينتقل على نحو ساحر إلى مقعد سائقها، ويأخذ مكانه خلف المقود. تبدو سيارته البورش – التي يشعر بحماسة دائمة نحوها – متحفّظة، ورزينة، ومتزمتة؛ إنها خيار رجل قد فقد شغفه. كيف يمكن أن يحدث هذا؟ متى تغير؟

حان الوقت تقريباً الآن، ولم تبقَ إلا ثوانٍ، ولو أنه عرف ذلك لما هدرها على قرارات لا يمكنه تحقيقها أبداً؛ فكرة مقايضة سيارته، والتخلّص من الأغصان الميتة، وتحرير نفسه. صدّق أن ناتاشا قد جعلته شاباً مجدداً، لكنه يفهم الحقيقة الآن؛ فهناك امرأتان تفكران في أنهما تمتلكانه، والالتزامات التي يمكنها أن تُثقل كاهل أي رجل. ومع ذلك، ينبغي أن يمضي قدماً في الحياة، ويتحرّك بسرعة حتى لا تستطيعا تثبيته.

عندما حدثت الصدمة الأولى ظن أنها بفعل حجر، وأن أحداً ما قد رمى حجراً عبر نافذة السائق. فقد انفجر الصوت في أذنه اليسرى، وتناثرت شظايا الزجاج على جانب وجهه.

قال بصوت عالٍ: "يا للهول!"

لامس وجنته فيما كان يدير رأسه لينظر. وعندما رأى الثقب الدائري الصغير وهالته من الزجاج المحطّم، ظنّ أن أحدهم أطلق رصاصة عليه؛ رغم أنه لم يكن يشعر بأي ألم. وضاقت عيناه، ولمعت

السيارة التي كانت تتحرّك الهوينا بجانبه عند الإشارة الضوئية في مجال رؤيته، ولاحظ النافذة المفتوحة، والرأس الذي يعتمر القبعة الصوفية، والنظرة الحادّة، وشعلة المسدس. لم يكن يعرف الرجل، لكن لم تخطر أي أسئلة في ذهنه.

لا صحة لما سيُقال لاحقاً؛ أي أنه لم ير شيئاً، أو لم يعرف ما أصابه. ورغم هذا، جرى ذلك بسرعة كبيرة، واندفعت الصور الجانحة إلى شاشة عقله؛ هذا هو كل الاحتضار الذي يمتلك وقتاً له. المفارقة أنه في هذه اللحظة الحاسمة كان ينبغي له أن يركز اهتمامه على ابنه المقبل؛ الطفل الذي لا يعرفه ولن يلتقيه أبداً، ولن يعني له شيئاً أكثر من الآخرين، وأمه الحنون وأبيه السيئ، وكليف وهاري أفضل صديقين له، وناتاشا التي تبدو له مثل طفلة تمسك بيد أبيها – ناتاشا ودين كلاهما ناجيان – كانت صورة إيلونا التي تنتظره في المطعم هي الأكثر إلحاحاً، وفكّر في خيبة أملها التي تزداد كل دقيقة من دون وجود أحد لينقذها منها، وجودي كما كانت يوم جاء إلى المنزل من الريف، مثيرة ومستلقية تحت السماء المكشوفة؛ جودي الجميلة الوحيدة. لو كان لديه خيار البقاء لفعل ذلك من أجلها، لكن لم تبق له خيارات الآن. توقف الوقت مؤقتاً، وكاد وقته ينتهي. ينبغي أن يكون الموت إغواءً وليس اعتداءً، ولو أنه مُنح دقيقة واحدة إضافية لفعل الكثير؛ فحتى المذنب يُسمح له بمكالمة هاتفية، أو إرسال رسالة. كم يشعر بأنه حي، ويتألق ضياءً، مثل فتيل شعلة؛ مفرقعة نارية تكاد تنطلق، وسيمنح الكثير مقابل حصوله على دقيقة إضافية؛ مجرد دقيقة عادية واحدة تُلحَق كيفما اتفق بنهاية حياته.

القسم الثاني

هي

قالت وهي تحمل الهاتف وكأنه قارض ميت: "أنا جودي بريت"

عاد الصوت الجهور مجدداً حازماً ومزعجاً؛ وكأنه يدوي من مكبّر في الردهة. قال المتكلم إنه من الشرطة، ويخشى أن لديه نبأ سيئاً، وسألها إن كانت جالسة.

في الواقع، كانت واقفة وهي مشدودة القامة، وعمودها الفقري منتصب، وقدماها قرب بعضهما، ووركها مستندة إلى طاولة الاستقبال بزاوية ملائمة، وهي تحدّق إلى الوهج المنبعث من أبواب مدخل الفندق الزجاجية. لم ترَ الفرق الذي قد يحدثه جلوسها أو وقوفها، وشعرت بنفاد صبرها من شدة القلق. ولو أنه كان مهتماً براحتها كما يزعم لما حاول الاتصال بها طيلة الليل، مفسداً عليها نومها.

قامت بمحاولة لتجاهل مراوغته، وقالت: "كنت أتناول الفطور، ماذا لديك لتقوله لي؟"

ورغم هذا، لم يتطرّق إلى صلب الموضوع، بل قال: "فهمت أنك تحضرين مؤتمراً هناك" كان صوته أجش ومهذّباً. وكان باستطاعتها تقريباً رؤية الكلمات وهي تخرج من فمه، وكل منها بزّاقة بدينة تزحف إلى أذنها.

فأجابت: "نعم، هل هذه مشكلة؟"

فقال لها: "آنسة بريت، من المهم جداً أن تعودي إلى منزلك فوراً"

خرج الآن اسم تود من بين شفتيه الدبقتين رقيقاً؛ ورغم هذا أثارت كلماته شعوراً بالغثيان وإحساساً بالدوار لديها. وبحلول وقت ارتعاش جفنيها وفتحهما، وجدت رأسها مرتاحاً على وسادة، وهناك حشد من الوجوه يطل فوقها، وشعرت بأنها تائهة وحائرة، في حين تُفتح أفواه كثيرة وتتمتم باهتمام. لكن، حين أُمسكت من ذراعيها وتمّت مساعدتها على الوقوف، عادت بسرعة إلى رشدها. ومرة أخرى، وجدت نفسها وجهاً لوجه مع حقيقتين صادمتين. الحقيقة رقم واحد: تود مات؛ وكافحت لاستيعاب هذا الأمر في حين أدركت ما جرى. والحقيقة رقم اثنين: ذنبها واضح جداً؛ ما جعل شرطة شيكاغو تطاردها. لا شك في أنها عندما تترجل من الطائرة في أوهير ستكون الشرطة هناك بانتظارها، وسيتم توقيفها، وربما تغلّ يداها بالأصفاد وتُنقل إلى زنزانة في قطاع بائس من المدينة حيث توجد السجون.

ونظراً إلى هاتين الحقيقتين، وجدت عدم رغبتها بالفرار أمراً مفاجئاً؛ أي عدم مسارعتها إلى استئجار سيارة، والقيادة بعيداً، والوصول إلى حدود تعبرها، والتلاشي في المجهول. فقد شعرت - رغم أن لا شيء ينتظرها إلا الخطر - أنه لا يمكنها التخلّي عن كل ما تعرفه وتحبه. وعلى أبعد تقدير، كانت ستود الانتظار بضعة أيام إضافية، وأن تستمتع باحتساء المزيد من الشراب في المطعم على الشاطئ، وتنعم بالحرارة الاستوائية والهواء المعطّر لوقت أطول بقليل. هذا الاحتمال يغريها كثيراً لكنه لن يحدث؛ فهم سيزعجونها بالمكالمات الهاتفية، أو ربما سيقومون بما هو أسوأ؛ أي سيرسلون شخصاً ليرافقها إلى الديار.

بعد طمأنة المحقق الذي كان ينتظر عند الطرف الآخر من الخط، وبعد لقاء رئيس المؤتمر لإبلاغه بحدوث وفاة في الأسرة، وبعد تعبير رئيس المؤتمر عن تعازيه ووعده بالنظر في إرجاع جزء من المال، ذهبت جودي إلى غرفتها لإعادة جدولة رحلتها، وإبلاغ جليسة الكلب بعودتها، ولحزم أغراضها.

وعندما حطّت الطائرة، عكست الثلوج الأضواء على المدرَج، وبثت الحيوية في سماء الليل. كانت لا تزال ترتدي الفستان نفسه، وتنتعل الخفّين نفسيهما، لكنها تحلّت بالبصيرة لتحمل معطفاً مطرياً معها. في أثناء الرحلة، تناولت حصتها من الشراب الذي قُدّم لها، ودار مزاجها بصمت عبر حلقة من الأسى واليأس والتحدي. والآن، فيما كانت تخطو على الممر المؤقت وتجر حقيبتها خلفها، تشبّثت بشجاعة هشّة. لم تُحتجز بمفردها في حين ترجّل الركاب الآخرون، ولم يظهر رجال يرتدون بزّات رسمية حتى الآن، وفهمت أنها مسألة وقت فقط. لكن هذا على الأقل يجري على نحو أفضل من المتوقع. وبعد حصولها على أمتعتها من دون مشكلة، تحرّكت نسمة أمل ضعيفة في ضباب تعاستها.

خرجت من المطار مرتدية معطفها - وساقاها لا تزالان عاريتين - إلى الليل القارس، وانضمت إلى المصطفين بانتظار الحصول على سيارة أجرة. كانت الرحلة إلى المنزل عادية، ودخلت مبناها واجتازت الردهة، ثم استقلت المصعد للوصول إلى الطابق حيث توجد شقتها، ثم أخرجت مفتاحها من حقيبتها لتفتح الباب. سمعت نباحاً حاداً يصدر من خلف الباب المغلق، ثم هاجمها الكلب البالغ وزنه ثمانين رطلاً بابتهاج بالغ، والتقت جليسة الكلب. من ناحية

أخرى، ألقت نظرة واحدة عليها ثم انفجرت بالبكاء؛ ذاهلة من نبأ المأساة. دفعت للفتاة أجرتها وصرفتها، وانتابها شعور جيد بعد عودتها إلى أمان المنزل، وتشجّعت بحظها الطيب.

وبعد تحسّن مزاجها، صار تفكيرها أكثر صفاء، وبدأت باستيعاب أن فشل الشرطة في التربّص بها لا يعني إلا أن وضعها ليس رهيباً كما افترضت، وأن استدعاءها إلى ديارها من المؤتمر أمر روتيني، ومسألة إجراء متّبع. احتفلت بالنتيجة التي توصلت إليها باحتساء كأس من الشراب، وتناولت الطعام جيداً لأول مرة منذ تلقيها الخبر أثناء تناولها الفطور؛ فقد تركت الجليسة بعض اللحم المعلّب في الثلاجة فاستخدمته لتحضير شطيرة لها، وأضافت إليه المخلل والخردل الحارّ، وتحسّن مزاجها بعد دخول الطعام إلى جوفها. ثم غيّرت ثيابها وارتدت جينزاً وحضرت إبريقاً من القهوة، ووجدت نفسها مهتمة كثيراً بطريقة وفاة تود. فحتى حين كانت على متن الطائرة لم تتوقف عن التخمين، وأعادت المكالمة الهاتفية في ذهنها، محاولة أن تتذكر الكلمات التي استخدمها الشرطي تحديداً لنقل النبأ. *وقعت وفاة... هناك قاتل... إنه عمل إجرامي... آسف لإبلاغك أن ما حصل جريمة... أخشى أنه لا مجال للشك في هذا... الدليل لا يترك مجالاً للشك.* لم يكن هناك شيء محدد في ما قاله؛ لا شيء يمكنه أن يساعد في التخفيف من حمّى تخميناتها. لكن، فيما كانت تتحرّك في أرجاء الشقة مرتّبة الأغراض كما تريد، لمحت صحيفة *تريبيون* على الطاولة الصغيرة.

القصة أكبر مما توقّعت. تبدأ على الصفحة الأولى وتمتد إلى الصفحة الداخلية. لم تتخيّل أن تحظى جريمة قتل مطوّر عقاري صغير

الشأن بأي اهتمام خاص لدى العامة عموماً. لكن المراسلين يستخدمون القصة من دون شك لامتطاء خيولهم الخشبية، ولنشر مقال عن تجارة الممنوعات وأزمة الأسلحة النارية. هناك الكثير من التخمينات المتهوّرة. فمثلاً، ذُكر أن هناك احتمالاً بأن تكون عملية القتل اعتداء انتهازياً قام به مراهقون مهوّوسون بالسلاح ومنتشون بالأمفتامين، وتضمنت نظرية أخرى الرعاع. لكن، عند تنحية التخمين جانباً، تبدو حقائق القضية واضحة تماماً.

أُردي رجل في سيارته بعد ظهر الأمس أثناء انتظاره عند إشارة مرورية على المتحلق الجنوبي في شيكاغو. عُرف أن الضحية هو تود جيريمي غيلبرت، 46 عاماً، رجل أعمال محلي. وقد أُصيب برصاصة في الرأس عند الساعة 12:45 تقريباً عند زاوية ميتشيغان وروزفلت. ووفقاً لشاهد عيان، توقفت سيارة بجانبه، وفتح مسلح أو أكثر النار عليه. وتسعى الشرطة للحصول على وصف للسيارة. وبعد حدوث إطلاق النار، تحركت سيارة الضحية إلى التقاطع، واصطدمت برصيف وتوقفت. ووُجد الضحية مرمياً فوق المقود، و لم يتأذّ أي من عابري السبيل.

فكرت في حركة المرور وقت الغداء، وعزلة السيارتين، والعوامل المساعدة التي بقيت علامات استفهام. ذُكر في المقال: "مسلح أو أكثر"، ممّا يجعل العدد خاضعاً للتخمين. لكن، لا بد من وجود رجلين؛ الأول ليقود والثاني ليطلق النار لا أكثر؛ لأن وجود رجل ثالث لن يكون ضرورياً، ثم إن المال بالكاد يكفي لتنفيذ المهمة،

ولا تعرف إن كان أحدهما ريني أم لا. وانتابها انطباع بأن ريني يبقي يديه نظيفتين، ثم إن أليسون تكلمت عن مجنّدين. وبغض النظر عن هذا، إن صورتها الذهنية عن الرجال مبهمة، فهي لم تلتقِ ريني أو ترَ صورته مطلقاً.

دُهشت من التوقيت؛ سيارة تتباطأ عند إشارة المرور، ويتم إطلاق الرصاص عبر نافذتها. ورغم وجودها في مكان عامّ – تقاطع رئيس، وأثناء ساعة الازدحام – اختفت السيارة قبل أن يلحظ أحد ما جرى. وهذا واضح؛ لأن الشرطة – بخلاف هذا- كانت ستحصل على وصف لها. فكّرت في هذا الأمر، وأدركت أن الهروب السريع لا يمكنه أن يحصل إلا إن تحوّلت الإشارة إلى اللون الأخضر وقت حدوث عملية القتل تماماً. لا بد أنهما قد انتظرا ذلك، ومع انقضاء الثواني وتجهيزهما سلاحهما، استغلا لحظة تحوّل الضوء إلى اللون الأخضر تحديداً كي يستطيعا الهرب عبر التقاطع.

ينبغي أن تعرف ما جرى خطوة خطوة، لتعيد في خيالها تركيب الحادثة الاستثنائية المروّعة التي لا تزال عاجزة عن قبولها. تخيلته وهو يغادر المكتب، ويمشي إلى ساحة وقوف السيارات، ثم يركب في البورش ويتجه شمالاً على ميتشيغان، ويكون في المسلك الأيمن حين يتوقف عند الإشارة. ينبغي أن يكون في المسلك الأيمن؛ لأن القاتل سيجلس على المقعد المجاور لمقعد سائق السيارة المجاورة؛ قريباً من هدفه وواثقاً من تسديده، من دون أن يترك شيئاً للصّدفة.

لنقل إن تود والقاتلين يتلكآن جنباً إلى جنب عند خط الإشارة المرورية، وتود غافل عنهما، ولا يدري أنه أصبح هدفاً، ولا شيء يدل على أنه معرّض للخطر. وفي الوقت نفسه، لا توجد خطة محددة

لدى الرجلين، وهما يرتجلان حقاً، ويتحيّنان اللحظة الملائمة، والفرصة المؤاتية. وعند الضرورة، سيخرجان من سيارتهما ويقتفيان أثر فريستهما سيراً على الأقدام، لكن في أفضل سيناريو لن يصل الأمر إلى هذا الحد، فكلما أسرعا في الانتهاء من هذا، عادا إلى المنزل باكراً وحصلا على أجرهما.

محض مصادفة؛ مصادفة لا يحدّها إلا تدفق حركة المرور. وتوقفه عند الضوء الأحمر مصادفة أيضاً، وكذلك أن الموقع بجانبه كان شاغراً. وعندما أصبحا في البقعة بجانبه، رأيا أن فرصتهما سانحة، فاستطلعا المكان، وحدّدا طريق الهروب؛ لأنهما بعد إنجازهما فعلتهما ينبغي لهما أن يتحرّكا بسرعة. لذا، انتظرا مراقبين حركة المرور والمارّة الذين يمشون أمامهما، وانتظرا أن تخفّ حركة السير، وشاهدا الضوء الأخضر وهو يوجّه الحركة، وترقّبا تغيّره إلى البرتقالي، ناظرين إلى السيارات التي تستدير يساراً وتتحرّك نحو التقاطع. انتظرا مثل مرتزقين شبه مخبولين يقدمان على مجازفة. وأخيراً، الشخص الذي لا يقود – أي القاتل المحدّد – سددّ فوهة مسدسه، ومدّ سلاحه عبر نافذته المفتوحة.

كم عياراً نارياً أطلق؟ لم تحدّد القصة الواردة في الصحيفة العدد، لكن الصياغة والفكرة العامة وهي أن "مسلحاً أو أكثر أطلقوا النار" تدل على إطلاق وابل من الرصاص. هل أصابته أول رصاصة؟ هل تسنّت له فرصة ليدرك فيها أنه يلاقي حتفه، ويفكر في ما يجري وسبب قتله؟ اكتشفت الآن أنها ترغب فعلاً في أن يكون قد أدرك الحقيقة. ورغبت فعلاً في أن يكون قد فهم أنها المسؤولة عن ذلك، وأدرك أنه جلب ذلك لنفسه. لكنها شكّت في احتمال أن يكون قد

فكر فيها؛ فوفقاً لما يعرفه عنها، لم يكن من طبيعتها إلحاق الأذى به، و لم تكن جودي التي يحملها في قلبه شخصاً يمكنه فعل هذا.

على نحو غير واعٍ، استعدت للنوم من دون ترتيب البيت أولاً؛ فأطباقها ظلّت في المغسلة من دون أن تُنظّف، وحقيبتها في الردهة لم تُفتح. النوم أسلوب تجاهل يفرضه عليها تعبها. لكن، عندما انسلخت عنها أول طبقة من الإرهاق، وجدت نفسها قد عادت إلى السطح وعيناها مفتوحتان. كشف الضوء الأشكال الداكنة للأثاث، ومواقع النوافذ والأبواب، لكنها فشلت في الاندماج بأي شيء يمكنها أن تتعرّفه. فاليوم، والمكان، وظروف حياتها انسلّت من بين يديها؛ وكأن ذهنها كأس ماء قد فاضت بما فيها. انتظرت قليلاً، وعندما استعادت قدراتها عرّفت ما حصل معها على أنه ناجم عن عناء السفر. وشعرت بالرغبة في العودة بالزمن إلى الوراء وإعادة التفكير في خياراتها.

الإحساس بالطمأنينة والتفاؤل الذي شعرت به لدى قراءتها المقال في الصحيفة – لمعرفتها أنه لم يتمّ التعرّف إلى السيارة أو المعتدين – قد استُعيض عنه الآن بإدراك متأخر لحقيقة أن كونها طليقة الضحية يجعلها تلقائياً المشتبه فيه الرئيس، وسيكون الوضع أسوأ إن كان اسمها مذكوراً في الوصية. ووجدت أن حقيقة عدم تفكيرها في هذا الأمر من قبل – حين كانت تحوك المكيدة، وتخطط مع أليسون، وتبيع أغراض منزلها، وتفر إلى المنطقة الاستوائية – مدهشة؛ وكأنها عانت نوعاً من الغيبوبة؛ حالة تنويم مغناطيسي ذاتية، غيبوبة تفكير رَغبي. فزعت حين تلقت المكالمة في فلوريدا، لكن ذلك يبدو ثانوياً الآن؛ *فحينها* شعرت بالأرق واحتست الكثير من

الشراب. أما *هذا* – أي ما تشعر به الآن – فقاسٍ وشائك؛ مثل دم يعود إلى أطراف ميتة؛ وكأن شخصاً ما قد هزَّها بعنف وجعل دمها يفور.

كان تود طفلاً بطرائق عديدة. وبتعبير فرويدي، كان في حالة تطوّر نفسية وجنسية موثّقة؛ مثل طفل يبلغ من العمر خمسة أعوام ولا يزال يحب أمه كثيراً، ولهذا يوجّه اهتمامه إلى كل النساء، في تجسيد لعقدة أوديب. لم يُلهمها فرويد مطلقاً، لكنه عرف حقاً كيف يقهر شهوات شخص ما. ولنقل فقط إن تود لم يكن من النوع المستبطن، أو من أولئك الذين يحلّلون عيوبهم عادة من وجهة نظرهم؛ رغم أنه وبكل إنصاف قد تجاهل أيضاً ما يتعذّر الدفاع عنه لدى الآخرين. كان رجلاً صفوحاً، لكن هذا لا يُحلّه من واجبه بأي طريقة. وستودُّ التصديق أنه سيضطر في الموت إلى مواجهة الأمور، وأنه حتى هناك يفكّر ملياً في آثامه. لكن، لا يمكنها التخلّص من الشعور بأنه قد استطاع الهرب بطريقة ما، واستخدم أساليب ملتوية لينجو من دون عقاب، كما هي حاله دائماً.

قُرع الباب في الصباح فيما كانت تشرب القهوة وتقرأ الصحيفة. وقصة اليوم التي اختزلت إلى عمود واحد لم تقدّم أي معلومة جديدة. كانت لا تزال رطبة بعد اغتسالها، وترتدي رداء من نسيج وبري وجوربين قطنيين أبيضين، وتفكر في أنها عندما تنتهي من احتساء قهوتها – التي تأمل في أنها ستتكفّل بتخليصها من صداعها – ستعود إلى السرير وتنعم ببعض النوم الذي فقدته في الليلة الماضية أثناء استلقائها مستيقظة والأفكار تدور في رأسها. لن تستقبل المرضى اليوم، ولا التزامات لديها؛ لأنه وفقاً لجدول أعمالها لا تزال في

فلوريدا. لذا، لم تكن تعرف من الطارق، لكن لا بد أنه البوّاب أو أحد جيرانها؛ فأي شخص آخر ينبغي له أن يضغط على زرّ الجرس من الردهة، أو هذا ما افترضته؛ ناسية أن أفراد الشرطة يتمتعون بامتيازات خاصة ويذهبون إلى حيث يشاءون.

كان المحقق - وهو رجل في منتصف العقد الثالث أو آخره - مربوع القامة، ووجهه مربّع، وعيناه بلون التراب، وفوقهما حاجبان مثل شريطين مستقيمين وضيقين. وتحت معطفه المتدلّي والمفتوح، كان يرتدي بذلة بنية وقميصاً أزرقَ فاتحاً، ويضع حول عنقه ربطة عنق عليها شريط مستقيم عريض وبسيط. أدركت - حتى قبل أن تلاحظ خاتم الزفاف في إصبعه - أنه رجل أسرة؛ رجل لديه ثلاثة أولاد أو أربعة تقل أعمارهم عن اثنتي عشرة سنة، وزوجة تحب الأمان الذي يوفره لهم بالتأكيد.

سألها: "هل أنت الآنسة جودي بريت؟"

فأومأت.

عندها، أخرج محفظته وفتحها، ثم رفعها إلى مستوى عينيها كي ترى بطاقة هويته.

"أنا المحقق الرقيب جون سكينر، هل تسمحين لي بالدخول؟"

تنحّت جانباً، فدخل الردهة مغلقاً الباب خلفه.

وقال لها: "آسف لتطفّلي في مثل هذه الساعة الباكرة" في إشارة إلى رداء الاستحمام الذي كانت لا تزال ترتديه. "إذا سمحت لي، أودُّ تقديم تعازيَّ. أدرك مصابك الجلل حين نقلنا النبأ إليك. ومن المؤسف أن يحدث الأمر بهذه الطريقة؛ أعني عبر الهاتف. لقد اتصلنا بشرطة جاكسوفيل، لكن كان هناك نوعٌ من سوء التقدير

سألته: "هل أنت من كلّمني؟"

"لا يا سيدتي، كان ذلك الشرطي دافي، لكنه أبلغني فعلاً بحزنك الشديد"

خطرت لها فكرة عابرة ماكرة، وهي أن إغماءها قد أكسبها بعض التعاطف الذي قد يكون على الأرجح سبب هذا التهذيب الجم. دعته للدخول، ومشت أمامه إلى غرفة المعيشة التي أصبحت في هذه اللحظة مضاءة على نحو رائع بشمس الصباح. مندهشاً من المنظر قال لها: "لا بد أنكما استمتعتما كثيراً بمشاهدة هذا المنظر

فقالت: "نحن نستمتع به، أو كنا" وتلعثمت، ثم سيطرت على نفسها، وتابعت: "أحب المنظر وكذلك كان تود. وهذا هو سبب انتقائنا هذا المكان الذي ليس كبيراً كما كنا -" وتركت الجملة من دون إنهاء، محرجة فجأة من امتيازها؛ وهي تفكر في المنزل الصغير والضيق الذي سيكون كل ما يستطيع هذا الرجل تحمّل تكلفته براتب الشرطي؛ خاصة بوجود أسرة من خمسة أفراد أو ستة.

سألته: "هل يمكنني أن أقدّم لك القهوة؟"

"حسناً، إذا لم يكن هذا مزعجاً"

"لا إزعاج إطلاقاً. هناك كمية جاهزة"

فقال: "إذاً، من دون سكر

وعندما عادت مع كوب قهوة وأعطته إياه، اعتذرت منه قائلة: "إذا منحتني دقيقة فقط، فسأرتدي بعض الثياب"

منحها الهروب إلى غرفة النوم مهلة قصيرة كانت تحتاج إليها بشدة. فيداها رطبتان، وشعرها رطب، وشعرت بأنها متسخة رغم اغتسالها للتو. لو أنها قد توقعت تلقيها زيارة من الشرطة فبالتأكيد ما

كانت لتتوقعها كما حصلت. ففي البداية، لا بد من وجـــود اثـــنين منهم – ألا يأتون عادة أزواجاً؟ – وأن يكونا قاسيين معها، ويستفيدا من حالة عدم ارتدائها الثياب لإفقادها توازنها، وأن يستخدما سياق الحديث كسلاح. على الأقل، ذلك سيثبّط عزيمتها ويحطّم دفاعاتهـــا، في حين أن وجود محقق واحد يتحدث معها بأسلوب مهذّب بإفراط يثير تساؤلها. ما الذي يمكن أن يعنيه هذا؟

عادت إلى غرفة المعيشة بعد أن ارتدت سروالاً ضيقاً وقميصـــاً نظيفاً، وقد وضعت بعض اللون على وجنتيها وربطت شـــعرها إلى الخلف. استدار المحقق الواقف بجانب النافذة متأملاً المنظر في الخارج نحوها حين دخلت. ورغم أنها لم تُصدر صوتاً، إلا أنه لمحها في رؤيته المحيطية. جلس كلاهما؛ هي على الأريكة، وهو علـــى كرســـي ذي ذراعين قبالتها.

بدأ كلامه بالقول: "أعرف أن النبأ وقع عليك مثل الصـــاعقة. وفي عالم مثالي، كنا سنمنحك وقتاً كافياً لتتمالكي نفسك قبـــل أن نتطفّل عليك. لكن، ينبغي أن نعمل على هذا من دون تأخير. فليس لدينا ما نعتمد عليه، وبانقضاء كل ساعة نبتعد أكثر عن هدفنا. وأنا واثق بأنك تقدّرين الوضع الذي نواجهه"

رفع يديه؛ وراحتاه إلى الأعلى، ملتمساً الفهم.

ثم تابع: "ربما كانت لديك معلومات قد تساعدنا في تحقيقنا من دون أن تعرفي؛ كتفاصيل عن نمط حياة الضحية، وسجل لتحرّكاتـــه في الأيام والأسابيع السابقة للجريمة. قد تكون هذه المعلومات حاسمة في توضيح حقيقة ما جرى فعلاً. مثل شيء قاله أو فعله وربما تجاهلته في ذلك الوقت، وسيتبين الآن أنه قطعة مهمة من الأحجية. لا يمكنني

أن أشدّد كفاية على قيمة مساعدتك لنا في حل هذه القضية؛ فأنت مهمة لنا جداً، وأريدك أن تفكري في نفسك بهذه الطريقة"

ونظراً إلى فزعها، وجدت أنها لا تستطيع النظر إلى عينيه؛ فذنبها ينبغي أن يكون واضحاً تماماً لرجل مثله؛ رجل قوي البنية ويتمتع بخبرة كبيرة متراكمة. لماذا يعذّبها بكل هذا الهراء عن قيمتها وأهميتها؟

فقالت: "آسفة، لكنني قد نسيت اسمك؟"

فكرّر اسمه – المحقق الرقيب سكينر – لكن، حتى بعد أن قاله نسيته مجدداً. كانت لا تزال تفكر فيه على أنه رجل أسرة.

قال: "بشأن هذا العمل والتطفّل على شؤونك، صدّقيني، أتمنى وجود طريقة أخرى لمعالجة القضية. فقد قُتل شخص تعرفينه، وأنت بالكاد تملكين الوقت لإدراك الحقيقة، ورغم ذلك نحن هنا نزعجك، ونطلب منك استرجاع ذكريات قد تكون مؤلمة بالنسبة إليك في مثل هذا الوقت"

كان صوته يتمتع بنبرة إيقاعية هادئة استفزّتها. وهو متزن ومجامل وواثق من نفسه؛ كما لو أنه هرٌّ يستعد للانقضاض على فريسته. نظرت إلى أصابعه القوية، وأظفاره النظيفة، والشريط المستقيم على ربطة عنقه، وشحمتي أذنيه اللتين تتقوّسان مثل هلالين على جانبي رأسه من دون امتداد زائد.

قال: "هذا الجزء من العمل قاسٍ بالنسبة إلى الجميع. ونحن لا نحبه مثلك تماماً، ونحاول أن نكون لطفاء قدر المستطاع، لكن الناس يشعرون بالإساءة، ولا يمكننا أن نلومهم حقاً"

شعرت بالسخونة والبرودة في الوقت ذاته؛ رأس ساخن، وأطراف باردة. في أي ثانية الآن سينفجر ضاحكاً. نهضت عن

الأريكة، وبحثت في الخزانة الجانبية عن علبة مارلبورو تعرف أنها هناك. ورغم أنها لا تدخن، بدت لها الفكرة جيدة الآن.

سألت رجل الأسرة وهي تقدّم له العلبة: "هل تريد واحدة؟"

فرفض، ووجدت علبة عيدان ثقاب وأشعلت واحدة لنفسها. كانت قد دخنت لفافة تبغ لآخر مرة قبل عشرين عاماً أو نحو ذلك؛ حين كانت لا تزال في المدرسة. لكنها سحبت منها نفساً عميقاً الآن. لم يدهشها أن الغرفة تدور، فانتظرت ريثما هدأت، ثم عادت إلى مقعدها وهي تحمل اللفافة في إحدى يديها، وفي الأخرى منفضة تحتفظ بها لجمالها.

قال عبر سحابة الدخان: "بشأن علاقتك مع الفقيد، أرجو أن توضّحيها لي"

أرادت أن تخبره الحقيقة؛ وهي أن الفقيد كان شخصاً بالكاد تعرفه، أو إنه ليس الرجل الذي ظنّته بأي حال. ولكنّها قالت بدلاً من هذا أنهما عاشا معاً لمدة عشرين عاماً. فاستغل هذه المعلومة، وانقض عليها بأسئلته؛ مستنزفاً كل قطرة يمكن تخيّلها. فسألها عن سبب عدم زواجهما، وإن كان هذا مهماً لها أو لا، وماهية شعورها بشأن تركه إياها، وإن أحسّت باقتراب ذلك، واهتم كثيراً بمسألة فشلهما في إنجاب أولاد؛ لأن هذا يعني في عالمه شيئاً. كما أراد أن يتوثق من معرفتها خطيبة تود؛ المرأة التي كان يعيش معها في وقت وفاته. وعندما كانت تظن أنه قد وصل إلى خط النهاية، كان يعود أدراجه، ويبدأ بطرح الأسئلة مجدداً. ما الظروف التي قادت إلى رحيله؟ هل أجرت لاحقاً أي تواصل معه؟ هل استشارت محامياً؟ هل تعرف أنه كان في وقت وفاته أباً مستقبلياً؟

تابع كلامه باستمرار، وطرح أسئلة أكثر تطفلاً. ومال إلى الأمام على كرسيه الآن، متجهماً ووقوراً. كان يعرف بشأن مهنتها، وأنها تمارسها في المنزل بدوام جزئي، وأنها ذهبت إلى فلوريدا لحضور مؤتمر. وقال: "هذا مؤسف جداً يا سيدتي؛ أعني أن تضطري إلى العودة من فلوريدا. فبعد أن استطعت الهرب من البرد، حدث هذا وأعادك. أي نوع من المؤتمرات كان؟ إذا لم تمانعي سؤالي"

بحثت من عُقب لفافة تبغها، وحدّقت إلى الدخان بعينين دامعتين. استُبدل بنشاط العقل الذي أحدثه استنشاق النيكوتين وأول أكسيد الكربون ضيقٌ في الصدر الآن. قالت: "كان مؤتمراً عن الضغط والتقدّم بالعمر، لمختصي الرعاية الذهنية"

فسألها: "هل كان هناك سبب خاص لوجودك هناك؟ هل دُعيت للتحدّث في المؤتمر مثلاً؟"

فأجابت: "لم أكن متحدثة"

"هل تحضرين مثل هذه المناسبات بانتظام؟"

"ليس *بانتظام*"

"متى إذاً؟"

"لا أعرف. عندما يظهر شيء ما يكون مهماً لعملي

"متى حضرت مؤتمراً آخر مرة؛ أعني قبل هذا الذي عُقد في فلوريدا؟"

"ينبغي أن أفكر في هذا"

"خذي وقتك"

"كان هناك مؤتمر في جنيف. أوه، ربما قبل عامين أو ثلاثة. أظن أنه قد مضى بعض الوقت" وضحكت رغماً عنها بنحو تبريري.

"بأي طريقة كان المؤتمر في جنيف مهماً لعملك؟"

"كان الموضوع هو التواصل؛ وذلك هو المجال الرئيس بالنسبة إلى أي عالم نفس استشاري"

"إذاً، كان آخر مؤتمر حضرته قبل المؤتمر الذي كنت به في فلوريدا عن التواصل، ونُظّم في جنيف قبل عامين أو ثلاثة. هل فهمت هذا جيداً؟"

"ربما كان قبل أربعة أعوام"

"إذاً، هل يمكننا القول أربعة أعوام؟"

عرفت ما كان يرمي إليه؛ وهو أن وجودها مصادفة في مؤتمر خارج البلدة، وفي هذه المناسبة الخاصة تحديداً يبدو ملائماً أكثر من اللازم، ومدروساً بدقة. ورغم القصة التي وردت في الصحيفة – والتي ركّزت على مراهقين منتشين بفعل الممنوعات وتحدثت عن جريمة منظمة – يعرف هذا المحقق ما يتعامل معه تحديداً. والمعلومة الأكثر أهمية هي حجة غيابها المُحكمة والمتقنة التي تعمل الآن ضدها، والتي لم تكن بحاجة إليها بأي حال؛ لأنه لا أحد يمكنه أن يشك في تورطها في عملية إطلاق نار من سيارة. فكونها عملية قتل مأجورة ستبدو واضحة للجميع؛ حتى لطفل في العاشرة من عمره.

قالت بحدّة: "يا للهول! كيف لي أن أعرف؟ ربما كان قبل خمسة أعوام. كيف تتوقع مني أن أتذكر شيئاً مماثلاً في وقت مثل هذا؟"

فأجاب بطريقته الهادئة: "حاولي أن تهدئي الآن يا سيدتي. أعرف مدى صعوبة هذا عليك، لكن كما قلت لك من قبل، يتبين مصادفة أحياناً أن معلومة عادية يمكنها أن تكون بالغة الأهمية؛ لذا لا

يمكننا إهمال أي شيء. آسف لتعريضك إلى هذا. آسف حقاً، لكن حل القضية سيكون لمصلحتك أيضاً"

وجدت الغرفة ساكنة وخانقة جداً، وخشيت أن يغمى عليها، وراحت تفكر في النهوض لتفتح النافذة. لكنها بدلاً من هذا، أمسكت نسخة من *أرشتر كشورال دايجست* من كومة مجلات على الطاولة الصغيرة، واستخدمتها كمروحة. في هذه الأثناء، انتقل المحقق إلى أسئلة أكثر حساسية. *كم دخلك؟ كم كان دخل الفقيد؟ هل أعطاك أي مال بعد تركه لك؟ ما القيمة الإجمالية لممتلكاته؟ هل تعرفين بنود وصيته؟* ولم يكتفِ بهذا فقط، وإنما سألها عن والديها وصديقاتها ودوّن أسماءهم. ولكن، من دون اسم أليسون الذي أبقته لنفسها.

وعندما وقف على قدميه أخيراً، استدار مرة أخرى نحو المنظر، وعلّق على الغيوم المتجمعة فوق البحيرة، وقال: "سمحاق، سيهطل الثلج"

نظرت إلى الخارج نحو السديم الأبيض. الآن، إنه يريد أن يتلكأ ويتكلم عن الطقس، وبعد ذلك سيدعو نفسه إلى الغداء. تحركت عمداً نحو الردهة، فلم تترك له خياراً إلا أن يتبعها. وأثناء خروجه من الباب، أعطاها بطاقته وقال: "اتصلي بي لأي سبب. فكما قلت، نحن نعتمد على مساعدتك، والجرائم تُحل حين يخبرنا الناس أشياء. اتصلي بي حتى إذا ظننت أن الأمر ليس مهماً، ودعيني أنا أقرّر. رقمي موجود هنا"

شاهدت صفحات النعي في *تريبيون*. وفي آخر الأمر وصلت إلى الإعلان؛ الموجز الذي يتكوّن من بضعة سطور فقط تخص إجراءات

الجنازة، ولا شيء يتعلق بطريقة وفاته. وهي، جودي لا ذكر لها مطلقاً. لقد ذكرت ناتاشا - التي كتبت المقال من دون شك - أنها والجنين المفجوعان الرئيسان. "تبقى ذكرى تود جيريمي غيلبرت، البالغ من العمر 46 عاماً، والمقاول، في المرأة التي كانت ستصبح زوجته، وابنهما الذي لم يولد بعد" عشرون عاماً عاشتها جودي معه، رعته خلالها واهتمت به وأخلصت له وصبرت عليه؛ وكلّ ذلك لم يؤهلها لتُذكر علناً، في حين وُصف هو نفسه في نعيه بأنه "مقاول" يجب أن تعرف ناتاشا قصته: أنه انطلق من بدايات متواضعة، وحقق نجاحاً بقدراته الذاتية وعزيمته. كان تود الرجلَ العصامي الأخير. وإذا تسنى وقت أو مكان لمنحه الفضل الذي يستحقه، فسيكون الوقت الأنسب هو الآن بالتأكيد.

لم تقرّر بعد إن كانت ستحضر الجنازة أم لا، ولم تتكلم عن الأمر مع مرضاها، وكانت تنام كثيراً، وتبقى على الأغلب في المنزل. وربما اعتادت أثناء مدة بقائها في البيت على عدم الخروج، وربما تحتاج أيضاً إلى فرصة لتتمالك نفسها. كانت تعاني من ثغراتٍ في الذاكرة، وتنسى لحظات طويلة كل مرة أنه قد هجرها حقاً، وحتى إن وفاته لم تغرس نفسها بقوة في ذهنها، ويبدو أن أجزاء منها لا تدرك هذا، أو ربما ترفض تصديقه فحسب. في أحد الأوقات، عندما أبحرت في السديم بين الاستيقاظ والنوم، تخيّلت أنها تتصل به، وتسأله مباشرة إن كان ميتاً أو حياً، وقالت له: "أخبرني الحقيقة، أريد أن أعرف"

وحلمت أكثر من مرة أنه قد عاد إلى الحياة، وكان الأمر واقعياً في معظم الأحيان؛ فهما يجلسان إلى مائدة العشاء، وهي تقول له:

"ظننت أنك مت" فيجيب: "كنت ميتاً، لكن ليس بعد الآن" أو تكون في المصعد مع غريب يتبين لها فجأة أنه هو، ودائماً ينتابها إحساس بالارتياح. كان هناك خطأ مروّع، لكن الآن كل شيء بخير، ويمكن للحياة أن تعود إلى مجاريها. وجعلها هذا المسار المتقطّع تتخذ قراراً بشأن الجنازة. ورغم خوفها من الظهور علناً بوصفها الزوجة المهملة، واهتمامها الكبير بالحفاظ على كبريائها، ينبغي أن تضع حداً لهذا، ويجب أن تعلّم نفسها أنه قد تُوفي.

قد يكون تقبّل موته أكثر سهولة لو لم يكن قد مات بطريقة مروّعة؛ فقد أثّرت طريقة حدوث ذلك فيها بعمق. وعندما كانت صديقاتها يتصلن بها، كانت تتكلم معهن عن ذلك بنحو وسواسي؛ الإعدام العلني الفظيع. وبمرور الوقت، اتقد اهتمامها بالتفاصيل بدلاً من أن يخبو، وشعرت أنها مرغمة على انتزاع كل تفصيل صغير، ولم تملّ مطلقاً من لكز الخرقة البالية. وانتابها شعور بأن ذلك ينبغي أن يعني أكثر مما يبدو عليه، ويصبح شيئاً ذا مغزى؛ قوة غريبة يمكنها أن تستخدمها لتحمي نفسها. لكن الحقائق المخزية تبقى خاملة ومهملة نوعاً ما مقارنة بحقيقة غيابه المهيمنة. عاجزة عن مشاطرة أحد حقيقة وضعها، وجدت نفسها مرغمة على اللجوء إلى عبارات تقليدية مثل: "لا أصدق ما جرى"، و"لا يبدو هذا ممكناً"

ذهب رجل الأسرة لرؤية والديها، وأمطرهما بالأسئلة، واستمدت الراحة من غضبهما وانزعاجهما من تعرض صدقها ولباقتها للتشكيك، ومن اعتراضهما على الخوض في تفاصيل حياتها الخاصة. وكما هي الحال دائماً، يتكلم والداها معها معاً؛ أبوها في الأعلى في غرفة النوم، وأمها في ملحق المطبخ. كانا يعرفان طبعاً ما

كان تود ينوي القيام به قبل وفاته، ولم يقولان جهراً إنه قد استحق جزاءه، لكن كان واضحاً لها أن هذا ما يجول في ذهنيهما. ووجدت تعبيرهما عن ذلك نيابة عنها أمراً محبباً، وكذلك قولهما أشياء ضده.

كما قام رجل الأسرة بزيارة صديقاتها أيضاً، وكنّ أيضاً إلى جانبها.

قالت كورين: "يقترف معظم الجرائم شخص يعرفه الضحية، ويكون في تسعين في المئة من الحالات الزوجة أو الطليقة، لذا يجب *عليهم* أن يتوثقوا دائماً من الأمر. لا تقلقي، فهذا الأمر روتيني"

وقالت ألين: "أنا واثقة بأنك شعرت بالرغبة في قتله، وصدقاً كنت محقّة في ذلك. انظري إلى الأمر من هذه الناحية، شخص ما فعل هذا من أجلك"

وقالت جين: "أخبرت المحقق أنكِ لم تفعلي هذا"

كانت الصديقة التي ترغب كثيراً في التحدث إليها هي أليسون. لكن أليسون لم ترد على اتصالاتها، وهي لا تعرف تماماً ما يجدر بها فعله بشأن هذا. ولم تستطع التفكير في السبب الذي يجعل أليسون تتصرف بهذه الطريقة معها، والأمر بالتأكيد لا يتعلق بمسألة النقود، فقد حصلت أليسون على مالها؛ ورغم أنها لم تكن واثقة تماماً من صحة تسليمها كامل المبلغ مسبقاً، إلا أن أليسون وعدتها بإيصاله إلى ريبي بدفعات ملائمة، وقالت لها: "لا حاجة إلى القلق. سأعطيه نصف الدفعة مسبقاً، أو على الأقل مبلغاً كافياً لتجنيد رجاله، وما تبقى حين ينجز المهمة" ربما تتوخى أليسون الحذر فقط، وتريد تفادي الاتصال بها إلى أن تستقر الأمور. لكن، لو كانت هذه هي الحال لقالت هذا في المقام الأول.

قبل يوم من الجنازة، قادت سيارها في شارع أوك الذي يضم ساحة سيارات كبيرة وأفضل المتاجر؛ لتبحث عن تنورة سوداء، ومعطف أسود، وقبعة سوداء. كانت تعرف أن ارتداء الأسود لحضور جنازة ليس إلزامياً، لكنها أرادت الوصول إلى هذا الحد، لتجعل الناس يعرفون أي نوعٍ من الأشخاص هي، وأنها رغم حماقة تود الأخيرة تتمتع برقي كافٍ لتوديعه باحترام ملائم. وما إن عادت إلى المنزل وأخرجت مشترياها من الأكياس، حتى تلقّت اتصالاً من كليف يورك.

سألها: "كيف حالك؟"

كانت المكالمة غير متوقعة. ورغم أن كليف كان عنصراً ثابتاً في حياة تود، إلاّ أنها لم تره أو تسمع منه إلا نادراً. وخطر لها الآن أن موت تود يُعتبر ضربة موجعة لكليف.

قالت: "أنا بخير، وأظن أن الوضع سيئ بالنسبة إليك أيضاً"

فقال: "ما جرى لا يُصدّق، وكثيرون منا لا يتقبّلونه بسهولة"

وعرفت أنه يعني بعبارة "كثيرون منا" أفراد فريق البناء الذي يضم رجالاً يتشاطرون أعواماً من التاريخ مع كل من كليف وتود.

فقالت: "أعرف. لا يبدو ممكناً"

فقال: "أظن أننا لا نزال في حال صدمة. لكن اسمعي، أردت التوثق منك بشأن الجنازة. آمل أنكِ تخططين للمجيء، وأعرف أن بعض الرجال يفكرون فيك، و... حسناً، إن استطعتُ فقط قول شيء نيابة عن تود، فأنا أودّ القول إنه قد اقترف بعض الأخطاء وقام ببعض الأمور الغبية، وأقحم نفسه في ورطة شائكة. وأنا هنا لا أريد تقديم أعذار له، ولكنْ نظراً إلى ما قد حدث، يبدو أن الأمور قد خرجت قليلاً عن نطاق السيطرة. كان غارقاً بالعمل حتى أذنيه قبل

أن يعرف ما أصابه، وآمل ألا تظني أن هذا تطفل مني، لكنه تكلم عنك حتى النهاية بكل لطف؛ هذا ما فعله حقاً. أظن أنه شعر بأنه تائه نوعاً ما، وأن الزمام قد أفلت من بين يديه. وأظن أنه لو رأى فرصة ليرجع إليك ويعيد الأمور إلى نصابها لاستغلها فوراً"

وعندما قال كليف هذا فكرت في رسالة الإخلاء، وعرفت أنه لا يعرف شيئاً عنها على الأرجح. فلماذا سيخبره تود عمّا يجري حقاً في حين أن الحقائق الجزئية ستكسبه تعاطفاً؟ لكن، بأي حال، إن اتصال كليف بها تصرف لطيف؛ فهو يريدها أن تعرف فقط أنه إلى جانبها. وهي تدرك هذا، وشاكرة للجهد الذي يبذله.

قالت له: "أنا مسرورة لأنك اتصلت يا كليف، *وأخطط* للتواجد في الجنازة. لذا، أظن أنني سأراك هناك"

لكن، كان هناك أمر آخر يدور في ذهن كليف؛ وقد أراد أن يتكلم عن الأعمال.

"لا أود أن أزيد من أعبائك، لكنني أريد فقط القول إن التوقيت لا يمكنه أن يكون أسوأ. فالبناء السكني بحاجة إلى بضعة أسابيع أخرى ليتم إنجازه؛ بهذه السرعة. وقد توقف العمل به الآن. وأكره التفكير في مدة التوقّف إن لم نفعل شيئاً بشأن هذا. لذا، كنت أفكر في أنك – ربما بعد الجنازة – لن تمانعي أن نلتقي، ويمكننا أن نتكلم بهذا الشأن، وندقق في بعض التفاصيل، ونتعامل مع الحسابات غير المدفوعة؛ فربما نجد طريقة لمتابعة العمل

فهمت أن هذا هو السبب الحقيقي لاتصال كليف بها. ورغم أنه ربما كان يعني كل ما قاله، إلاّ أن الأهم بالنسبة إليه هو أن تود يدين له بالمال، وأن المشروع متوقف.

قالت: "أتمنى لو كان بمقدوري المساعدة، لكنني عاجزة عن ذلك مثلك تماماً. وربما ينبغي لك أن تتكلم مع ناتاشا"

صمت بضع ثوانٍ، ولكنه عاود الكلام بقوة. "تود لم يشطبك من وصيته إن كان هذا ما تفكرين فيه. لقد أعال ناتاشا والطفل طبعاً، ولكنه كان سينتظر إلى ما بعد الزفاف لتغيير الوصية، وظنَّ أن ذلك سيكون منطقياً أكثر؛ بطريقة قانونية. لكن لا، أنت بأمان الآن. وفي ما يتعلق بهذا، ناتاشا خارج الصورة"

تمّت الجنازة في مقبرة مونتروز في الجانب الشمالي الغربي. كانت جين وكورين ستنضمان إلى جودي وسترافقانها إلى الجنازة. وعندما رنّتا الجرس من بهو المبنى، كانت جودي واقفة أمام مرآة الردهة لتقوّم مظهر قبعتها الصغيرة شديدة السواد، والخالية من التطريز باستثناء شبكة من الخيوط السوداء، والتي تبدو متحفّظة. بدت كئيبة جداً، وأرملة تماماً؛ مثل جاكي كينيدي. لم تضع تبرّجاً يُذكر، فبدت بشرتها الشاحبة ملائمة وحسنة المنظر هذه المرة فقط.

وحين دخلت مع جين وكورين دار العبادة الصغيرة، استدارت الرؤوس نحوهنّ. جلسن في وسط القاعة. وكان النعش - الجاثم على قاعدة مربعة بجانب المذبح - مغلقاً لحسن الحظ. ورغم معاناتها في قبول حقيقة موته، إلا أنها لم ترغب في رؤية الدليل.

محمية بين صديقتيها، شعرت بسرور لأنها قرّرت المجيء، وبالسعادة لأن دار العبادة مليئة بالمعزين، وبالحبور نيابة عن تود؛ لأن الناس متجمّعين لوداعه. ذكّرها الحشد والمكان والزخارف بكل جنازة حضرتها. واستمدت الراحة من التوافق؛ فالناس يأتون معاً لتحقيق هدف واحد مشترك. وكان الجو كئيباً ولكنه متكلّف. أما

الزهور فذات ترتيب صارم، ورائحة الخشب العتيق مقزّزة، وضـــوء النهار يكافح لعبور الزجاج الملون، والمكان بارداً ورطباً، والاعتـــداد بالنفس ناجم عن الحشد. وأطبق الصمت حين صعد رجل الدين إلى المنبر. بدت لها العظة مألوفة؛ فهي لا ترتبط بأي طريقة ذات مغـــزى بهوية الفقيد، فالجميع متساوون بالموت، ويتميزون بقاســـم إنســـاني مشترك.

وأصبحت جودي أقل سروراً حين تحولت العظة إلى وضع تود كعريس ووالد منتظر، والمعيل المهم جداً الذي انتُزع منـــهم عشـــية زواجه. لكن الواعظ ضنَّ بالعزاء على العروس المفجوعة.

اشكر في كل الأحوال، فالتقدير يكمن تحت السطح. هذا إقرار عميق ودائم بأن الصلاح موجود، حتى خلف أسوأ نوائب الدهر.

وحين انتهت الطقوس، خرج الجميع كما هو معتـــاد؛ ابتـــداء بالصفوف الأولى من الحاضرين، وتبعتها الصفوف اللاحقة بموكـــب جليل ومهيب. لم تقابل جودي قطّ النسخة الراشدة مـــن ناتاشـــا. لكن، لم يصعب عليها رؤية الفتاة التي كبرت حين تجاوزتها شـــامخة الرأس، ومن دون أن تنظر إليها. وباستثناء كونها أطول ممّا كانـــت عليه سابقاً ومن دون ضفيرتين بدت ذاتها تقريباً. فسيماؤها قد تميّزت بقسمات كبيرة ومثيرة حتى في طفولتها. ورافقتها ثُلّة من صديقاتها؛ فتيات بمثل عمرها أحطن بها لحمايتها، ولا أثر لدين؛ رغم أن جودي لم تكن تتوقع رؤيته.

بقي الجثمان في مكانه. وسرعان ما سيُنقل لتحرق الجثـــة. وفي الخارج، تلكأ الناس وتبادلوا التحيّات، وشعر الجميع بالارتيـــاح في الهواء المنعش، والازدحام الاجتماعي، والفرار الوشـــيك إلى ســـاحة

ركن المركبات. وقف هاري لوغروت أمامها، وقدّم لها من دون أي إثر للإحراج تعازيه، واصطف آخرون خلفه. وكيل عقارات تود؛ وهو رجل ضئيل الحجم ويتكلم بسرعة كبيرة. وكليف وهيذر يورك؛ وبدا كليف أنيقاً في بذلته، وحرفيون مختلفون يعرفونها على أنها زوجة تود. أخبرها الجميع أن ما حصل أمر مروّع، وعبّروا عن أسفهم لما جرى. وظهرت ستيفاني، يرافقها مستأجرون، وسألتها عمّا سيحدث لبناء المكاتب، وقالت لها إن هناك فواتير ينبغي دفعها، وإنها لا تستطيع تحرير الشيكات، وتساءلت عن إمكانية متابعة العمل والتعامل مع الأمور، وأبدت قلقها على راتبها.

أجدت كل هذه المناشدات نفعاً مع جودي، وأدركت أن حضورها حفل التأبين وظهورها علانية كانا القرار الصحيح. وراودها إحساس بأن شيئاً ملائماً ولائقاً يجري؛ فقد استعادت بموت تود مكانتها العادلة على أنها زوجته ووريثته. ممسكة بزمام سلطتها المُحدثة؛ السلطة التي يمنحها إياها الحشد والمناسبة، أخبرت ستيفاني أنها ستمعن النظر في تلك القضايا ثم ستكلمها. وكانت جودي شاكرة لستيفاني إبلاغها إياها عن إلغاء تود بطاقات ائتمانها؛ ما جنّبها الإحساس بالإحراج إن وجدت نفسها في أحد المتاجر عاجزة عن دفع ثمن مشترياتها. فهي لم تكن مضطرة إلى أن تدسّ أنفها في ما لا يعنيها.

بعد الجنازة، فيما كن عائدات بالسيارة إلى المنزل، رحن يتبادلن الحديث. وبدأت كورين بقول إن تود كان سيُسرُّ بذلك الحشد. "كان المكان مزدحماً، وهناك أشخاص بقوا واقفين في الخلف"

فقالت جودي: "لم أتعرّف أشخاصاً كثيرين. لا بد أهم على الأرجح قد عملوا معه، وربما كان هناك بضعة غرباء فضوليون قرأوا عن الحادثة في الصحيفة"

فقالت جين: "لا بد أن بعضهم من أفراد الأسرة"

فردت جودي: "لم تكن لدى تود أي أسرة"

"إطلاقاً؟"

"ربما كان لديه قريب أو اثنان في مكان ما. لكنه لم يعرف أحداً"

"وماذا عن أفراد أسرتك *أنت*؟"

"أقنعتهم بعدم الحضور، و لم يكن الأمر صعباً"

سألت كورين: "هل تظنين أن ناتاشا هي التي أجرت الترتيبات؟"

"لا بد أنها من فعل ذلك. وقد كانت الطقوس مبهرجة قليلاً إذا سألتني عن رأيي. وشعرت بنوعٍ من الإحراج نيابة عن تود"

"ما الخطأ فيها؟"

"من الواضح أنها أُقيمت بتكلفة رخيصة. فقد جعلت النعش مغلقاً حتى لا تدفع أجرة التحنيط، واختارت الحرق لتوفير مال التابوت. وبالتأكيد لم يكن تود ليرغب في أن تحرق جثته وإنما أن يُدفن. وربما كان سيحب لو أقيم احتفال تأبين كاثوليكي ملائم أيضاً"

فقالت جين: "لم أكن أعرف أن تود كاثوليكي

"لم يكن كاثوليكياً *ملتزماً*، وإنما رُبّي ليكون كاثوليكياً"

فقالت كورين: "أخمن أن النعش كان رخيصاً. وأظن أنه ينبغي أن يكون كذلك من أجل الحرق"

فأكدت جودي: "كان رخيصاً بالتأكيد. رغم أن تـود كـان سيفضل أن يكون أكثر رقياً"

قالت كورين: "أخمّن أن ناتاشا ستحصل على الرماد"

فردّت عليها جودي: "لتحصل عليه"

"هل تحدثت إليها؟"

"لا، لحسن الحظ. فهي لم تتصل بـي

"إنها تعرف أنه من الأفضل لها أن تبتعد عنك"

"ما الذي يمكنها أن تقوله لي الآن بعد زوال سبب حبورها؟"

فقالت كورين: "رائع أن الأمور قد حُلّت لمصلحتك؛ أعـني في ما يتعلق بالوصية. أنا سعيدة جداً من أجلك يا جـودي. فبالمحصـلة كنت معه طوال الوقت، وتستحقين هذا حقاً"

وقالت جين: "مشيئة الله لا تدركها العقول"

وبعد الجنازة، عادت الحياة إلى إيقاعها الطبيعـي. فاسـتأنفت نزهاتها الصباحية مع الكلب وتمارينها، وقابلت مرضاها، وتناولـت الغداء مع صديقاتها؛ لكن اتزانها المعتاد وثقتها بنفسها قد تزعزعا. لم تعد تمنح عالمها أي درجة من رباطة الجأش، وبمرور الأيـام انتابهـا شعور مرعب مما قد مضى ومما فعلته، وعجزت عن استيعاب طريقة حدوثه. وكل صباح عندما تستيقظ كان ينقضـي وقـت قبـل أن تتذكر، إذ تمر ثانية مسالمة أو اثنتان قبل أن تحس بالصدمة. ويحـدث هذا دائماً بالطريقة ذاتها: مثل خبر عاجل. يمرُّ الوقت لكن الحقـائق ترفض أن تستقر وتهدأ.

شعرت بأن قتلها له قد أفنى أجزاء منها هي نفسها أيضاً. لكنها كانت تعرف في أعماقها أن تلك الأجزاء قد هلكت منـذ وقـت

طويل؛ الأجزاء التي كانت ساذجة وتثق بالآخرين، وصدقها وإخلاصها. لقد فقدت أماكن - حيث فاضت الحياة سابقاً - إمدادها بالدماء، وأضحت مناطق ميتة في نسجها النفسية، وأُصيبت بنوعٍ من الموت الموضعي الذي غزا أيضاً الشيء الذي لم يكن لها أو له وإنما كان الأساس بينهما؛ العلاقة نفسها. كانت تظن أنها - بوصفها أخصائية نفسانية - يمكنها أن تضع حداً لشعورها ذاك، وتجد طريقة لإنقاذ نفسها، وإنقاذ كليهما. لكن العملية كانت دقيقة، وتدريجية، ولا تدركها الحواس. وقد حدثت بالطريقة نفسها التي يتغير بها وجهك عندما تتقدّم بالعمر. إذ تنظر كل يوم إلى المرآة وتفشل في ملاحظة الفرق.

لم ترَ مطلقاً فائدة من الشجار مع رجل لا يمكن إصلاحه. وينبغي أن يكون القبول شيئاً جيداً، وكذلك التسوية؛ كما سيخبرك كل معالج زواج. لكن التكلفة كانت باهظة؛ إذ تضاءل التوقّع، ومالت للاستسلام الذي حل محل الحماسة، فيما خلَفت السخرية الأمل، بالإضافة إلى التفسّخ الذي أصابها و لم يلحظه أحد أو يتوثق منه.

هناك مشاكل عملية أيضاً، وإحداها أنها ينبغي أن تعيل نفسها كلياً الآن، وتتأنى قليلاً حين يتعلق الأمر بالدخل؛ فهي تكسب من مهنتها مبلغاً يكفي لتغطية النفقات المنزلية. ولتأمين كل شيء آخر تحتاج إليه، يمكنها أن تواصل بيع أغراضها الصغيرة التي ستنفد عاجلاً أم آجلاً ما يجعل الفواتير تغرقها. قد تكون وريثة تود المعترف بها، لكنها لا تشعر بالحرية في المنزل، ولا يمكنها التخلص من الشعور بأن الجدران تُطبق عليها؛ رغم رغبتها الشديدة في البقاء في المنزل. رحل الأسرة مجدٌّ في عمله، ويبحث عن دليل يدينها، ويتكلم إلى كل من

تعرفه، ويلاحقها مثل كلب حسن التدريب. وقد اتصلت بها صديقاتها ليخبرنها بهذا، ومثلها كنّ يجدنه منظّماً في عمله على نحو يثير الأعصاب، ومهذباً على نحو متحفّظ، واتفقت جين وكورين وألين على هذا. لم تسمع شيئاً عن أليسون، لكن هذا لا يعني أن الطرف قد غُض عنها؛ فرجل الأسرة لديه طرائق لاكتشاف الأمور. حتى إنه ظهر في الجنازة، ولاحظته بعد الدفن، وهو يقف بمفرده في نهاية الحشد. وقد ابتسم حين نظر إليها؛ ليجعلها تعرف أنه لم ينسها، ويراقبها، وسيعود لرؤيتها مع المزيد من الأسئلة أو الأسئلة عينها؛ في حال ظنّت أنها قد أفلتت من الصنارة.

تذكرت وعدها لستيفاني، فاتصلت بهاري لوغروت لتطلب منه تفاصيل عن عقار تود، واقترح عليها أن يلتقيا إلى مائدة العشاء. لم تكن تتطلع قدماً إلى هذا، لكن عندما جلسا في بلاكي بدأ عملية كسبها إلى جانبه، فأبدى أسفه على رسالة الإخلاء، وقال إنه لم يكن لديه خيار إلا الالتزام بتعليمات موكّله، وإنه يفهم أن تود لم يكن رجلاً يسهل العيش معه، وإنه - هاري - كان يحثّه على الاستقرار وقضاء وقت أطول في المنزل؛ فالمغازلة عادة يقوم بها رجال زوجاتهم قبيحات، أو يكونون طرفاً في علاقة مملة، في حين أن جودي جميلة ورائعة. كما قال إنه لم يكن هناك داعٍ لتصرفات تود الماضية، وإنه قد تميّز بنزعة غريبة لا يمكن كبحها، وكان شاذاً عن المألوف، وخارجاً عن العرف؛ رجلاً يسعى خلف أمر مثالي ووهمي غير واضح المعالم، ولم يكن أي شيء يمكنه إنجازه أو تحقيقه أو تكديسه كافياً له.

كان هاري يتكلم وجودي تستسلم تدريجياً، فهو فاتن ومقنع ومُطّلع، واختصاصاه التوأمان هما العقارات والقانون الأسري؛ وهما

مجالان تحتاج إلى مساعدة كبيرة فيهما. وهو ليس إلى جانبها فقط، وإنما متفائل بشأن إمكانياتها. ومع ذلك، ينبغي أن تستعد لمعركة؛ فرغم أنها مذكورة في الوصية على أنها منفّذها والمستفيدة الوحيدة منها، والوصية شرعية وصحيحة، إلاّ أن ناتاشا كوفاكس ستقدّم بالتأكيد اعتراضاً نيابة عنها وعن ابنها المنتظر، وستجادل قائلة إن الفقيد كان ينوي تغيير وصيته بعد زواجه بها، وإن زعمها يرتكز على أرضية صلبة. لكن هاري سبق له أن رأى مثل هذا النوع من الأمور من قبل، ولا ثقة لديه بشابة تقترن برجل أكبر منها سناً، والله يعلم أنه متمرّس - فقد جُبل في أتون زوجات شابات - لكن، لن تفاجئه معرفة أن ناتاشا كان لديها أصدقاء حميمون بالإضافة إلى الفقيد.

قال هاري: "سنرى"

حتى في حال إثبات أبوّة تود - أضاف قائلاً - فلا شيء يدعو إلى القلق حقاً. وهي؛ جودي، يمكنها أن تثبت أنها كريمة. وتقديم تسوية لإعالة الطفل لن يؤثر على ممتلكاتها.

كان هاري متشوقاً للتوكل عنها، وسيقدّم طلباً لإثبات صحة الوصية، وسيطلب تفويضاً شرعياً، وسيبدأ التجهيز لقضيته. ووفقاً لرغبات جودي، سيتصل بستيفاني ويرتّب احتفاظها بوظيفتها في المجال العقاري.

كانت كل يوم تنتظر عودة رجل الأسرة محاولة السيطرة على نفسها؛ رغم عزمها على إبعاده عن ذهنها، لكن خطوته التالية كانت غير متوقعة. وعندما سمعت القرع على الباب - في بداية الأصيل وهي تكتب قائمة تسوّق - خضعت للأمر المحتّم وفتحت الباب. لم يكن هو الرجل الواقف هناك وإنما كان زميلاً قد أرسله بدلاً عنه؛

زميلاً نحيلاً مثل سكّة حديدية، ولا يمكن أن يتجاوز عمره الثلاثين عاماً. لكنه رغم هذا أظهر لها بطاقة هويته، وأخبرها أنه المحقق زيد - أو - عبيد. للرجل عينا شخص مضطرب العقل؛ فهما زرقاوان باهتتان تقريباً، وبؤبؤاه مثل ثقبين صغيرين، وهناك هلالان أبيضان يبدوان أسفل قزحيتيه. تجاوزها ودخل غرفة معيشتها من دون دعوة. ومثل أي شخص آخر، انجذب إلى المنظر الذي تطل عليه شقتها؛ ممّا منحها بضع لحظات لتنظر إلى ظهره؛ بجينزه الأسود، وسترته القصيرة، وساقيه النحيفتين، ومؤخرته النحيلة، وكتفيه المائلتين، ورأسه الكبير. لكنه لم يقف هناك طويلاً.

وقال: "آنثة بريت، جودي"

كان يبدو نكداً ونزقاً، وراح يتجول في الغرفة، ويرفع أشياء ويعيدها إلى أماكنها؛ المنفضة من جبل سانت ميشيل، وثقّالة الورق، وكومة أقراص مدمجة. قلّب نسختها من *أمريكان سايكلوجيست*. ومن دون أن يرفع بصره نحوه قال: "بشأن الجريمة، في ما يتعلق بطليقك، هناك بضعة أشياء ينبغي أن نناقشها" كان حديثه متقطّعاً؛ وكأنه لا يستطيع التركيز على ما يرغب في قوله، وكان صوته خفيضاً وأجش كما لو أنه عالق في حنجرته، وتحرّكت مُقلتا عينيه على نحو متواصل في وجهه المستوي؛ وكأنه يتحسّب من شيء غير متوقع.

دعته إلى الجلوس، وأشارت إلى الكرسي المريح الذي شغله منذ وقت قريب رجل الأسرة. جلس على ذراع الكرسي لوقت قصير، ثم استأنف تجواله في الغرفة من دون أن يهدأ نزقه؛ وربما كان ذلك متعمداً. جلست على الأريكة، وقالت بنبرة احتجاج: "جاء محقق آخر إلى هنا في الأسبوع الماضي، وقد أجبت على الكثير من أسئلته"

فقال لها: "أكره أن أزعجك من دون سبب وجيه" وحدّق إليها بنظرة متغطرسة ومتأنية، وأمعن النظر إلى حذائها المخطط مثل جلد النمر، وأظفارها المطلية، وخدّيها الجميلين، وذقنها المدبب الصغير. وعندما التقى بصره بصرها مرة أخرى، تابع: "هذه المعلومة الجديدة قد عرفناها منذ وقت قصير. ولا أظن أنكِ ذكرهًا لزميلي المحقق سكينر، وكنا فقط نتساءل؛ كما تعرفين"

وتحرك نحو النافذة مديراً لها ظهره، وواجه الغرفة. "هل تؤكدين أن الفقيد، السيد تود جيريمي غيلبرت؛ طليقك، كان قد بدأ إجراءات إخلاء ضدك قبل وفاته؟ كان يشرع في عملية إخلائك قانونياً؟ من عقاره؛ هذه الشقة التي يعتبر المالك الوحيد والشرعي لها. هل يمكنك أن تؤكدي هذا يا آنثة بريت؟ جودي؟"

تكلم بسرعة كبيرة. لكنه كان يصمت فجأة بعد كل مجموعة غريبة من الكلمات، ويملأ الفراغ بنقل ثقله من قدم إلى أخرى، والنظر في أرجاء الغرفة، وتمرير إصبعه فوق السطوح قرب يده. كان يقف وسط ضوء ساطع يكاد يخطف بصرها، فلم تستطع تمييز سيمائه، أو رؤية عينيه. كيف يمكنه فعل هذا؟! جعلها تهتز على أرضها الصلبة، وتفكر في أنها ينبغي أن تنهض وتعدّل المصاريع أو تنتقل إلى كرسي مختلف، وأن تناول إحدى السجائر من علبة مارلبورو تلك سيكون تصرفاً ملائماً الآن.

أجابت: "نعم، كان يحاول إخلائي

"لكنك لم تكوني تخططين للمغادرة، ولم تريدي أن ترحلي. وكنت تعرفين أنك لن تكوني مضطرة إلى الرحيل لأن لديك أفكاراً أخرى. كنت تضعين خططاً خاصة بك؛ فإن لم يكن موجوداً ليقدم

طلباً إلى الشريف مطالباً بنقلك، فعندها لن يكون *هناك* إخلاء، أليس كذلك يا آنثة بريت، جودي؟ وها أنتِ ذا، لا تزالين هنا؛ ممّا يثبت صحة ما أقوله"

فأجابت: "هذا رأيك"

تابع: "ولن يحصل هذا فقط؛ أي لن يكون هناك إخلاء، وإنما ستصبحين وريثة؛ وذلك إذا خرج من الصورة قبل زواجه من الآنثة كوفاكس، وقبل أن يتمكن من تغيير وصيته. كان التوقيت مهماً؛ أي قبل أن يستطيع إخراجك من الشقة، وقبل أن يتزوج المرأة الأخرى"

شعرت أن ذنبها معلّق عليها مثل رداء ديور ذاك الذي اشترته في العام الماضي أثناء مزاد. وقد يظن أنها مدللة ومسرفة مستعدة لارتكاب جريمة بدلاً من تنازلها عن امتيازاتها، لكن الحقيقة هي أنها مقتصدة جداً. وبعكس الانطباع الذي كوّنه عنها من دون شك، لم تنشأ في بيت فخم، ولم تترعرع في بيئة مترفة. وفي أعوامها الأولى مع تود - حين لم يكن لديه مال - هي التي تدبّرت الأمور، ووجدت طرائق لخفض النفقات، وأوضحت حتى هذا بتعلّمها الطهي. وقد يتفاجأ هذا الشرطي المعتوه حين يعرف هذا عنها. وينبغي له أن يجرّب اللحم المقلي كثير التوابل مع الملفوف المخلّل الذي تعدّه، أو الغنوشي المحضّر منزلياً مع صلصة الكمأ.

انتظر أن تتكلم، لكنها لم تنبس ببنت شفة؛ إذ إن رد فعلها المعتاد حين تتعرّض للإساءة أو المضايقة هو اللجوء إلى الصمت. ففي اللحظة التي تفتح فيها فمك لتدافع عن نفسك، ينالون منك، ويضعونك في حالة دفاع عن نفسك. وهي تعرف هذا بديهياً، وقد عرفته دائماً.

كان يعتقد أنها المذنبة، وهي تفهم هذا، وسيود بالتأكيد أن يجسّد هذا الأمر بوضعها رهن الاعتقال. لكنه إذا كان يخطط لتوقيفها فما كان ليضيع وقته سدى بكل هذا الهراء. ما لا يفهمه هو أنها لن تتداعى. وإذا ظنَّ أنها هدف سهل فينبغي له أن يعيد التفكير في الأمر؛ فهي ليست من النوع الذي يعترف. وبدلاً من إزعاجها أو تحطيم دفاعاتها، جعلها الاستجواب خدرة. وكلما تكلم ازداد استرخاؤها أكثر.

قال: "دعيني أخبرك شيئاً؛ لا يمكنك أن ترثي الرجل الذي قتلته. ربما أنت لا تعرفين هذا، آنثة بريت، جودي"

انتابها إحساس بأنه بعيد جداً؛ على الطرف الآخر من ممر ضيق؛ طفل ناقم يرمي عصياً وحجارة. ورغم أن تسديده جيد، إلا أن مقزوفاته كانت تفقد قوتها عبر المسافة، وتسقط عند قدميها. ربما شعر بهذا وهو يتحرك مجدداً، فقد ابتعد عن النافذة ووقف أمامها. تمكنت من رؤية وجهه بوضوح الآن؛ كانت عيناه تطفوان عالياً في محجريهما، وشفتاه ترتعشان بترفّع واهن.

قال لها أخيراً: "مهما حدث، ينبغي ألا تغادري المدينة. سترينا مجدداً في المستقبل؛ في القريب العاجل"

وبعد تفوّهه بهذه العبارة، مشى نحو الباب متكاسلاً وخرج عبره. انتظرت ابتعاده قليلاً، ثم نهضت وحاولت أن تتنفس بعمق؛ فوفقاً لما تشعر به، لا يمر أي أوكسجين عبر رئتيها.

وجدت نفسها في اليوم التالي عالقة في استبداد الانتظار والوقت الضاغط؛ أي وسط قوة ذات تأثير لا يُحتمل. وبدا لها أن كل ثانية قاسية كانت تمسكها بقوة وتعصرها. افتقر الطعام الذي كانت

تتناوله إلى أي مذاق، فامتنعت في النهاية عن الأكل. وأوهن عملها اليومي الطاقة القليلة المتبقية لديها، فتخلّت عن ذلك أيضاً. حتى إن الشراب فقد إغواءه بالنسبة إليها؛ رغم استمرارها في استخدامه كسائل علاجي، شاكرة تأثيراته المهدّئة. عاجزة عن العناية بنفسها، ركّزت اهتمامها على الكلب؛ فكانت تحضّر له وجبات خاصة، وتأخذه في نزهات طويلة. وبدت شهيته أفضل من أي وقت مضى؛ كما لو أنه يعوّض عن فتور مشاعرها.

أعجبتها حقيقة أن الحياة تمضي قدماً بسلاسة حولها، وأن الناس يمتلكون القدرة على جعل كل يوم مميزاً لهم، وعلى إثراء حياتهم بنشاط وحيوية. احترمتهم من أجل هذا، إذ إنها تعرف أن لديهم مشاكلهم مثل الجميع، لكنهم يستطيعون بطريقة ما دفع أنفسهم إلى الأمام. ومقارنة بها، حتى مرضاها يُبلون حسناً؛ فعلى الأقل، تركوا لأنفسهم فرصاً للتقدّم وبدائل مستقبلية. وإذا كانت الآنسة بيغي تستمتع بحياتها السرية، والقاضي يعاني من جراء انقسام ولاءاته، والابن المسرف وماري ماري يرفضان المشاركة في اللعبة، وسندريلا تتوق إلى الاهتمام، والكيس الحزين لا يستطيع قبول حدوده، وبرغمان لا تستطيع التخلّي عن حلمها، وجين دو لا يمكنها أن تتخلّى عن زواجها، إلاّ أنهم لا يزالون رغم هذا - كل واحد منهم - يؤدون عملاً أفضل مما تقوم هي به.

تناثر كل ما تعرفه أو تتخيّله عن السجن في ذهنها؛ مثل مشكال من مناظر مؤذية وتهديدات مبتذلة. شعرت أنها معزولة، وليس هناك من تثق به؛ استسلمت لأفكارها المرعبة والهدّامة، وصارت ضحيّة لها. ستجري المحاكمة تحت أنظار العامة، وسيصبح كل تفصيل في

حياها مع تود مادة للاستهلاك العلني. وبعدئذ، عندما تهدأ الضجة وينشغل الناس بشيء آخر، بعد وقت طويل من هذا، ستكون لا تزال في السجن؛ تقايض البطاطا المهروسة بأحمر شفاه، وتقوم بأفعال لا تُوصف من أجل حماية الذات.

عندما ظهر رجل الأسرة مجدداً عند بابها، رحّبت به بشراب في يدها ورد فعل مُضمر، وطعم معدتها في فمها؛ وكأنها في مصعد يهبط مسرعاً. استسلمت لنوعٍ غير لائق من الخنوع والإذلال، لكن ذلك على الأقل كان مغلّفاً بمسحة إزعاج. ودُهشت لأن جزءاً منها لا يزال يقاوم.

قال وهو يدخل الردهة: "سامحي تطفّلي

كان الغسق يخيّم، وتحوّلت غرفة معيشتها تدريجياً إلى بئر من الظلال، فأشعلت قنديلاً وقوّت الشعلة. جلسا حيث جلسا من قبل – هي على الأريكة، وهو على الكرسي ذي الذراعين – وكأن تلك الزيارة الأولى كانت تجربة، وقد وصلا إلى الشيء الحقيقي الآن.

"هل أقدّم لك شراباً أيها المحقق؟ آسفة، لكنني لا أتذكر اسمك" وكانت قد بدأت باحتساء الشراب المثلّج وقت الغداء. ورغم أن ذهنها صاحٍ تماماً، إلاّ أنّ كلماتها كانت تتصادم أثناء خروجها من فمها.

قال: "سكينر. لا يمكنني تناول الشراب، شكراً لك؛ رغم أنني أود الانضمام إليك"

كانت قد نسيت كياسته التافهة. لقد جاء لاعتقالها لكنه سيفعل هذا بتهذيب.

قال: "لا أتخيل أن الماضي القريب كان سهلاً بالنسبة إليك، وأرجو أن تصدّقيني حين أقول إننا لا نريد أن نزيد من إزعاجك. أعرف أن زميلي جاء إلى هنا لرؤيتك أيضاً، وآسف لأننا اضطررنا

إلى إجراء تلك المقابلات المتكررة معك، لكنْ كما تعرفين، أولويتنا القصوى دائماً هي إيجاد الطرف الجاني واعتقاله"

لا بدّ أنه يمهّد الطريق إلى ذلك الآن؛ اللحظة التي سيكبّل فيها يديها بالأصفاد ويأخذها معه. هذا ما قد جاء من أجله بالتأكيد. وعند الأخذ بالحسبان تعاطفه الواضح، قد يغفل أمر الأصفاد، ويحرم جيرانها من رؤية هذا المنظر. إنه أمر جيد أنها قد تناولت عدّة كؤوس سابقاً. ورغم أنها تشعر بألم في أمعائها، إلا أنها شعورها سيكون أسوأ لو كانت صاحية. لذا، كل ما ستفعله هو تجرّع الشراب بما أن الفرصة لا تزال سانحة.

قال لها: "ما أقصده هو أن لدينا قضية، وهي مُحكمة الأركان. واجهنا عوائق في البداية، وكان من الصعب تصديق أن شيئاً مثل هذا قد يحدث من دون أن يلحظ شخص ما لوحة السيارة، لكن الأمر اتضح في النهاية"

لم يقل لها كيف اتضح الأمر، ولم تسأله. وعندما نهضت واتجهت نحو المطبخ، رفع صوته ليجتاز أولاً المسافة، ثم ليُسمع رغم الصوت الناجم عن قعقعة مكعّبات الثلج في الدلو. وفي النهاية، صار يصرخ عملياً.

"عادة، طبعاً، تشعر أسرة الضحية وأصدقاؤها بالارتياح حين ننفذ اعتقالاً. لكنهم في بعض الأحيان لا يرحبون بالنبأ، وحتى إنهم ينزعجون منه. يعتمد كل شيء على هوية المشتبه فيه. وفي هذه القضية، كما تبيّن، المشتبه فيه شخص كان مقرّباً من الضحية جداً"

لم تصدّق الطريقة التي كان يلف ويدور بها حول الموضوع. كيف يعقل أن تكون شرطياً إن لم تستطع تنفيذ عملية اعتقال؟ واقفة عند

منضدة المطبخ، تجرّعت ما بقي في كأسها قبل أن تملأها مجدداً، وتساءلت عمّا ستكون عليه الحال إن استفاقت في السجن وهي تعاني صداعاً.

قال لها: "المهم أنني لا أريدك أن تقرئي عن الأمر في الصحف قبل أن أبلغك بما توصلنا إليه مسبقاً" وأخفض صوته فجأة حين عادت إلى مكانها على الأريكة وهي تحمل مجدداً كأساً مليئة بالشراب. "أظنّ أنك قد عرفت دين كوفاكس وقتاً طويلاً"

فسألت: "من؟"

عندها، تنحنح ورفع أحد حاجبيه عالياً وقال: "دين كوفاكس. أليس صديقاً قديماً؟"

"وما علاقة دين بهذا الأمر؟"

"هذا ما أنوي إخبارك إياه، فقد قمنا باعتقاله"

"أنت لا تعني أنكم اعتقلتم دين كوفاكس، أليس كذلك؟"

"آسف، أعرف أن هذا الأمر بمثابة صفعة مفاجئة. وإذا لم تمانعي قولي هذا يا سيدتي، فأنت تبدين شاحبة جداً"

قالت: "دين لم يقتل تود!"

"أنتِ محقة طبعاً. فهو لم يضغط على الزناد، لكنه اتفق مع رجال فعلوا ذلك. ربما ستشعرين بحال أفضل إن شربت بعض القهوة. ماذا عن كأس من الماء؟"

غير أنها قالت: "دين! أتظنون أن دين هو من قتل تود؟"

"إذا لم تمانعي يا آنسة بريت، فسأجلب لك كأساً من الماء. أرجو ألا تحاولي الوقوف"

كانت الآن تشعر كما لو أنها تحدّق إلى الشمس. وشعرت بأنها مختلفة عن كل أولئك الأخريات اللواتي ينتحرن؛ فهي في فئة خاصة

بها، وخاضعة لعدالة أسمى، لكن الحقيقة أنها تحرق ذكرياتها في عمل فذ من الغرور والكبرياء. كانت أفكارها بسيطة؛ مثل تأملات طفل في مرحلة نرجسية من التطوّر التي تسبق التقمّص العاطفي. وضعت افتراضات لمراحل كثيرة، فافترضت مثلاً أنها في خضم ذلك، مع إمكانيات واحتمالات تدور في فلكها وحدها، وافترضت أن اللعبة التي تلعبها لها كتيب قواعد، وأنها تعمل في حقل معروف، حيث لا يُسمح إلا بنتائج معينة فقط.

فهي، جودي، معجبة بدين كوفاكس؛ إذ إنه رجل لطيف كفاية، وإن كان مُضلّلا قليلاً، ولا شيء لديها لتضمره ضده بالتأكيد. قد لا تكون بأبهى صورها، وقد لا تكون متمالكة نفسها كما ينبغي، لكنها لا تتخلّى عن مبادئها مطلقاً أو تُفسد أخلاقها. ورؤيتها رجلاً بريئاً يُعاقب على جريمتها شيء لا يمكنها أن تساوم عليه، أو تتعايش معه.

تباً يا دين، تباً لك! ما الذي قاله أو فعله ليورّط نفسه؟ وأي راية لوّح بها ليثير هذا النوع من الريبة لدى الشرطة؟ لم يخبرها رجل الأسرة شيئاً. "لا يمكنني تزويدك بأي تفاصيل أخرى الآن كما أخشى يا آنسة بريت. أنا آسف جداً، لكنْ لا يمكنني الإفصاح عن هذه المعلومات، ليس حالياً" كرهت ما حصل؛ هذه الانعطافة الغريبة للأحداث التي تفسد كل شيء. فقد وثقت بدين ليتدخّل في شؤونها الخاصة. أما هو فلم يتحلّ بمنطق سديد مطلقاً، وهو فضولي ومتباهٍ، ويمكنها أن تتركه يتعفّن في السجن، تقريباً؛ بالكاد.

ارتدت معطفاً، وأخذت الكلب في نزهة إلى البحيرة؛ حيث راحا يمشيان هناك في العتمة التي كانت تخيّم بسرعة. ازدادت السماء حلكة، وصارت أشبه بمساحة مضطربة بغيوم داكنة تندفع مثل أمواج

من الأفق، فيما الريح تعصف بالماء وتهبُّ على طول الساحل. كان المزاج الذي سيطر عليها مألوفاً؛ إحساساً بأنها هائمة في وجود فارغ، وهذا جوهر جودي الخاوي؛ مكانها التعيس وسط الحقيقة الأساسية. إنه المجال الذي تخفيه تحت عباءة التفاؤل، وتدفنه في جولات الحياة العادية. هنا تعيش جودي؛ جودي التي تعرف أن الإنسان يزدهر وينجح وفقاً لدرجة تلاعبه بظروفه الشخصية فقط. وجودي هذه لا تُرى إلا نادراً، لكن أليسون رأت جودي هذه واستغلتها؛ وهي تدرك الآن أن بضعة أشياء فقط تبدو على حقيقتها.

فاجأها منزلها حين عادت إليه؛ كما لو أنه عرين حيوان بغيض. وكانت كلارا قد جاءت قبل يوم واعتنت بالمكان كالمعتاد. لكن ما بقي غير منجز تضخّم في مخيلة جودي القلقة. أول ما أثار انتباهها هو الرائحة الكريهة، وبقايا القهوة والفاكهة المتعفّنة. وأينما نظرت، كانت تجد قذارة؛ أوساخاً في المغسلة، وعفناً بين البلاط. بدأت العمل باستخدام دلو ورقع، وصوف حديدي، وفرشاة أسنان. كما استخدمت مطهّراً لتفرك البلاط والمغاسل وأوعية النفايات، وانتقلت بين الغرف وهي تجمع الأغراض - الصور، مصابيح الطاولات، الشمعدانات، التماثيل، الأدوات المخصصة لمنع انغلاق الأبواب، مساند الكتب - ووضعتها في الوسط على أوراق صحيفة لتنظّفها. وفهمت حتى أثناء كدّها بالعمل أن منزلها مرتّب ونظيف أصلاً، وأن إحساسها باتساخه مفتعل؛ فهذا أمر تقوم به تحت تأثير وهم السيطرة والرغبة في تصويب الأشياء.

وبحلول وقت استعدادها للنوم كانت قد اتخذت قراراً وعقدت العزم على تنفيذه. ففي الصباح ستسلّم نفسها، وسيكون ذلك أمراً

سهلاً. فكل ما ينبغي لها فعله هو إجراء اتصال برجل الأسرة - لا تزال بطاقته لديها - وإخباره عن اتفاقها مع أليسون. سيكون كل ما يحدث بعد ذلك منوطاً بالشرطة والمحامين والقاضي وهيئة المحلفين الذين سيفعلون بها ما يرونه ملائماً؛ فالعدالة يجب أن تطبق، وستضع نفسها بين أيديهم، وستفلت من الصنارة وتتحرّر من المسؤولية. راحت تتصوّر هذه الخطة باضطراب محتّم. فهذا ما توصّلت إليه، وشعرت بالسعادة بعد اتخاذها هذا القرار، وبالارتياح تقريباً. على الأقل، ستتحرّر من كل الشك والخوف. وفي هذه الأثناء، يمكنها أن تتطلّع قدماً إلى رد فعل رجل الأسرة، فهذا وحده يستحق العناء؛ أي مفاجأته رغم كل غروره الواهم.

لكن نومها كان متقطّعاً. وفي أثناء الليل، ازداد قلقها. وبحلول الصباح، اضطرمت النار في صدرها وحلقها، وشعرت كما لو أن رأسها بين كمّاشتي ملزمة، وعضلاتها مرهقة. ورغم العرق الذي راح يتصبّب منها، سرت برودة عبر مجرى دمها؛ فراحت تتدثّر بالبطانيات حيناً، وتدفعها جانباً حيناً آخر. وأخيراً، أرغمتها أنفاس الكلب على وجهها ونباحه وهو يحاول إثارة اهتمامها على الخروج من السرير. رفعت السمّاعة بيد دبقة، وألغت مواعيدها الصباحية مع مرضاها، ثم اتصلت بجليسة الكلب التي وافقت على المجيء وأخذ فرويد في نزهة، وبعد ذلك اتصلت بالشخص الذي يُخرج الكلب في نزهة وأخبرته أن الكلب سيبقى مع الجليسة. أرهقها إجراء المكالمات، وسرعان ما استغرقت في النوم. وعندما استيقظت مجدداً، وجدت الجو مظلماً في الخارج، والكلب قد اختفى، والعرق يبللها، وملاءاتها الرطبة ملتفة حولها بطريقة فوضوية. بذلت جهداً لتنهض على قدميها

وتتلمّس طريقها إلى الحمّام، ثم ابتلعت رشفة ماء، ووقفت قرب قاعدة المرحاض، وتقيّأت كمية صغيرة من الصفراء، وبعد ذلك عادت إلى السرير في الجانب الآخر.

مرّ الوقت، ولاحظت تلاشي الضوء في الخارج قبل أن يحلّ الظلام مجدداً، وتذكرت سماعها رنين الهاتف، ورنين جرس البيت من الردهة، وتساءلت إن كانت عطلة نهاية الأسبوع قد حلّت؛ لكن تلك ربما تكون قد حلّت وانقضت. عادت إلى جانبها من السرير، الجاف الآن، وتمنت أن يحضر لها شخص ما كأساً من شراب الزنجبيل أو مثلّجات البرتقال؛ فهذا ما اعتادت أمها على تقديمه لها حين تكون مريضة وطريحة الفراش أثناء طفولتها؛ رغم أنها لم تمرض لفترات طويلة. كانت فتاة مرنة، وقد صدّقت آنذاك أن أشياء رائعة فقط ستحدث في حياتها؛ فذلك هو الوعد الذي كانت تسمعه دائماً. وعندما ظهر تود في حياتها، بدا ذلك برهاناً على ما كانت تتوقعه؛ فقد كان رجلاً لديه أحلام وإرادة لتحقيق تلك الأحلام. في البداية، كانا مولعين جداً ببعضهما بعضاً، وواثقين جداً بمكانتهما في برنامج حياتهما، ولم تعرف حينئذ أن للحياة طريقتها في حصر المرء بالزاوية. فأنت تتبنّى خياراتك حين تكون يافعاً؛ ما يجعلك غير قادر على فهم مضامينها. ومع كل خيار تتخذه يضيق مجال الاحتمالات. فعندما تختار مهنة فأنت تبتعد عن باقي المهن. وعندما تختار رفيقاً، فأنت تلتزم بألا تحب أحداً سواه.

وعندما تغفو، كانت تحلم بغرباء؛ رجال ونساء مجهولين يخبرونها أشياء لا يمكنها سماعها أو فهمها. فتنهض، وتحمّص قطعة خبز، وتدهنها بالزبدة، ثم تلقيها في سلة النفايات، وتعود إلى السرير.

والآن، إنها في فلوريدا، تلقي محاضرة عن اضطرابات الأكـــل. وقـــد توفي شخص بسبب جرعة مفرطة من الأقراص المنوّمـــة، وأليســـون حامل، وهي - جودي - مسؤولة بطريقة ما. مشـــت في الظلمـــة بتثاقل، وسبحت عكس التيار، وســـقطت في حفـــرة، وكافحـــت للخروج منها. هي وتود يعيشان في بيتهما القديم؛ الشـــقة الصـــغيرة حيث كانا سعيدين حين أصبحا معاً لأول مرة، وهي ترتّب مجموعة من الأغراض المنزلية، وتضع الموادّ في العلب، الواحدة بعد الأخـــرى. لكن هناك أشياء كثيرة جداً، والعتّالون يقرعـــون البـــاب. ثم تغـــير المشهد، ورأت تود وهو يقول إنه سيتزوج الآنسة بيغي، ويأمـــل ألا تمانع. وعندما استيقظت أخيراً، شعرت بوحدة مريـــرة، والطعـــم في فمها جعلها تفكر في الفئران.

انتابتها الشكوك دائماً؛ فهناك بالتأكيد حشـــرات تعـــيش في شعرها، لذا راحت تهز رأسها، لكن المخلوقات الصـــغيرة تشـــبّثت بقوة؛ سعيدة في العش الرائع الذي بنته وسط خصلاتها الرطبة وفروتها الدهنية، ولا بد أنها تحب هذا؛ الزيت والعرق، ورائحتهما المقـــززة. وشعرها بالتأكيد مكان رائع لتضع فيه بيوضها الهزيلة وتربّي صغارها المقزّزة للنفس؛ إنه مكان لا نظير له.

في اليوم الخامس من مرضها، وجدتها كلارا مســـتلقية فـــوق ملاءات السرير مثل ورقة تذروها الرياح، متكوّرة ومتراخية. كانت ممددة على جانبها الأيمن، ورأسها وكتفاها إلى اليسار - مرمية علـــى اللحاف المنتفخ - مرتدية قميصاً تائياً كبيراً مربوطاً حول جذعها.

وقفت كلارا في المدخل؛ مترددة بين حالة التأهب وفكـــرة أن سيدة المنزل قد تأخرت بالسهر ليلة أمس. وشعرت بإغراء يحثها على

إغلاق الباب ببساطة والبدء بالتنظيف. كانت المرأة شاحبة ونحيلة دائماً؛ نموذجاً ضعيفاً برأي كلارا. لكن، حتى بالرغم من الضوء الخافت تمكنت من إدراك أن هناك شيئاً ما ليس على ما يرام. فبشرة السيدة غيلبرت مزرقة قليلاً، وعيناها الغائرتان تدلان على ما هو أكثر من مجرد آثار شراب سيئة.

"سيدة غيلبرت، هل أنتِ بخير؟"

دخلت الغرفة، ووقفت قرب السرير، ولاحظت أن شيئاً ما قد حدث لشعر السيدة غيلبرت؛ فشعرها الطويل والجميل قد اختفى وكأنه قد جُزَّ، والفوضى الهزيلة المتبقية كانت ملتصقة بكتل إلى فروة رأسها. أثار هذا الأمر أكثر من أي شيء آخر دهشة كلارا، فمالت فوق السرير، وأمسكت معصم جودي.

وقالت: "سيدة غيلبرت، استيقظي أرجوك"

هزّت الرسغ بقوة؛ ففُتحت العينان، وسرت رعشة عبر الشكل الشبيه بالطيف. عندها، تركت كلارا رسغ جودي وهي تشتم نفسها، وغادرت الغرفة مسرعة لتبحث عن الهاتف.

لاحقاً، بعد أن جاء المسعفون وذهبوا، ذهبت كلارا إلى الحمّام ووجدت الشعر المفقود؛ كتلة ناعمة وداكنة مكوّمة على الأرضية. ورأت المقصّ المسنن الذي أحدث الضرر مرمياً في الزاوية.

كانت جالسة على الفراش، مسندة ظهرها إلى مجموعة من الوسائد، فيما ضوء النهار الشاحب يتدفق عبر النافذة، مُبرزاً كل تفصيل في الغرفة الصغيرة: الغسيل الذي يترك ظلاً أسود على ملاءتها المقلوبة، والنسيج الناعم لبطانيتها الزرقاء، والجدران التي كانت بلون النعناع وتظهر عليها بقع متقشّرة، وبونستية كبيرة على خزانة بجانب

سريرها. وعلى عتبة النافذة، كان هناك زنبق منقّط كان شذاه الرائع يغزو أحلامها.

اختفى وعاء التبوّل الخاص بها، وكذلك الأنابيب الوريدية. أمس، قبل الفطور، قامت بأول رحلة بمفردها إلى غرفة الاغتسال، ووجدت هناك فرشاة أسنانها، ومشطها، ومستحضرات تزيين متنوّعة في حقيبة مغلقة بسحّاب وموضوعة بجانب المغسلة. لم تعرف من جلبها لها، أو من أحضر النبات أو الزهور؛ فالناس يأتون ويذهبون منذ بعض الوقت. في البداية، لم تتعرّف أياً منهم، وكانت تستيقظ فترى شخصاً ما واقفاً بجانب سريرها أو جالساً على كرسي في الزاوية، ثم تغفو، وحين تصحو مجدداً يكون قد غادر.

دخلت إحدى الممرضات - ذات الأسنان غير المنتظمة - للتو لتقيس حرارتها وتوبّخها: "تعرفين جيداً يا آنسة بريت أنك عندما جئت إلينا ظننا أننا قد نفقدك. لماذا تركت نفسك تصابين بجفاف شديد؟ ينبغي أن تعرفي أنك عندما تصابين بالأنفلونزا يجب عليك أن تشربي الكثير من السوائل. كان يجب عليك أن تخبري شخصاً ما أنك مريضة؛ فصديقاتك جميعاً قلقات عليك، وأي منهن كانت ستُسر بالعناية بك، وإحضار بعض العصير لك، ومساعدتك في غسل شعرك"

لا يزال النظر إلى صورتها في المرآة يسبب لها صدمة. فهي لا تتذكر استخدامها المقص، أو الأفكار التي ربما دارت في ذهنها. وما تتذكره فعلاً هو الرضى الذي شعرت به حين رأت شعرها على الأرضية، ولدى معرفتها أنه قد انفصل عنها ولم يعد جزءاً منها، أو متصلاً بها. كل ذكرياتها عن أيام مرضها مفكّكة على هذا النحو.

لكن هناك شيئاً واحداً تعرفه بالتأكيد، وهو أن الكثير من الناس حاولوا الاتصال بها. فهي تتذكر الرنين، والأزيز، والقرع، والرسائل، والمكالمات، ومحادثة خاصة مع د. روبن الذي عبّر عن مدى أسفه بشأن تود، وبغضه لاضطراره إلى إزعاجها في مثل ذاك الوقت، وقوله لها إن لديه شيئاً يريد إخبارها إياه؛ شيئاً سيلغي على الأقل أحد أسباب قلقها.

ما الذي ينبغي ألا تقلق بشأنه؟ حاولت أن تتذكر. كان صوته على حافة ذهنها مثل نغمة مقطوعة موسيقية، وبدا في عين عقلها بسترته البيضاء وظهره المحدودب قليلاً، والكلمات التي كانت تخرج من فمه؛ "نتائج التحليل"؛ هذا ما اتصل ليخبرها به. إن نتائج تحليل تود سلبية؛ رسالة من خارج القبر. وقد توفي تود رجلاً موفور الصحة وترك امرأته سليمة؛ ممّا يلغي أحد أسباب قلقها.

لحسن الحظ، غادرت الممرضة وتركتها بسلام. إذ أرادت إغماض عينيها والتفكير في زيارة هاري لوغروت لها؛ فقد جاء بعد الغداء لينقل إليها النبأ.

قال هاري: "إذاً، لقد عدت إلى العالم" جلس على حافة سريرها، وروائح العالم الخارجي تفوح منه: التبغ، الهواء النقي، الصوف الرطب. وكان وجهه متورّداً، وشعره الفضي مسترسلاً. أخبرها عن المكالمة التي تلقاها من ستيفاني؛ بعد إبلاغها بما جرى من جانب كلارا التي كانت تحاول الاتصال بتود. "فوفقاً لمعرفة كلارا، كان تود حياً وبخير. أظن أنها لم تر القصة في الصحف، ومن الواضح أنك لم تحاولي إبلاغها بما حصل بدا لها أنه وجد تصرفها هذا غريباً – نظراً إلى الطريقة التي كان ينظر بها إليها – لكنه لم يحثّها

أكثر، أو يسألها عن شعرها. والسبب الرئيس لزيارته كما قال، هو إخبارها أنه تمّ العثور على القاتل.

كرّر مستجيباً لنظرتها العقيمة: "المسلّح، أعني المسلحين. فقد كان هناك اثنان. وهما محتجزان بانتظار البت بأمر الكفالة"

لم تحب الطريقة التي كان يتكلم بها معها؛ بصبر، وبحرص. كان ينقل لها الخبر بألطف طريقة ممكنة. لا يمكن أن يعني هذا إلا أن الرجلين قد تكلما، وأن النقاط قد وضعت على الحروف.

قال هاري: "أثبتا ما كنا نعرفه سابقاً، وهو أن دين كوفاكس قد اتفق معهما ودفع لهما لفعل ذلك"

ما الذي يقوله؟ ولماذا يبتسم؟ بدا أنه يستمتع بارتباكها، وربما يريد خداعها لتعترف. طبعاً، لهذا جاء إلى المستشفى في حين أنه كان بمقدوره الانتظار يوماً أو اثنين ورؤيتها في مكتبه. فقد أراد مفاجأتها في حين أنها لا تزال خدرة وضعيفة. لكنها كانت قد خططت للاعتراف - كانت تلك نيتها طوال الوقت - وكانت ستفعل هذا لولا مرضها، ولا حاجة به إلى خداعها ليصل إلى الحقيقة.

لكن هاري تابع كلامه بحيوية بالغة، وهو متحمس لموضوعه. وأخبرها أن الرجلين مجرمان محليان تمتد سجلاتهما الجنائية بطول ذراعها، وقد قالا إن دين هو الشخص الذي اتفق معهما. ولكن لم تكن هناك حاجة إلى اعترافهما؛ بسبب وجود أدلّة كثيرة تدعم ما قالاه.

"مكالمات هاتفية، وتحويلات مصرفية. كان كوفاكس أحمقَ، وترك أثراً خلفه طوله ميل

تابع هاري كلامه قائلاً إنهما كانا يدافعان عن براءتهما بعناد، ويقولان دائماً بصوتٍ عالٍ وبصخب إنهما لم ينفذا الأمر. هل اتفقا

مع دين على القيام بالمهمة؟ نعم. هل نفذاها فعلاً؟ لا. وعندما أخبرها بهذا ضحك وربت على ركبتيه، وقال إنه لم يملّ قطّ من الأكاذيب التي يسردها المجرمون اليائسون الذين يحاولون تخليص أنفسهم. فحتى عندما يُضبطون متلبّسين فهم لا يقولون شيئاً؛ أي شيء على الإطلاق.

عندما استعادت قوتها البدنية، عادت إليها حدّة ذهنها أيضاً. وفي البداية، لم تعرف كيف تفكر في الأمر؛ المهلة التي مُنحت إياها، الشيء التقني الذي أعاد لها حياتها، *والصفة التقنية* هي العبارة الملائمة أيضاً.

تذكرت أحاديثها الهاتفية مع دين، وكل ذلك الغضب والغيظ. لم تفكر حينها أن إحساسه ذاك قد يعني شيئاً، وبدا لها آنذاك أنه يرغب فقط في التعبير عن مكنونات صدره. بالمحصلة، كان أقدم أصدقاء تود، فكيف يمكنها أن تأخذ ما قاله على محمل الجد؟ وكما تبيّن على أي حال، هناك أعماق في دين لم تسبر أغوارها قطّ، ومن الواضح أنها لم تفِه حقه. لكن بوصفها شخصاً لم يُرزق بالأولاد، ينبغي أن يُصفح عنها لإغفالها الواجب الأبوي؛ أي اضطرار الأب إلى حماية أولاده مهما كلّف الأمر. لأنها ليست رجلاً، لا يمكنها أن تفهم تماماً نوع الموقف الرجولي الذي وجد دين نفسه فيه، والذي لعب من دون شك دوراً في جعله ينحرف عن الطريق القويمة، وحثّه على المضي بالأمر بعيداً.

مالت إلى تصديق وجهة النظر التي طرحها هاري؛ وهي أن رجلي دين هما المذنبان، وأن تذرعّهما بالبراءة يرتكز فقط على محاولتهما اليائسة أن ينقذا نفسيهما. ما الذي يعنيه هذا بالنسبة إلى

أليسون؟ ربما لم تكن أليسون جديرة بالثقة، أو ربما لم تنوِ الالتزام باتفاقهما، أو ربما سقطت في شرك الإغراء حين رأت كل تلك الأموال. ويبدو من الممكن أيضاً أن تكون أليسون قد دفعت المال لريني فعلاً ولكنه لم ينفذ المهمة. من ناحية أخرى، قد تكون أليسون وريني قد أنجزا ما دُفع لهما ليفعلاه، أو ربما حاولا على الأقل القيام بذلك. ستفضّل جودي أن تُحسن الظن بهما؛ فهي لا تميل إلى الشك بإخلاص أليسون أو حماسة ريني لأداء عمله. ورغم هذا، كل ما استطاعت فعله هو التفكير؛ لأن اللثام لن يُماط عن الحقيقة أبداً. ومع هذا، في مثل هذه الحال، تكون الحقيقة نسبية، ومعقّدة، ومشوّشة. الشيء الوحيد الذي تعرفه بالتأكيد، والشيء الوحيد الذي يمكنها الاعتماد عليه، هو أنها لن تسترجع نقودها. وماذا عن سبب تجاهل أليسون لها؟ حسناً، هذا هو السؤال الذي تبحث عن جواب له.

عندما عادت من المستشفى إلى المنزل، وبعد مرور يوم أو اثنين، وحين استعادت قوتها لمواجهة الضوء المتقطّع على شاشة هاتفها، وجدت بين رسائلها واحدة من شقيقها رايان. عادة، رايان لا يتصل بها كثيراً، ولا يعرف شيئاً عن الأحداث الأخيرة. ربما كان يريد تفقّدها فقط، فربما فكّر فيها مصادفة، وسيتصل مجدداً. وشعرت بالأسف لأنها لم ترد عليه. لكن، لقد انقضى وقت طويل منذ أن تعلّمت إبقاءه ضمن منظورها، وعدم ربطها نفسها بُعقدٍ بشأن مجيئه وذهابه، والفضل طبعاً لجيرارد هارتمان.

غريبٌ كيف تمنحك الحياة هذه الهبات غير المتوقعة. ذهابها إلى جيرارد في المقام الأول كان جزءاً من تدريبها. لكن، لا يمكنها إنكار حقيقة أنها قد نظرت في أثناء عملها معه عبر عدسات ذاتها،

واكتشفت أشياء مهمة عن نفسها؛ مثل قدرتها الرهيبة على تجاهل ما لا ترغب في رؤيته، ونسيانها ما لا تريد معرفته، وإبعادها شيئاً ما من ذهنها وعدم تفكيرها فيه مجدداً قط. باختصار، عيشها حياتها وكأن أحداثاً معينة لم تحصل قطّ.

كل طبيب نفساني يعرف أن المهم هو رد فعلك على الحدث وليس الحدث نفسه. فإذا جمعت عشرة أفراد مختلفين، وعرّضتهم جميعاً للتجربة عينها في الحياة، فسيصفها كل منهم بتفاصيلَ ومعاني شخصية منتقاة بعناية. وجودي هي مثال الشخص الذي لا يفكر في الأمر مجدداً أبداً، ولا مرة، إطلاقاً. وما حدث لها في الماضي البعيد من طفولتها انقضى بخير، وأصبح طي النسيان فعلاً، وتُرك في الخلف؛ ميتاً لا ينفع بشي، وكأنه مُحي، أو هذا ما كانت تصدّقه لو أنها لم تدرس علم النفس. في النهاية، كان عليها تقبّل أنها حتى إذا نسيت أمراً فهذا لا يعني أنه لم يحدث مطلقاً؛ فالسجل لا يُمحى تماماً، ولا يمكنها أن تعود إلى ما كانت عليه سابقاً، وحالة براءتها ليست موجودة حتى تتمكن من استعادتها. قد تكون التجربة التي مرت بها غير مرغوبة، وربما لم ينتج عنها إلا ضرر وأذى. لكن للتجربة معنى، وهي واقعية وموثوقة، وتعيش في ماضيها وتؤثر في مستقبلها، مهما فعلت بشأنها. ربما يكون مرطبان المخلّل الذي تخلّصت منه قبل أعوام عديدة قد وصل إلى مكب النفايات، لكنه لا يزال موجوداً هناك. وربما يكون مكسوراً، وحتى محطّماً، لكنه لم يختفِ. وربما كان منسياً، لكن النسيان مجرد عادة.

في هذه المقارنة، مكب النفايات هو العقل غير الواعي. ليس الجمعي وإنما الشخصي، وليس وعيك الذاتي الفردي والخاص حيث

يُنقش على كل مشروع اسمك ويُدمغ برقمك؛ إنه اللاوعي الذي يمكن أن تطير منه أشياء عليك فجأة. فقد انقضَّ عليها شيء في أحد الأيام حين كانت تنتظر المصعد بعد إبلاغ جيرارد عن حلمها بشأن داريل. من الناحية الإيجابية، يدل هذا كثيراً على حضورها العقلي. فهي لم تُغفل قيمة الحدث على أنه درس عملي في علم النفس، وفعلاً خطرت لها فكرة مدهشة: العقل اللاواعي ليس مجرد نظرية في كتاب أو نموذجاً مفبركاً أو وهماً منتفخاً، وإنما هو حقيقة؛ مثل الأنف في وجهك، ومثل مرطبان المخلل. وفقاً ليونغ، ينشد كل ما في العقل اللاواعي تعبيراً خارجياً؛ موقفاً داخلياً لا يجعل الإرادة الواعية تتجلّى في أحداث خارجية على أنها مصير. وقد قدّم الفيلسوف اليوناني هرقليطس مقترحاً مشابهاً حين قال إن الشخصية هي قدر المرء.

كم سيكون جيرارد سعيداً حين يعرف أن حلمها قد أوقد هذه الذكرى الطفولية القيّمة؟ كان هناك على الأقل شيء يمكنه الإمساك به، وبدا أنه يقترب منه، وقد أحس بأن شيئاً ما ينتظر انتهاز الفرصة، ويتقدّم بصبر وعزم؛ وكأنه يتوقع هذه اللحظة تحديداً؛ سقوط هذه الفأس. تساءلت عن العبارات التي ربما انتقاها. وكانت ستتحب أن تسأل، لكن كما تبين لم تسمح لجيرارد بكسب ثقتها مطلقاً؛ فقد قرّرت ألا تسمح له بهذا. وبدلاً من ذلك، أبقت السر لنفسها ولم تُفصح عنه قطّ. وفي النهاية، فضّلت الاحتفاظ به في علبة مغلقة وجعله يتوق إلى الأوكسجين. وبدا هذا خياراً فكّرت في أنه قد يكون امتيازاً لها وحتى لمصلحتها. عرفت من تدريبها أن مثل هذه الأمور تحتاج إلى متنفّس، لكنها بالمحصلة كانت لا تزال الشخص ذاته، ولا تزال طفولتها مصدر ذكريات سعيدة بالنسبة إليها. ففي

علبة غذاء الحياة، لا يوجد شيء مثل مئة في المئة. وتعتبر تسع تسعون في المئة نعمة كبيرة. والشيء الوحيد الذي كان ينبغي لها فعله هو التعامل مع آفة الواحد في المئة، وإيجاد طريقة لاحتوائها.

فجأة، أنهت كل تواصلها مع شقيقها الأكبر. ومنذ ذلك الوقت، وطوال عقود، تفادته تماماً، وأبعدت نفسها بقوة عن أفراحه وأتراحه، ونحّته جانباً من دون رحمة. كان يعرف السبب، ولم يكن هناك أي داعٍ إلى الشرح، فما فعله لها لم يدم طويلاً - زلّة صبيانية، هفوة بلوغ - لكن، يجب ألا يُصفح عن بعض الأشياء.

لن تصفح عن *نفسها* أبداً أيضاً. لم يعرف والداها شيئاً عما حصل، وهي واثقة بهذا؛ فهما ما كانا ليتحمّلا مثل هذا التصرّف من أحد أبنائهما، ولا يمكنها إلقاء أي لوم عليهما. كان ينبغي لها أن تمنعه قبل أن يصل إلى رايان، وقد عرفت من دون شك أنه قد فعل ذلك. فقد بدأت كوابيس رايان بين ليلة وضحاها، وبدت نوبات غضبه مدهشة ومن دون سابقة. كان الابن الأكثر مرونة، وربما ظنَّ المراهق داريل أن الأخ الأصغر يعني ريبة أقل، وربما كان يستغل خياراته فقط. لم يكن هناك شيء يجول في خاطره على الأغلب، وكل شيء كان مرتبطاً بالغدد. وبأي حال، حدث الفعل وامتنع رايان الراشد - مثل جودي - عن التواصل مع داريل، ولم يذكر اسمه في أي حديث.

اتفاقها غير المعلن مع رايان هو أن أياً منهما لن يتطرّق أبداً إلى تلك الأحداث، أو ينبش الرفات، أو يُنقّب في أرض الأشياء الخاطئة. ومعيارها لأعوام رايان الباكرة، وما قد يتذكره هو نفسه أو لا يتذكره كان خارج نطاق البحث، ولاغياً وباطلاً فعلاً، تاريخاً

مهجوراً، ماضياً يتنصّل من المسؤولية. النسيان مجرد عادة، لكنه يجلب السكينة للعقل. والأهم هو أن يتمتع عقل رايان بالسكينة، ويحافظ على سلامته، ويسمح بأن تغلّف الصمتَ تجربةٌ جديدةٌ.

وفي ما يتعلق بها، كل صباح حين تستيقظ من النوم، تشكر الله على إنقاذها؛ فحريتها هبة لا تقدر بثمن. لا يزال بمقدورها أن تستيقظ كل يوم في منزلها الجميل، وتمشي حافية على السجادة الصوفية السميكة، وتفتح الستائر الحريرية والكتانية لتطلّ على منظر الأفق، وتشرب القهوة بالحليب مع الخبز الفرنسي، وتذهب في نزهة مع الكلب. إنها تدرك تماماً – لم تنس أبداً، ولو للحظة – أنها كادت تخسر كل هذا. لذا، كان شكرها مثل حلوى قاسية لا تذوب في فمها.

وهي شاكرة لهاري أيضاً، الذي يعمل جاهداً نيابة عنها. فقد حُدّد موعد المحاكمة لإقرار صحة الوصية، ووقّعت على بعض الأوراق، وأخبرها أن ناتاشا قد رفعت دعوى لكنه واثق بنسبة تسعين في المئة أنها ستُسوّى خارج المحكمة. فمع اقتراب موعد ولادتها طفلها في الربيع ودنو المحاكمة، ستكون مشغولة بأعمال كثيرة. بأي حال، يمكن لجودي إظهار كرمها؛ فهي ستحصل على أموال طائلة حين يُباع المبنى السكني وبناية المكاتب. وستساعد ستيفاني في هذا. وبحلول ذلك الوقت، لن تكون هناك حاجة إليها، وسيكون بمقدور جودي أن تعرض عليها اتفاق نهاية خدمة لائقاً. مالياً، سيكون كليف العقبة الأكثر صعوبة؛ لأن تود كان أفضل عملائه على الإطلاق. لكن الرجل بارع في ما يقوم به، وسيحصل على زبائن جدد.

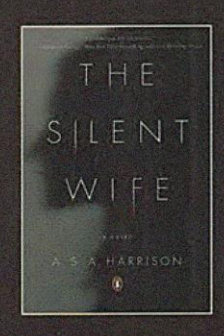
تعرّفت التغييرات في نفسها؛ فهناك ليونة، وتواضع جم. وبالإضافة إلى هذا، هناك إحساس غامر بقربها من مرضاها. فبعد أن

فهمت أنها هي أيضاً عنيدة وجشعة وعمياء ومتعنّتة، وأنها عالقة في المأزق مثلهم جميعاً، ينبغي أن تكون شاكرة لإخلاصهم ولطفهم. فهم يتحمّلون هفواتها، ويطمئنون على صحتها. وقد أحضر القاضي زهوراً لها، وخبزت برغمان لها فطيرة؛ صدقاً.

لكن الشيء المفاجئ حقاً هو أهم جميعاً – حتى مريضتها صعبة المراس ماري ماري – يُظهرون مقاومة أقل، ويبذلون جهداً أكبر للعمل معها. لقد أثّر تيار معين فيهم؛ فصار لديهم استعداد وراحة بال، ورغبة في تحمّل المسؤولية والمضي قدماً؛ وظهر ذلك كلّه في موقفهم الجماعي. وكل شيء يبدأ بموقف، أو وجهة نظر ذات معنى، أو اعتقاد؛ *القصة التي تسردها لنفسك* كما قال أدلر. كان واضحاً أن التغييرات التي طرأت عليها تؤثر في مرضاها تباعاً. وهي مرغمة الآن على اعتبار الطبيعة البشرية مثمرة أكثر مما افترضت سابقاً، وأن سقوطها الشنيع من مكانتها السامية الذي ينبغي أن يجعلها أقل تشككاً مفارقة لا تغيب عنها.

غريبٌ التفكير – بعد رحيل تود – في أن ابنه سيقطن العالم في الأعوام الآتية. هل ستتعرّف الفتى إذا تجاوزته في الشارع؟ هل ستظهر صفات تود – مثل شبح – في ملامح ابنه، أم ستكون هناك على الأقل علامة، صفة مميزة، شيء في وقفته؟ تساءلت إن كانت أم الصبي ستخبره الحقيقة عن أسرته، وتأخذه لزيارة جدّه في إصلاحية الولاية. فلو كانت مكان ناتاشا، لشعرت بالإغراء في دفن الفوضى الفظيعة برمّتها، وعدم الإشارة إليها أبداً، وابتكار رواية ما لتفسير غياب دين، أو الأفضل من ذلك نسيانه تماماً، وكأنه قد توفي أيضاً؛ لأن الصفح عنه سيكون مستحيلاً.

بأي حال، القصة عن الرجلين حقاً، صديقي الصبا؛ أحدهما ميت، والآخر مثل ميت. لا حاجة إلى أن تجرَّ شابة مثل ناتاشا أزمتهما غير المنتهية خلفها، وتثقل كاهلها بعاقبتهما الأخلاقية المعيبة. وإذا كانت تتمتع بأي منطق فستجد لنفسها زوجاً آخر، شخصاً يمنح ابن تود اسماً جديداً؛ فالناس يهتمون كثيراً بقرابة الدم بأي حال. لكن ناتاشا على الأرجح واحدة من أولئك الأشخاص المتزمّتين بشأن الحقيقة، وما ستكون عليه حال الناس في الأيام القادمة. لذا، يمكنها أن تخبر الطفل عن نسبه؛ فلديه الحق بأن يعرف. لا تواجه جودي مشكلة مع تشوّش الحقائق، فهناك ثمرات يمكن جنيها. وبأي حال، يُفضّل أن تُترك بعض الأشياء من دون الخوض فيها، ولا حاجة إلى التحديق في وجه الحقيقة إذا كانت هناك طريقة أكثر لطفاً ودماثة، ولا حاجة إلى كل ذلك الإلحاح والتجهّم.



«تُدهش إيه. إس. إيه هاريسون الجميع بروايتها الأولى: الزوجة الصامتة. فبأناقة ورشاقة، ترسم لوحات نزاع نفسي لحبيبين يعيشان معاً منذ وقت طويل، وأصبحا: قاتلة مفترضة، وضحية سيئة الطالع، في حكاية لا يبدو أن أحداً يمكنه أن ينساها قريباً. لا يمكنني وضع هذا الكتاب من يدي».

إليزابيث جورج، مؤلفة «تصديق الكذبة»، الكتاب الأفضل مبيعاً بحسب نيويورك تايمز.

«قراءة رواية الزوجة الصامتة تجعلك تشعر بسرور كبير. أحب الكتب التي لا يمكنني تخمين نهايتها؛ رغم أنني كنت إلى جانب جودي طوال الوقت. هذه الرواية تتضمن كوميديا أخلاقية ممتعة جداً، ومجدولة بأحداث أسرية مرعبة».

كيت أتكينسون، مؤلفة «حياة بعد حياة وتاريخ الحالة»، الأفضل مبيعاً بحسب نيويورك تايمز.

«مكتوبة على نحو جميل، ومثيرة جداً. تتضمن شرحاً مسلياً على نحو مبهم لما يحدث حين لا يعود لديك ما تخسره، مما يسبب إدماناً رائعاً. جعلتني الرواية أحبس أنفاسي حين اقتربت من النهاية القاسية».

إس. ج. واتسون، مؤلفة «قبل أن أخلد إلى النوم» الأفضل مبيعاً بحسب نيويورك تايمز.

«رائعة... بوصفها رواية عن الجانب المظلم من الزواج والعلاقات، تُعتبر أفضل من رحيل فتاة لغيليان فلين. ينبغي أن يقرأها أي شخص يكون أحياناً قاسياً، أو متهوراً، أو مضطرباً نفسياً، وأي شخص يحب الكتب الرائعة التي تتصف بالعمق والموقف».

صوفي حنا، مؤلفة «منزل المرأة الأخرى».

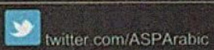

ISBN 978-614-01-1579-8



جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com


الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com




facebook.com/ASPArabic


twitter.com/ASPArabic

www.aspbooks.com


asparabic